روجيه غارودي

الاسلام دين المستقبل

ترجمة
عبد المجيد بارودي

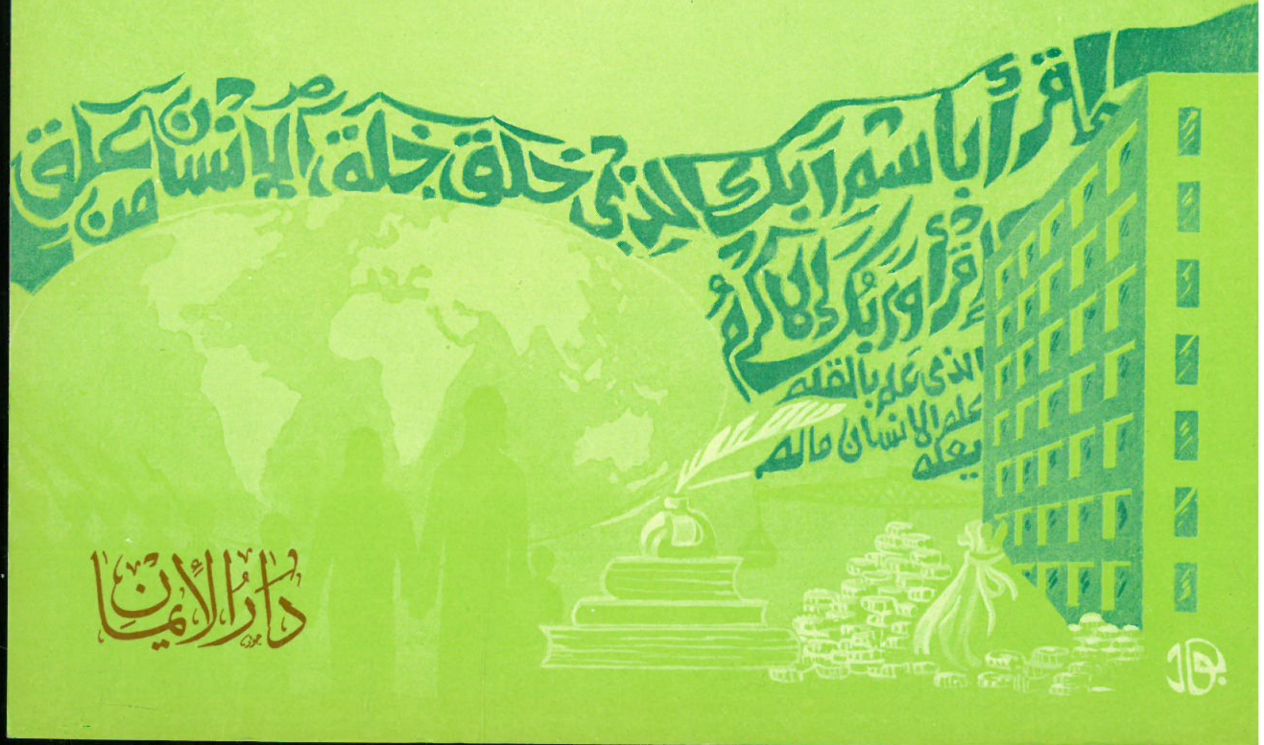

دار الأمان

مراجعة وتدقيق لجنة التأليف
والنشر في دار الإيمان

روجيه جارودي

الإسلام دين المستقبل

ترجمة
عبد المجيد بارودي

دار الإيمان للطباعة والنشر

LAU
19 DEC 2013
RECEIVED
Gift 28994

حقوق الطبع محفوظة
لدار الإيمان للطباعة والنشر
ص.ب. ٥٦٣٤/ ١٤ - بيروت
ص.ب. ١٠٠٦٥ - دمشق

مقدمة المترجم

دأبَ العديد من الكتّابِ والفلاسفةِ العربِ منهم والاجانب على دراسةِ وإصدار العديد من المؤلفاتِ عن الدين الإسلامي وماهيته . فمنهم من أصابَ ومنهم من خرج عن جادة الصواب .

وروجيه جارودي واحد من هؤلاء الذين استهواهم هذا الدين فأصدر مؤلفه هذا « الاسلام دين المستقبل » كتعبير عنِ امتنانهِ بهذا الدين وما قدمه للبشرية في شتىٰ أقطابِ العالم . خاصة وانه اعتنق الاسلام لما وجد فيه من يسر واستجابة لمتطلبات وضرورات الحياة ماضيها وحاضرها ومستقبلها .

يلبي هذا الفيلسوف إلحاحاً داخلياً عميقاً نما في نفسه حتى نضجَ فتوَّجَ هذا الالحاح بمؤلفه الذي زَوَّد به المكتبة العالمية كمرجعٍ شاهدٍ حيٍ على أن الدينَ الاسلامي دينٌ حضاريٌ وليس دين آني يزولُ مع زوالِ الأزمنة والعصور .

فالمؤلف من خلال عرضه وشرحه لدين الاسلام بينَّ أنه شامل لكلِّ زمانٍ ومكانٍ باقٍ مع بقاء دستور هذا الدين « القرآن الكريم » .

ان دفاع جارودي عن الدين الاسلامي سيستهوي كلَّ قارىء خاصةً وأنه سيجد فيه مثلاً حياً لشخصيته وشخصية الانسان المسلم وما قدَّمه من خدمات

لدول العالَم التي كانت تعيش في بحور من الظلمات والأضاليل . فالدين الاسلامي كان شعلةً اضاءت لأوروبا ودول العالمِ التي كانت تعيش في الظلام دروبَها دون مِنةٍ ورغم الأصوات التي نادت بالاعتراف بهذا الجميل ، فقد كادت تذهب في مهب الريح لأن أعداء الاسلام كانوا يريدون اخماد نوره ، حتى جاء جارودي أخيراً وليس آخراً . ورفع صوته عالياً منادياً بالاعتراف بالجميل للدين الاسلامي وأئمته من خلال تأكيده ان الاسلام دين المستقبل .

وكمترجم لهذا المؤلف ، حاولت بصدقٍ وآمانة نقلَ ما جاء به جارودي راجياً من الله تعالى أن أكون قد وُفِقّتُ فيما بذلته من جهد لإيصاله إلى المكتبة العربية ليقرأه أجيالُ الإسلام ليقتدوا بسير الأباء والأجداد ويتمموا الرسالة العظيمة المنوطة بهم وليرفعوا صوت الحق عالياً ....

وفوق كلِّ ذي علمٍ عليم .

١٩٨٣......

عبد المجيد بارودي

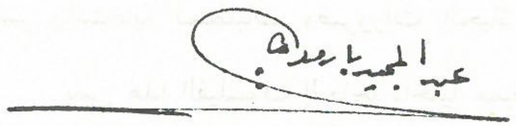

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـداء

إلى الباحثين عن الحقيقة في كل مكان وزمان .

إلى الباحثين عن الحق ، للتمسك به والعمل بمقتضاه .

إلى الراغبين في الركوب في سفينة النجاة ، خوفاً من الطوفان .

والوصول بها الى شاطىء الأمان بسلام .

كلمة الناشر

على الأفق العالمي ، يتألق اليوم شعاع وضاء ، متجاوزاً حجبَ الظلمات ، حاملاً معه بوادر الحب والإخاء ، النابعِ من العقول الباحثة عن الحقيقة ، والقلوب العامرة بالايمان . معيدةً النظر فيما كان ، وفيما هو كائن ، وفيما يجبُ أن يكون ، وذلك على ضوء المعارف الحديثة المجردة من كل شيء ، إلا الحقيقة الهادفة المطلقة . كل هذا على الرغم من تخبط العالم بمناهجَ مختلفةٍ ومتناقضة . ونظمَ ومبادىء مطبقة ، تمخضت عن قوىً عالمية سامقة ، وحضارة مادية ، وانطلاقة كونية باهرة ، ولكنها ذات بأسٍ رهيب وجبار لخلوها من الروح الانساني والايمان المطلق الذي يولّد الحب والرحمة في كل الأمم والشعوب .

بينما كانت تنطفىء مصابيح النور في رجالات الفكر الاسلامي ، مصباحاً إثر مصباح ، وخمدت حتى أُصبحت في قوالبَ جامدة ، أفقدته روحه الحية والبناءة على التقدم والرقي القائم على التسامح المعطاء ، المرفق بالعلم والايمان ، والمرتكز على المنبع القرآني الفيَّاض بالعطاء المتجدد والمستمر ، فجعلت من العرب المسلمين أمةً ما عرف التاريخ فاتحاً أرحمَ منها باعتراف مؤرخيهم من الغرب ، بل صاروا علماءَ حكماء كادوا بفقههم أن يكونوا أنبياء ، بما حققوا في أنفسهم من فكر عظيم ، وقلب مستنير ، وعمل مخلصٍ على الصراط المستقيم .

ولكنَّ هذا الفكر العظيم ، هذا الفكر التقدمي المعطاء ، فقد فعاليته وأخذ يدخل رويداً رويداً في ظلمات الجمود والتعصب الأعمى الذي لا يستند الى دعائمِ المعرفة والقرآن . بل دخلت عليه عادات رجعية تسربت إليه حتى أصبحت مهيمنة عليه وكأنها منه .

وقد ساعد على ذلك الثالوث المركب من الصهيونية العالمية والاستعمار والماسونية . فرسم ووضع وطبق في خبثٍ ودهاء ، وعمقٍ وشمول مخططات شتى مستخدماً كافة الأساليب لتحطيم الفكر الاسلامي في عقول المؤمنين به ، وتفنَّنَ في ذلك وأبدع حتى أبرز الاسلام مشوهاً في نفوس أبنائه ، فشجع الدراساتِ المعادية للاسلام وهي أكثر من أن تحصى ، وعلى سبيل المثال لا الحصر . كتاب نيبول المسمى « غسق الاسلام » والذي تُرجم الى اكثر لغات الأرض بدعمٍ من الثالوث المركب .

في خضمِّ ذلك كله كاد العربي أن يفقدَ الثقة بنفسه والثقة بقوته وايمانه ، بل وكاد ان يفقد حتى التفكير أن بين يديه عقيدةً صالحة للحياة ، صالحة للعطاء ، صالحة للتقدم الحضاري بما يكمن فيما من حبٍ وايمان ، وسموٍّ وإشراق ، وعلم واخلاق ، ونظامٍ شاملٍ كاملٍ لكل فروع الحياة وصالح لكل زمانٍ ومكان .

إنَّ أعداءَ أمتنا لا يصنعون بنا أكثر من أن يَحُولوا بيننا وبين استخدام الاسلام الصحيح الحي والقادر على توحيد طاقات أمتنا ، والنهوض بها في وجه الثالوث ، فزرع اليأس في صفوفنا تارة والرعب تارةً أخرى . والتفرقة في أبنائنا. مما أدى الى تفككها وضعفها وتشتيتها . ومن ثَمَّ يتسنى له ان يفرض علينا ما يريد من استغلال لخيرات أرضنا وإذلال لشعبنا ، وقد برهن على ذلك كثيراً في الماضي البعيد والحاضرِ القريب وأخيراً وليس آخراً في مجازره الرهيبة الشنيعة معيداً الى التاريخ الحديث عصر الهمجية والوحشية .

وقد كشف القناع من قبل(١) اللورد جلادستون قائلاً في مجلس العموم

(١) رئيس الوزراء البريطاني في عهد الملكة فكتوريا .

البريطاني : « ما دام هذا القرآن موجوداً فلن تستطيعَ أوربا السيطرة على الشرق ولا أن تكون هي نفسها في أمان » .

ولقد أدرك عظمةَ القرآن والاسلام جبابرةُ العقل البشري ، ورجالاته من أساطين العلم . فهذا العلامة جب في كتابه « مستقبل الاسلام » يقول : [إنه ليس ديناً بالمعنى المجرد الخاص الذي نفهمه اليوم من هذه الكلمة . بل هو مجتمع بالغٌ تمامَ الكمال يقوم على أساسٍ ديني ويشمل مظاهر الحياة الانسانية] .

وشهادات المنصفين من غير أهل الاسلام كثيرةٌ ، كلها تحفل ثناءً وتقديراً للاسلام وعظمته وقدرته الفاعلة على نهضة العالم في الماضي والمستقبل ، بل هو المؤثر الأول على الحضارة الغربية التي يفخر العالم بها الآن . وهذا ما جعل الاستاذ ليبري يقول: «لو لم يظهرِ العرب على مسرح الحياة لتأخرت نهضة اوربا الحديثة عدة قرون » .

وإن أعظم المخترعات التي تبهرنا اليوم يرجع الفضل فيها الى أبائنا الذين أحيوا في أنفسهم إرادة التقدم ورفضوا الإذعان للواقع وحسبنا مثلاً واحداً على ذلك ما تقوله العلامة زيغريد هونكة في كتابها « شمس الله تسطع على الغرب » .

« إننا نقف مشدوهين متعجبين أمام تطور فن الصواريخ العظيم دون أن نسأل أنفسنا الى من ندين بهذا الاختراع ..؟ ثم تثبت أنهم علماءُ العرب والمسلمين الذين يُدين لهم الشرق والغرب ، إذ كانوا أولَ من وضع نظرية تركيب البارود المندفع في القرن الثاني عشر ... وغيره من الامثلة كثير يضيق البحث هنا عن ذكره .

وإذا كانت الفلسفة في جوهرها وما زالت البحثُ عن الله عن الحقيقة كما عبَّر عنها باسكال بقوله:[صنفان من الناس يمكن أن نسميهم عقلاء وهم الذين يعبدون الله لأنهم يعرفونه. والذين يجدُّون في البحث عنه لأنهم لا يعرفونه] .

وإذا كان الدين الحق لا يتعارض مع العلم اليقيني بل يدعو اليه ويأمر به ، بل يجعله عبادة مشروعة من المهد الى اللحد. ويأمر أتباعه بقول النبي الأعظم . . . (طلب العلم فريضة على كل مسلم) فكان لزاماً لما سبق القول به أن يلوح من قريب أو بعيد إشعاعات مضيئة في الفكر العالمي بإعادة النظر في جوهر الإسلام بالدراسة الفعلية الجادة البعيدة عن الأهواء والأغراض والغايات . مما يبشر العالَمَ أجمع بانفتاح نحو الأفضل ، وذلك عن طريق الحوار المفتوح لكل الأطراف. كما حدث في الآونة الأخيرة في ألمانيا الديمقراطية في مؤتمر ضم صفوة الفكر العالمي من رجال الدين المسيحيين ورجال الفكر الاسلامي . خرجوا بعدها بوثيقة موقعة مفادها . [أن الله واحد لا شريك له ، وأن عيسى ومحمد صلوات الله عليهما رسولان من عند الله] .

والمتتبع للمكتبات العالمية ، يرى سيلاً من الكتب المتلاحقة تبكي حضارة أوربة الغارقة في الضياع . وفي الوقت نفسه تتحدث عن الاسلام . فقد ألّف الفيلسوف الألماني الكبير ـ شيلنجر ـ كتاباً باسم « أقوال الغرب » يقول: إنَّ حضارة جديدةً أوشكت على الشروق في أروع صورة ، هي حضارة الاسلام الذي يملك اليوم أقوى روحانية عالمية نقية » .

وها هوذا مايكل هارت الذي يصنف البشرية من تاريخها الى الآن اختار مائة شخصية عالمية . جاعلاً محمداً النبيّ العربيّ الأميّ على رأس هؤلاء جميعاً .

ثم اشهار نبأ إسلام صاحب كتاب دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة الذي يثبت فيه من خلال دراسته القائمة على العلم والمعرفة . أن القرآن كتابُ الله الوحيد الذي لم يطرأ عليه تحريف ولا تبديل . .

أليس ذلك مصداقاً لقوله تعالى ﴿ إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون ﴾ .؟ ومما يَلفت النظرَ إليه أنه لم يكن قد اعتنق الاسلام بعد(١) .

(١) موريس بوكاي .

وقد طالعتنا الصحف في الآونة الأخيرة على اعتناق المفكر الفرنسي الكبير . «روجيه جارودي » الاسلامَ . وذلك بعد دراسةٍ عميقة استمرت أكثر من عشرِ سنوات ، ضمن مسيرةٍ ورحلة شاقة ، بل وتجربةٍ فكريةٍ وروحية متباينةٍ متناقضة .

فمن العمل المسيحي البروتستانتي المتحرر . . . إلى لبراليةٍ يسارية اجتماعية ، إلى التزام ماركسي ، كاملٍ متقيد بالنظرية والحزب . . . ثم تخلٍ كاملٍ عن الماركسية والمادية . . . إلى عودةٍ للدين في جوهره الصافي ـ الى اهتمام متزايد بالاسلام كنظام شامل لكل مناهج الحياة ، هذا الاسلام الذي يكمن في مستقبلنا أكثر مما يكمن في ماضينا ، . . مع رفضِ الصيغة الراهنة للحضارة العالمية المادية . . . إلى اعتناقٍ كاملٍ وعلني للاسلام .

وإنه لمن دواعي الاعتزازِ والفخر ان يكون إشهارُ اسلامه على يد عربيٍ مسلم من أبناء القطر السوري . ولما يحمله جارودي من فكرٍ واعٍ وعميق عن فلسطينَ وقضيةِ الصراع العربي الصهيوني .

ـ هذه النظرة مستوحاة من الاسلام ـ ولما يؤديه من خدمة في الأوساط الدولية والعالمية للقضية العربية والاسلامية على حد سواء ، فهو يرى ان صراعنا مع العدو الصهيوني ليس صراعاً على الحدود بل هو صراعُ وجودٍ أو لا وجود .

قليلون هم من يجرؤون عن التصريح بتحولاتهم والتحدث عنها بصدقٍ وأمانة أمام الأجيال والتاريخ . ولكنْ هذا ما فعله روجيه جارودي حتى وصل الهدفَ المنشود قائلاً : لقد وجدت في الاسلام ضالتي . . . ﴿ لا إكراهَ في الدينِ قد تبيّن الرشدُ مِنَ الغيّ ﴾ .

بل منقلباً معه الأمر ومتوجهاً بفكرة مؤلفاته من خطٍ نحو اليسار أو اليمين إلى خط نحو السمو والاشراق نحو العلو والارتقاء . ومغيراً اسمه أيضاً من روجيه جارودي إلى . . رجا جارودي . . . وأيّاً كان الأمر فقد تطور فكر

جارودي ووصل به الحد إلى إِشهار إِسلامه.فهل يتطور بالمثل الفكر العربي الذي تأثر به أيام ماركسيته ؟.؟

لقد أضاف جارودي إلى الفكر الانساني تجاربَ جديدة خصبة وبناءة في تفكيره الجديد الذي وضع العالم أمام الحوار المفتوح القائم على الحب والاخاء ، والعلم والمعرفة ، داعياً العالم أجمع وعلى الأخص المسلمين في هذا العصر استيحاء روح الاسلام لتطبيقها في المرحلة الجديدة على الشكل المناسب الجديد - تلك هي المهمة التي تنتظرهم - :

﴿ إنَّ هذه أمتكم أمةً واحدةً وأنا ربكم فاعبدون ﴾
سورة الأنبياء آية - ٩٢ -

ومما يسعدنا أن نقدمَ للعالم ترجمة هذا الكتاب خدمةً للثقافة العربية والإِسلامية باضافة باكورةٍ جديدة إِلى المكتبة .

وفي الختام لا يسعنا إلا أن نقول حديث النبي الأعظم الذي جعله دعاءً يردده في أكثر أوقاته « اللهم أرنا الحقَّ حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه » . وآخر دعواهم أنِ الحمد لله رب العالمين . .

الناشر

مقدمة الطبعة الإفرنسية
بقلم الاستاذ علي مراد

عنوان هذا الكتاب « الإسلام دين المستقبل » يدعونا ، وكأنه بُشرى بالتآخي ، الى بذل جهد للفهم تدعمه رغبة في التآلف ، متجاوزين الأحكام والأفكار المسبقة التي طالما شوهت نظرةَ الغرب الى العالم الإسلامي ، ذلك العالم الذي يعده الغربيون من مخلفات الماضي ولا يشيرون إليه غالباً إلا بقوالبَ كلاميةٍ جامدة تحمل في حياتها معاني التقادم والسخرية يهدف (روجيه غارودي) لأن يتطرق له على أنه وجودٌ ووعد أي أنه (يكمن في مستقبلنا اكثر مما يكمن في ماضينا) .

جميلٌ هو هذا العنوان ولكنَّ النص أجمل ، فقد أتى على شكلِ تأملٍ فلسفيٍ وسياسي لرسالة الإسلام وانجازاته التاريخية على يد مجموعة من الشعوب (الأمة) تدفعها روحانيتها ، وبحثها عن المعرفة الفلسفية والعلمية ، وابداعها الأدبي والفني وتطلعها المشترك إلى « بناء عالَمٍ إلهي وبشري بشكل لا يقبل التجزيء يحتوي البعدين الأعظمين السمو والوحدة » .

كتاب جميل يرغب كل امرىء في أن يكون هو كاتبه.ويسر الكثير من المسلمين كما يبدو لنا ، بأن يُوقعوا عليه مؤيدين بكلتا اليدين .

كما وأنه ليس كتاباً مرتبطاً بالظروف هدفه تملق الشعور الإسلامي (في زمنٍ تدفع فيه الإنتهازية السياسية - أو على الأقل التجارية - بعضَ الكُتاب

الميالين الى الكتابة بغزارة في مجال التعصب الضيق أو الإستبداد الأعمى) بل على العكس تماماً. إذ أن روجيه غارودي يتفحص بفكره النقدي الدائم اليقظ ، الحقائق الإسلامية كما هي في واقعها دون رغبةٍ مُسبقة في إسباغ مسحة مثالية عليها . ولكنّ هذا الموقف الرافض لكل مجاملة لا يتضمن البحث بإصرار عن الحجج التي تنسجم مع عرض سلبي ـ وإذا اقتضى الأمر مع غضٍ من قيمة الإسلام الذي لا يُنظر إليه الا عبر مراحلَ انحساره السياسي وركوده الثقافي ـ إن خطوة روجيه غارودي الذي يريد. أن يفهم الإسلام في تدفقه النبوي وفي أعماله التجديدية الأكثر سُمواً والأكثر اغناءً للبشرية تختلف عن ذلك كل الاختلاف . هذه الخطوة تعبِّر عن رغبة شريفة لسماع الطرف الثاني في ذاته وحقيقته ، إنها تسير على هدى الأفكار التي وصفها المؤلف في أعماله الفلسفية والسياسية : فهذا كتاب يُغذيه شغف الحرية ويصبو بشكل دائم الى الدفاع عن الكرامة الإنسانية دونما تمييز في الإنتماء العرقي أو الثقافي أو الديني .

وهكذا تبدو لنا التطلعات الجوهرية لدى روجيه غارودي الفيلسوف والعالم السياسي الملتزم بكل طاقاته في صراع دائم من أجل الإنسانية ليس فقط على مستوى مجتمع أو قارة بل على مستوى العالم أجمع .

ومن نافلة القول أن نُعرف بروجيه غارودي فهو مفكر على المستوى الدولي وكاتب ومحاضر لا يكلُ . ومستمعوه كثيرون في الأوساط الثقافية . فمنذ عدة أعوام أدتْ مساهماته العامة (وخاصة في النقاشات البيئوية) الى انتشار اكبر لأفكاره حول مواضيع راهنة كأزمة الطاقة ومشاكل النمو والعلاقات مع العالم الثالث الخ . . .

لا نبغي هنا ان نُفصِّل سيرة حياة الكاتب بل سنكتفي بتحديد يعطي النقاط الهامة في عمل علمي وأدبي كبير : مساهمات في الدراسات الماركسية (النظرية المادية للمعرفة ١٩٥٣) الإنسانية والماركسية ١٩٥٧ ، كارل ماركس ١٩٦٥ ، الماركسية في القرن العشرين ١٩٦٦ ، ما هي الأخلاقية الماركسية ١٩٦٣ ، لينين ١٩٦٨ ، وكذلك ابحاث عن الإشتراكية (الجذور الفرنسية

للإشتراكية ١٩٦٩) ، وأعمال تفسر مواقفه تجاه الماركسية والعقيدة الرسمية للشيوعية ذات المنحى السوفيتي (واقعية دون حدود ١٩٦٤ ، من اللعنه الى الحوار ١٩٦٥ ، هل يمكن ان يكون المرء شيوعياً في يومنا هذا ١٩٦٨ ، الحقيقة كلها ١٩٧٠ ،. وبدءاً من السبعينات ، انفتح فكر روجيه غارودي على اتجاهات جديدة . إذ تخلص هذا الفكر من المجادلات الحزبية وتحرر من كل عائق ايديولوجي وكل عقيدة رسمية ودأب بشغفٍ على البحث عن كل ما يمكن أن يُغذي ويبرر **مشروع الأمل ١٩٧٩** من أجل المجموعة البشرية . فهذا المشروع يقتضي مصالحة الإنسان مع الانسان والشعوب فيما بينها (ومن هنا نشأ دفاعه **من أجل حوار بين الحضارات ١٩٧٩**) وكذلك مصالحة الإنسان مع الطبيعة فنشأ التزامه بالنضال البيئوي الذي تُمثل ذروته النقاشات التحضيرية لحملة الإنتخابات الرئاسية (ربيع ـ خريف ١٩٨٠) (انظر بهذا الخصوص الموضوعات المطروحة في **نداء الأحياء ١٩٧٩**) . وكان لا بد لهذه المسيرة الفلسفية والسياسية ان تقود روجيه غارودي الى ادارة **المعهد الدولي لإقامة الحوار بين الحضارات** الذي كان قد أسسه من قبل . ضمن هذا الإطار الجديد للأبحاث كان لقاؤه حتمياً مع **الإسلام**، ليس لاعتبارات عاطفية وإنما بسبب مضامين موضوعية .

في الحقيقة كيف يمكن تصور حوار بين الشعوب دون أن يشمل الشعوب الإسلامية التي تمثل قرابة مليار من البشر منتشرين في كافة انحاء **الكرة الأرضية؟ وكيف نحرك حواراً حقيقياً بين الحضارات؟ دون أن نأخذ بعين** الاعتبار الحضارة الاسلامية التي كانت وما تزال إحدى اكثر الحضارات تأثيراً في تاريخ البشرية .

إن منح الواقع الإسلامي والشعوب الاسلامية الاهتمام والمكانة اللذين يستحقانهما يتطابق مع متطلبات البحث العلمي ولكن هذا الأمر يفرض نفسه في وقتنا الحاضر لأنه احقاق للحق وإظهار للعدالة : هكذا يبدو لنا معنى التزام روجيه غارودي الشخصي منذ منشوراته الأولى (مثل المساهمة التاريخية للحضارة العربية ١٩٤٦) ويظهر هذا الالتزام بوضوح اكثر في مؤلفاته الحديثة

والهامة : من أجل حوار بين الحضارات ١٩٧٧ (صفحة ٧٩ : إعصار الاسلام المخصب) ، كيف اصبح الانسان إنسانياً ١٩٧٨ (صفحة ١٨٤ - ٢١٧ ، فصل جميل عن انتشار الاسلام) ، نداء للأحياء ١٩٧٩ (صفحة ١٩٠ الإسلام) .

وفي هذا الكتاب[1] يجمع الكاتب في عرض شامل ومشرق وجهات نظره حول الاسلام كإيمان وثقافة . وحول التطورات التاريخية للحضارة الإسلامية . وينتظم هذا العرض الشامل الذي يضم أهم الحقائق الاسلامية في ثمانية فصول :

- حوار مع الاسلام .
- القلب والروحانية .
- الأمة الاسلامية .
- العلم والايمان .
- من الفلسفة الى التصوف .
- الشعر والتنبئوية .
- من الفن الى الصلاة .
- الإسلام والمستقبل .

هذا الفصل الأخير الذي يقوم مقام الخاتمة يستعرض مختلف وجهات النظر التي يحملها الغرب عن عالم الإسلام منذ فترة الحروب الصليبية وحتى بداية العصر الحديث وما خلا بعض الاستثناءات فإن هذا الإستعراض مخيب للآمال فمعظم المؤلفين المذكورين - مؤرخين ، فلاسفة ، شعراء كُتاب رواية - المتعلقين جداً بالأفكار المسبقة المرتبطة برؤية أوروبية محضة . لم يفهموا (أو لم يريدوا أن يفهموا) شيئاً في الرسالة الاسلامية ولم يكن ذلك بسبب جهلهم بقدر ما هو بسبب نقصٍ في سماحة أنفسهم لأنهم (غالباً ما يعرفون من دون محبة) .

(١) كان قد صدر هذا الكتاب باللغة الافرنسية وذلك قبل اشهار اسلامه ببضعة أشهر وكان مقدمة لإسلامه .

فكتاب روجيه غارودي هذا لا يكتفي بفضح رؤية العالم المحدودة التي طالما سادت في الغرب ، انه في آنٍ واحدٍ احتجاج واقتراح . في هذا المنظور انه يعمل على التذكير بالحقائق التاريخية الضرورية لإعادة النظر في الصورة المشوهة نوعاً ما عن الإسلام التي تسود الضميرَ الغربي . وبفضل الوثائق العديدة والموثوقة التي جمعها الكاتب يستعرض المجالاتِ المختلفة التي يدين فيها العالم الغربي للحضارة المادية والقيمَ الثقافية لدى العالم الإسلامي . وبالاعتماد على البراهين والشواهد الكثيرة تبين الى اي حد كان وجود الإسلام حاسماً في مختلف مجالات البحث العلمي ، وفي المدارس الفلسفية دون أن يهمل الفن والأدب .

إن مثل هذا التذكير التاريخي ربما فاجأ القارىء المعتاد على الأفكار العامة التي تحملها الثقافة الأوروبية المرتبطة الى الأسانيد الأغريقية - اللاتينية واليهودية - المسيحية . ورغم كونها اسنادات مشروعة حتماً ، الا أنها مُبسطة بشكل مخيف لأنها تسعى الى اهمال كل ما عداها . فهذا هو كل ما يلزمنا من الوضوح والدقة العلمية للرد ، كما يفعل هنا روجيه غارودي ، على استبدال الأفكار الجامدة .ولمحاولة إعادة الاعتبار والحقائق الجوهرية ليست لأنها ترتبط حصراً بالميدان الثقافي الإسلامي ولكن لأنها تشكل جزءاً متكاملاً مع التراث العالمي . إن مثل هذا الكلام وهذه الرؤية الشمولية للثقافة هو تأييد لقلب الكثير من الأفكار السائدة . ونعني بذلك كل تلك الشروح التي تَقطن بشكل جماعي والتي يُزعم انها مطلقة لكونها معتمدة على ثقافة مهيمنة تدعمها غالباً سلطة التعليمُ الرسمية لمواد التاريخ والفلسفة والأدب . هذا التعليم الذي يُلغي عملياً المعطيات الخصبة في ثقافات الشرق بدءاً من الثقافة العربية الإسلامية .

أمّا بالنسبة لدارس الاسلام فإنها تشكل هذه المعطيات أسباباً كافية لاعتبار هذا الكتاب حدثاً هاماً . ليس فقط بسبب محتواه ذي الكثافة والغنى النادرين ولكن أيضاً بسبب نوعية اللهجة والتعبير التي تُضفي قوةَ اقناعٍ اكبر على براهين الكاتب الذي يبدي كرم نواياه في كل صفحة . إنّ أمامنا واحداً

من الكتب النادرة التي تقوينا قراءتها بقدر ما تبعث فينا الأمل : العالَم المتصالح أخيراً مع نفسه مع اختلاف شعوبه ومع تعدد تجاربهم التاريخية وقيمهم الثقافية ومغامراتهم في مجال الخيال والفكر . إذ أنَّ مِثلَ هذا التعدد لا يمكن إلا أن يكون مُولِّداً لتنافسٍ خلاّق . فإنه لا يمكن ان يُنظر اليه في الإسلام إلا على أنه هبة من الله وفرصة تُسنح للبشر ، لكي تزداد أنفسهم غنى بفوارقهم المتبادلة .

في هذه الأوقات المُتصفة بالعنف والمجابهة بين الشعوب ـ الشعوب الإسلامية ضمناً ـ في صراعات يقتتل فيها الأخوة باسم العدالة والحرية . يحمل مثل هذا الكتاب رسالةَ خلاصٍ . نتمنى أن تُسْمع أصداؤه بشكل واسع عبر العالم وأن يصل الى المسلمين على مختلف مذاهبهم .

علي مراد
إستاذ في الدراسات الاسلامية

الفصل الأول

نحو لقاء مع الإسلام

﴿ وما أرسلنا مِنْ رسولٍ إلا بلسانِ قومه لِيُبيِّنَ لَهم ﴾

سورة ابراهيم الآية ـ ٤ ـ

إن الأمر يتعلق بمستقبلنا ، مستقبلِ البشرية الذي يتعرض مصيره للخطر . الإسلامُ كقوة حية ، ليس كامناً فقط في ماضيه انما في كل ما يمكن أن يقدمه لصنع المستقبل .

هذا الكتاب ليس كتاب تاريخ بل هو كتاب يعمل على إظهار الاسلام كوجود ومستقبل أي إسلام يكمن في مستقبلنا اكثر مما يكمن في ماضينا . لأن الاسلام لم يكن يكتفي بجمع الثقافات العالمية بل عمل على اخصابها ونشرها من بحر الصين الى الأطلسي ، ومن سمرقند الى تومبكتو ـ أقدم واسمى ثقافات الصين والهند والفرس واليونان والاسكندرية وبيزنطة ، بل قدمَّ لامبراطوريات متفككة ، ولحضارات محتضرة ، روح حياة جماعية جديدة . وردَّ للبشر ولمجتمعاتهم ابعادها البشرية والإلهية المميزة ، وروح الجماعة والتسامي . وبدءاً من هذا الايمان البسيط والقوي كان خميرةً لتجديد العلوم والفنون والحكمة النبوية والشرائع .

إعادة الحوار بين حضارتي الشرق والغرب

في يومنا هذا ـ الصراع المركزي والحيوي في هذا العصر هو المناقشة الاساسية للفكر الانتحاري للتطور والنمو على الطريقة الغربية.وهذه ايديولوجية ترتكز على الفصل بين العلوم والتقنيات (أي تنظيم الوسائل من أجل الحصول على قوة عظمىٰ) والحكمة (أي التفكير بالهدف ومعنى الحياة) ، هذه الايديولوجية المتصفة بتمجيد الفردية تسلب الانسان أبعاده الانسانية الحقيقية : التسامي ؛ أي الامكانية الدائمة لرفض انحرافات الماضي والحاضر ، لايجاد مستقبل جديد والانضمام الى الجماعة . أي بوعي كل واحدٍ انه مسؤول عن مستقبل الجميع وتشغيل كافة الوسائل العلمية والتقنية والاقتصادية والسياسية والثقافية لكي تستطيع كل امرأة وكل رجل وكل طفل أن ينشر كل الغنى البشري والقدرة على الابداع التي يحملها في نفسه . وفضلاً عن المتاهات والضياع الفكري والفراغ الروحي الذي يعانيه الغرب فمهمتنا هي أن نعيد الحوار بين حضارتي الشرق والغرب ، لنضع حداً للنظرة الفردية الانعزالية الانتحارية في الغرب .

منذ عصر النهضة أي منذ ولادة الرأسمالية والاستعمار في آن واحد لا يصنع تاريخ البشرية الا جزءاً من هذه البشرية إذ أن الغرب كان يجهل أو يحتقر أو يهدم القوة المؤثرة الشرقية . في هذا المجال النمو الوحيد الواضح هو نمو بؤسِ العالم ، بؤسٍ مادي في العالم الثالث وبؤسٍ روحي في الغرب . وان وعينا لهذا الانسلاخ وما نحن مدينون به للثقافات والحضارات اللاغربية هو في يومنا هذا السبيلُ الوحيد الذي يبقى مفتوحاً ما عدا طريق الموت المسدود ، أن نعيَ اليومَ ما نحن مدينون به للاسلام ليس من اختصاص رجل التاريخ فقط أو هروبٍ مفكر مترف أو متعة الانسان الحالم ولكن عملُ انسانٍ كادح ، انسان مناضل وصانع للمستقبل .

ما نحن مدينون به للإسلام

لم يعد المسلم ذلك الكافر كما كان في زمن الحروب الصليبية أو

الارهابي في زمن حرب تحرير الجزائر . وليس قطعة في متحف يتفحصها المستشرق بعين باحثٍ عن مخلفات الحضارات منطلقاً من مفهوم الاستثنائية الغربية . وليس ذلك البدوي المتنقل الذي يكثر ذكره في الخيال الرومانسي الشغوف بالانطلاق نحو العوالم الغريبة . وليس ايضاً العالِم الذائع الصيت في العصور الوسطىٰ الذي لم يوجد الا لكي يفتح الطريق أمام علومنا الحديثة بمعنىٰ أن الانفجار العلمي في الاسلام في العصور الوسطىٰ ليس الا عصر ما قبل التاريخ بالنسبة لنا .

أما الاسلام فهو تلك النظرة الى الله والعالم والانسان التي تفرض على العلوم والفنون وعلى كل انسان وكل مجتمع فكرة بناء عالم إلهي وبشري بشكل لا يقبل التجزيء ويتضمن البعدين الأعظمين التسامي والأمة . لقد استطاع الاسلام انقاذ امبراطوريات عظيمة من التفكك في القرن السابع من حقبتنا . هل في امكانه في يومنا هذا أن يقدم إجابة على قلق وتساؤلات حضارة غربية اظهرت في أربعة قرون انها قادرةٌ على حفر قبرٍ على مستوى العالم وأن تهدم ملحمة بشرية بُنيت منذ مليونين من السنين بإبداعات جديدة وتضحيات من البشر؟ هذه هي المشكلة. إن لم يستطع هذا الكتاب حلها فيكفيه أنه قد طرقها .

إنتصار إيمان وأمة

إن الاسلام هو دين وامّة ، ايمان ونظام حياة متكاملين . إن بزوغ فجر الاسلام وانتشاره طرح مشكلة خاصة هي أنه من العبث أن نكتفي بالقول أن الجزيرة العربية ومكة والمدينة كانتا نقطة تلاقي الطرق التجارية الكبرىٰ والقوافل القادمة من الشرق الى الغرب.ومن اوروبا والشرق الأوسط الى الهند والصين.ومن البحر الأبيض المتوسط الى المحيط الهندي ؛ لأن هذا يدفعنا الى الافتراض بأن في هذا الملتقىٰ ، ملتقىٰ الحضارات ، اختلط كثير من الأديان والثقافات.ولم يكن الاسلام الا نتيجة أو ناقلاً لهذا المزيج ـ بل إنّ الأمر على عكس ذلك ، لأنه انبثق عَبْرَ مدينتي مكة والمدينة وعبر الجزيرة

العربية بصحاريها وواحاتها ، ايمانٌ واحد وروح جماعية واحدة. دامت عدة قرون على عبر ثلاث قارات من الهند حتىٰ اسبانيا ، ومن آسيا الوسطىٰ حتىٰ أواسط افريقيا ، من هنا وُلدت ثقافة غنية أخصبت وجددت بقية الثقافات الأخرىٰ .

إن انتشار الاسلام لا يشابهه أي انتشار سبقه أو أتى بعده من غزوات كانت تقام.أو من احتلال عسكري من الغرب ، لا من قديم ولا من جديد كالذي كان يحدث في غزوات كانت تقوم بها بدو آسيا وكذلك.من احتلال قام به الأوربيون لغزو البلاد الضعيفة بالمدفع والبندقية والرشاش .

لم تكن الجزيرة العربية آهلةً بالسكان ولم يمتلك العرب مثل ما كان في بلاد فارس أو بيزنطة من الأسلحة ومن التقنيات العسكرية . فالامبراطورية العربية لم تقم إذاً على مبدأ القوة الذي يمنحها تفوقاً ساحقاً . ولا يمكن فضلاً على ذلك تطبيق أي من النظريات ذات المنحىٰ الماركسي الضيق والموجز والتي تحاول أن تبحث عن سبب التاريخ وثوراته وتحولاته قياساً على التقنيات والعلاقات الاقتصادية وصراع الطبقات التي تنشأ عنها .

إن ظهور النبي وانتصاره في الجزيرة العربية والتقدم اللامع الذي حققه خلفاؤه من بعده والذي سيطر بعد وفاته بأقل من قرن على غالبية العالم المعروف ، ما عدى جزءاً من اوروبا التي كانت في حالة سبات ، وجزءاً آخر من الصين الصاعدة نحو قمتها ، لا يمكن فهمه دون الاعتراف بالمكانة الأولية للرسالة الاسلامية المميزة .

يمكننا أن نستنفد عبثاً كل الشروحات الاقتصادية والجغرافية والسياسية والعسكرية والدبلوماسية أو شروحات أخرىٰ لأن انتصار الاسلام هو انتصار لا يمكن فهمه دون أن نفهم الاسلام كإيمان وكأمة قامت على اساس هذا الإيمان .

فحتىٰ لو لم نكن مسلمين.ولم نعترف بأن القرآن قد أنزله الله على محمد ، فمن المستحيل على المؤرخ أن يرىٰ حقيقة دامغة،وهي حقيقة بزوغ

ينبوع حيٍّ كاد أن يقلب العالم ، وذلك دون الخوض في تبسيطات الفلسفة الوضعية وأحكامها السابقة .

لم يدَّعِ النبي محمدَ انه يُعلم ديناً جديداً..لكنه يجدد الإيمان الجوهري الذي وَجدَ في إيمان ابراهيم التعبير المثالي له .(١) ستكون متابعتنا لانتشار الإسلام ورسالته الجامعة على شكل حلقاتٍ متحدة المركز على غرار المسلمين الذين يتجهون نحو الكعبة في لحظة الصلاة متحلقين حولها في مدارات متتالية .

الصحراء والواحة ، القبيلة والمدينة

إن مسيرة النبي التي تُعدُ استمراراً لمسيرة الرسل الطويلة وبشكل خاص إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ، قد ظهرت إبان أزمة تاريخية . ففي مكة في بداية القرن السابع، تصارع نموذجان من الحياة الاجتماعية بالنسبة لنظرتهما الى العالم .

حياة البادية وحياة الواحة ، القبيلة والمدينة

نشأت القبيلة في عصر ما قبل الاسلام على رابطة الدم ووحدة العائلة وذلك خلافاً لنشأة المجتمعات المدنية التي قامت على أساس ملكية الأرض أو على تكامل الوظائف . إن التضامن الضروري للعيش في الصحراء لم يتولد في الجماعة من غاية موجودة خارج كيان القبيلة وانما هذا الوجود هو غايتها الخاصة فإنه يحقق الهوية الخاصة لكل فرد . وهذا لا يَعني أن القبيلة محكوم عليها بالجمود بل على العكس ان حياة البدو القبلية هي تَمزقٌ دائم . وهذا ما تتغنىٰ به القصيدة الجاهلية،وهي نوع من الشعر القبلي قبل الإسلام : كالوقوف على الأطلال الخالية.والحنين للمحبوب.وملحمة الصحراء وعواصفها الرملية ، أما الموضوع الرئيسي لهذه العقيدة فهو تمجيد القبيلة العشائرية وفضائلها

(١) « عن النبي ﷺ فيما رواه البخاري : أنه قال : أحب الأديان الى الله الحنيفية السمحة ».

كالشرف والكرم والشجاعة والتعاضد . أقيمت في الواحات مدنٌ بجَرفييها وأملاكها الخاصة وطبقاتها الاجتماعية والسياسية . فتقسيم العمل المتزايد قد فرض علاقاتٍ جديدة. وفرض أيضاً منافسات وعدم تكافىءٍ ورغبة في التملك والقوة ، وميلاً للترف والبزخ ونزوعاً للسيطرة . إن هذين الشكلين من التجمع ، تجمع الصحراء ، وتجمع الواحة قد تعايشا معاً . فالبدو الذين كانوا يربون الجمال كانوا بحاجة للمزارعين المستقرين . حقق الراعي المتنقل تفوقاً عسكرياً على كل من الفلاح والحرفي والتاجر المتمركزين في المدينة وذلك بواسطة مطيته السريعة . فقد ضمن هذا الراعي بعض الحماية للقوافل التجارية لقاء أتاوة. وفي حال عدم وجودها كان يحصل على ذلك عن طريق السطو .

وفي جنوب شبه الجزيرة العربية، حيث تقف الجبال في مواجهة الرياح الموسمية القادمة من المحيط الهندي . تهطل أمطار منتظمة تسمح بزراعات غنية كالقمح والفواكه والخضروات والكرمة والأزهار . وقد تطور فن السقي والزراعة وتنظيم المدن والملاحة مما جعل هذا الجزء الجنوبي من الجزيرة العربية منطقة مزدهرة. نمت فيها حضارة مترفة ارتبطت مع الهند وافريقيا. وعن طريق مصر مع البحر المتوسط من اليونان الى سورية . والى أبعدَ من ذلك مع آسيا الوسطى . كانت روابط اليمن السعيد كما قال عنها القدماء مع عرب الصحراء والواحات معقدة : وذلك لأنهم استخدموا البدو طوعياً كمحاربين مرتزقة، من أجل حماية تجارتهم التي تنقلها القوافل ، ولكن عندما ظهر النبي العربي ، أُصبحت هذه الشعوب عربيةً وبسرعة ، وكانت مساهمتهم كبيرة في انتشار الإسلام الواسع في فتح نصف العالم المعروف آنذاك .

أزمة القرن السابع

في هذه الجزيرة العربية التي جاء ذكرها ومنذ بداية القرن السابع كان الاضطراب الروحي كبيراً وكان الجو جَوَّ انتظارٍ وقلقٍ مضطربٍ لتغييرٍ ضروري . إن تعدد المعتقدات الدينية لدى القبائل أدى بالضرورة الى زعزعة الانسجام فيما بينها . كانت هناك مبدئياً هدنات كانت تسمى الأشهر الحرم

تسمح بإقامة الاحتفالات الدينية الدورية لكل من هذه الأديان . لكنَّ حروبَ انتهاكِ الحرمات ـ كما سمَّاها مدونو الأخبارِ العربِ آنذاك ـ كانت تفسدها غالباً .

إن كون الجزيرة العربية ـ وعلى وجه الخصوص مثلث مكة المدينة والطائف في الجنوب ـ مفترق طرق للحركة التجارية بين أوروبا والهند والصين وكذلك بين بلاد الرافدين والحبشة ، ساهم في تزايد وتمازج المعتقدات والثقافات . ومن بين الأديان المحلية ازدادت اشكال مختلفة من الأديان المتعددة الآلهة والمعتقدة بالأرواح او الآلهة الخفية مثل جن الصحراء، والآلهة التي تتخذ شكل حيوانٍ أو انسان ؛ أو اوثانٍ حجرية أو أماكنَ مقدسة تقام فيها طقوس الحج. حيث تجري فيها طقوس دينية سحرية . إن تطلعاً عاماً إلى إله واحدٍ أو على الأقل إلى إله متفوق على غيره من الآلهة كان يهيمن على فكرة الاعتقاد بتعدد الآلهة . ففي الحجاز كانت الآلهة الثلاث الرئيسية بناتاً لإله واحد هو : الله .

الله هو الإله الوحيد

إن أزمة الضمير المتولدة من مجابهات هذه المعتقدات في زمنٍ كان فيه قانون الشرف البدوي يُعدُّ مرجعاً أخلاقياً يفوق عبادات الأصنام المتنافسة قد حثَّ رجالاً على البحث عن الترابط الحيوي السامي من أجل العيش حسب قانون إلـه واحد . وقد سُمي هؤلاء بالحنفاء الذين تخلَّوْا عن عبادة الآلهة المتعددة . أما أصلُ هؤلاء فهو متعدد . فمن بينهم بلا شكٍ مشركونَ قُدامى اكثر تشدداً فيُ ايمانهم وحياتهْم وهم الذين انتقلوا من إله أسمىَ من غيره الى اله واحد هو الله . وهناك آخرون في شمال شرقي شبه الجزيرة العربية تمكنوا من إقامة اتصال مع ديانات إيران ، فهل شعروا بأنهم قد جُنِدوا كأتباع زرادشت[1] في النضال من أجل الخير وكأتباع آهورا ـ مازدا ـ ضد قوى الشر في العالم ؟

(1) زرادشت هو مصلح ديني في إيران القديمة ، ولد في القرن الثامن قبل ميلاد المسيح ، ودرس نظرية قريبة من الثنائية الإيرانية التي أثرت بعمق على دين بلاد فارس الاشمندية .

ومن بين هؤلاء الحنفاء من كان يطمح في العودة إلى إيمان إبراهيم الأول ، أي الاستسلام الكلي لإرادة الله الواحد الذي تفوقُ وصاياه حكمتنا وأخلاقنا الإنسانية .

ومن بين هؤلاء أيضاً ، وليس من اليهود فقط ، رجالٌ ارتقوا إلى المصدر الأساسي متجاوزين الطقوسية والحرفية اليهودية .

ومن بين هؤلاء أيضاً مسيحيون يعيشون وسط نزاعات لاهوتية يتخللها أعمال قمعٍ من جهة السلطات أو تصفية الحسابات بين بعض الطوائف .

الوحدة المسيحية هي وسيلة سياسية بالنسبة لقسطنطين[1]

كان الدافع لاجتماع المجمع الكنسي في « نيقيا » الذي دعا اليه الامبراطور قسطنطين / ٣٢٥ / أسباباً سياسية وليست أسباباً عقائدية : كان هدفه أن يُمتِّنَ امبراطوريته المتهددة برباطِ الوحدة الإيدلوجية .

إن تجربةَ الحب التي مرَّ بها وبرهن عليها يسوع الناصري (أي حب الاله الذي لا يتحدد) كما جاء في العهد القديم ، كانت المسيطرة في التشريع ، بل قدمت على العكس صورةً انسانية للحب المنفتح على الغير وعلى الآخرين من البشر ، لقد ترجمت هذه التجربة في هذا المجمع الديني في لغةِ وثقافةِ الفلسفةِ الاغريقية البعيدة والغريبة كلياً عن الوحي المسيحي الجوهري .

إن طريقة الحياة الجديدة التي أوحى بها يسوع الناصري والتي كانت سهلة المنال بالنسبة للطبقات الشعبية والتي سقط من أجلها العديد من الشهداء الأبطال من جراء الاضطهاد الروماني ، قد اصبحت (هذه الطريقة)

---

(١) امبراطور روماني عاش ما بين (٣٠٦ - ٣٧٣) دعا في عام ٣٢٥ إلى عقد المجمع المسكوني في مدينة نيقيا .

في لغة أرسطو تأملاً مجرداً لا يفهمه الشعب المتفرج في الطوائف اللاهوتية المتذابحة .

إن البشرى الطيبة التي أعلنها انجيل يسوع الناصري عن حياة انسان يعيشها بقدسية في الحب حتى التضحية الكبرى على الصليب ، والتي أبدعت حياةً جديدة ألا وهي حياة الآخرة ، بدأت تغرق في هراء لغةٍ ميتة ، أي لغة لم يعد لأحد حاجة بها ليعبرٌ عن تجربة حياتية في حبه وإيمانه .

ومنذ ذلك الحين بدأ الناس يتباعدون ويتصارعون لقرون طويلة حول صِيغ لم يأت الانجيل على ذكرها مطلقاً . هل الابن مساوٍ للأب في الجوهر ؟ لقد تولد العديد من البدع نتيجة للردود التي أعطيت لهذه المشكلة الفلسفية الاغريقية المصطنعة دون أي رابط يربطها مع الرسالة المسيحية .

تزايد البدع (الهرتقات)

في زمن النبي محمد ﷺ ، كان كل مسيحي ملحداً بالنسبة للآخر ، وعلى الأقل على مستوى زعماءِ طوائفِ كنائسِ الاسكندريةِ والقسطنطنية وانطاكية وروما أو في اماكنُ اخرى . ولم تكن تحسم هذه الخصومات إلا بدافع سياسي من بعض الأباطرة .

كانت الفئات الغالبة في الشرق هي النسطورية[1] التي ادعت تبعيتها لنسطور ، بطريرك القسطنطينية في عام (٤٢٨) وهو بدوره من أتباع (تيودور موبسيوست)[2] . وقد اكد النسطوريون بأن اللّه وحده لا يمكنه ان يكون مخلوقاً مولوداً وأن يسوع الناصري لا يمكن أن نضعه في مرتبة الإلّه الأب وان مريم بالنتيجة لا يمكن ان تُدعىٰ « أم الله » وانما أُم المسيح . ان مبدأ

---

(١) النسطورية : هي نظرية تحمل اسم مؤسسها نسطور بطريرك القسطنطينية ، وهذه النظرية تميز شخصين في شخص المسيح عليه السلام .

(٢) (تيودور سوبسيوست) ولد في القدس وتوفى عام ٦٩٤ وكان قد احتل منصب البابا في عام ٦٤٢ - ٦٤٩)

النسطورية تعود جذوره الى بلاد الفرس وهذا هو الذي عرفه الرسول على وجه الاحتمال عندما قاد قوافل زوجته العتيدة خديجة الى سورية .

وفي اثيوبيا حيث نصح محمدٌ ﷺ بعضاً من أتباعه بالهجرة إليها عندما كانوا في مكة كي لا يتعرضوا للاضطهاد ، كانت الفكرة السائدة هي الطبيعة الواحدة للمسيح حيث عُرفت في المسيح طبيعة واحدة .

اما في اسبانيا فقد انتشرت بدعة حديثة هي (بريسليان)[1] تقر بطبيعة واحدة للمسيح والتي أنشأها أسقف (آفيلا) بريسيليان والذي أعدِمَ في (تريف) في عام ٣٨٥ . اما نظريته فهي متأثرة بمذهب الغنوصية ، التي تقول بأن الإلٰه يمكننا ادراكه بالمعرفة وبالوجود المباشر. فالمسيح ما هو إلا نبيٌّ عظيم .

وأخيراً بقي في مصرَ الأريوسيون[2] أتباع الراهبِ الليبي آريوس الذي درّس في الاسكندرية في الوقت الذي اجتمع فيه مجمّع نيقينا الديني الذي أدانه . وحسب رأي آريوس بما أن الأب هو واحدٌ وهو غير مولود إذاً فإنه الإلٰه الوحيد . أما الابن فما هو إلا واسطةٌ بين الإلٰه والعالَم المخلوق . إن المضمون الديني لدى ظهور النبي كان خليطاً من الطقوس اليهودية الجامدة ، مضافاً اليها تعاليم الطوائف المسيحية التي لا يفهمها عامة الشعب والتي هي بعيدة كل البعد عن حياتهم الداخلية ، وكذلك المعتقدات الوثنية الخالية من أي معنى إنساني .

إن هذه الايديولوجيات المتناثرة والمتضادة والبعيدة عن الحياة قد زادت من خطر التفكك الاجتماعي .

التسامي والأمة

لم يدّعِ النبي محمد انه انشأ ديناً جديداً ، لكنه قاد الناسَ حسب تعاليم

(١) البريسيلانية هي نظرية حلولية تدعو إلى وحدة الوجود .
(٢) الأريوسية : هي نظرية تنكر وحدة الثالوث لدى المسيحية .

اللهِ إلى ان يتذكروا من جديد الايمان الاولي إيمان إبراهيم . لقد شذّب النبي في بادىء الأمر كل الخرافاتِ الدخيلة والطقوس الفارغة من أيّةِ حياة . لا إلٰه إلا الله ، هذا هو الجزء الأول من الشهادة . فلم يكن هذا الإيمان قائماً فقط على نبذ كل أشكال الشرك وعبادةِ الأصنام وإنما على جعل كلّ سلطةٍ وكل ملكيةٍ وكلّ معرفة شيئاً نسبياً لتأكيده على هذا التسامي الكامل .

ان اللهَ هو اكبر من اكبر الملوك.وله وحده يتوجب الاحترام المطلق والإجلال . هنا يتأسس مبدأ الحق الذي يجيز التصرف لكل إنسان في مقاومة كل ظلم ، ومعارضة كل سلطة وهو حق غير مستلب ، بالاضافة الى ذلك انه الاساس الإلهي للتساوي بين جميع الناس بغضّ النظر عن الطبقات الاجتماعية والسلطة والثروة والدم . وعندما توجّه محمد لصحابته للمرة الأخيرة في مكة أثناء حجة الوداع[1] في آذار ٦٣٢ ، أصرّ على المساواة بين جميع الناس أمام اللهِ دون تمييز في العرق والثروة والدم كما جاء في القرآن الكريم : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[2]
سورة الحجرات ـ الآية ـ ١٣ ـ

لقد أعطى التأكيد الجذري والمتصلب للتسامي أساساً جديداً بشكل جذري للأمة . التسامي والأمة، وهما قطبان لا يفترقان في وحي النبي .

إن الجزءَ الأول من الشهادة ـ لا إلٰه إلا الله ـ يحدد الحركة التصاعدية لإدراك أن اللهَ واحدٌ وأنه الحقيقة الوحيدة .

أما الجزء الثاني من الشهادة هو ـ محمد رسول الله ـ يحدد الحركة النازلة لأن محمداً هو المثال الأعلى لكل حقيقة تعتبر وحياً من الله ورمزاً له .

(١) ومن خطبته الخالدة في حجة الوداع « يا أيها الناس إن ربكم واحد وآباكم واحد . . . كلكم لآدم وآدم من تراب إن أكرمكم عند الله أتقاكم . . . ليس لعربي على عجمي فضل ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى . . ألا هل بلغت اللهم فاشهد ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب » .

(٢) الحجرات الآية ١٣

أما القرآن فهو أداة الاتصالِ بين الله والناس ، وهو كلامُ الله المعجز يخاطب به البشرَ من خلال آياته التي أنزلها على قلب نبيه محمدٍ ﷺ ليصبَّها في قلوب الناس .

لا يقتصر الأمر على التأكيد بأنْ لا إِلهَ إِلا الله . بل أنه لا توجد أية حقيقة سـواه ﴿ سنريهم آياتِنا في الآفاقِ ، وَفي أنفسِهِم حتىَّ يَتبيَّنَ لَهم أنَّه الحق ﴾(١) ويؤكد النبي ﷺ على أن كل الخلائق آيات وكل ما فيها تدل على الله وكذلك لفظة (آية) تدل على مقطع من القرآن ، أو تُطلق على الانسان الذي يدل وجودُه على الله وعلى كل مظاهر الحياة . فلا يمكن لأي شيء أن يكون حقيقياً إذا لم يكن متصلاً مع الله .

وكل ما هو غير حقيقي وزائف ، هو الشيء الذي ندركه او نتصوره بعيداً عن صِلته مع الله . إذاً ليس هناك أي انفصالٍ بين ما هو مقدّسٌ وما هو دنيوي ، كل شيء مقدس بحسب قُربه أو بُعده من الله .

إن الكفرَ يقوم على رؤية الأشياءِ على أنها مفصولة عن أصلها وغايتها ومعناها .

إن الدعوة إلى وحدانية الله والتي تضفي على كل الحياة وكل شيء فيها معنىً مستمداً ومرتبطاً بالوجود الكلي (ليس فكرة جامدة مثل الوحدانية المجردة التي تجعل من الله فكرة ، وليست حلولية تستبعد فكرة التسامي . إن التوحيد هنا بالنسبة للمسلم هو عالَم غياب الله أو إيمانٌ بعالِم الغيب .

التوحيد الإلهي

ان التوحيد الإلهي هو إرادة الله باستمرار الخلق على الدوام ، سلوك النبي والتزامه بأوامرِ الوحي. وعلى هذا فالتوحيد لا يقف عند حدوده النظرية وإنما يتخطى ذلك إلى فِعلٍ وممارسة .

(١) سورة فصلت الآية ٥٣ .

والتوحيد الحقيقي هو إدراك كلّ إنسانٍ أنه ما من شيء حقيقي إلا الله . وإن كل مظاهر الوجود مؤتمِر بأمر الله . إنه لا يمكننا فهمُ بزوغ واشعاع الاسلام في العالم دون أن نشير إلى وجهين أساسين ظَهَرَا منذ بعثة النبي ﷺ هما : التوحيد ، والاسلام .

فالتوحيد في جوهره يدحض الجبرية. بل هو الركيزة المتينة للمسؤولية والحرية لدى الانسان . والاسلام هو الاستسلام والخضوع لإرادة الله ، وعلى هذا المفهوم فكل ما في الوجود هو خاضع ومستسلمٌ لله . فالأشجار في نموها والحيوانات في توالدها والأحجار في ركودها مسلمة أي خاضعة لقوانين الله ، لكن بدون إرادة منها .

أما الإنسان فهو الوحيد الذي يملك الاختيار. في أن يختارَ الإسلامَ أو يرفضه ، فهو بذلك يتحمل المسؤولية الكاملة . فإن نسيَ حقيقته الأولى فقد انطبق عليه قول الله تعالى : ﴿ قالَ كذلكَ أتتكَ آياتُنا فنسيتَها وكذلكَ اليومَ تُنسى . . ﴾(١) .

وإنه من الغرابة بمكان أن نعتبرَ هذا الايمانَ قدرياً واتكالياً !! وهو الذي قاد المسلمين في ثلاثة أرباع قرنٍ إلى تجديد أربع حضارات كبيرة وإلى امتداده على نصف العالم .

إن حركية الفكر والعمل هي عكس القدرية : فقد جرَّت ملايينَ الناس إلى الاعتقاد بأنه يمكنهم العيش بشكل مختلف عما كانوا يعيشون .

وريث الإيمان الأولي

تَخص الملاحظة الثانية بالتحديد طريقةَ الحياة الجديدة : إذا كان الاسلام قد تمكن من الانتشار بقوة وبسرعة في كل أنحاء الجزيرة العربية في بادىء الأمر . ثم في المحيط الأطلسي حتى بحر الصين . فلأنه أعطى من جديدٍ معنىً لحياة الشعوب المضللة بسبب تفكك جماعتهم ، وبسبب ثقافتهم

(١) سورة طه الآية ١٢٦

وايمانهم . وفي جوهر كل هذه التجديدات كانت هناك : الرغبة في العودة للإيمان الأولي (إيمان ابراهيم) لقد أُعيدَ التذكير بإيمان ابراهيم الأولي . ذلك الايمان الذي كان يُعبّر بأعمال تجعل طبقاتٍ وثرواتٍ وفلسفاتِ الناس نسبية وتعمل جاهدةً على تحقيق الهدف الأولي ، أُعيد التذكير لهذه المجتمعات اليهودية الغارقة في طقوسية ميتة . وللمسيحيين الذين جعلتهم سفسطات اللاهوتيين المتأثرين بالاغريق ينسون رسالة يسوع الناصري الأساسية . لقد اعترف القرآن بشرعية أنبياء التوراة على أنهم رسلُ من الله نفسه : إن الوحي **بشريعة موسى وإنجيل اليسوع هي كلام الله . وبالنسبة لأهل الكتاب : مسيحيين ويهود . فقد أوصى الله بأن**(١) : **﴿ ولا تُجادلوا أَهْلَ الكتابِ إلاّ بالّتي هِيَ** أحسنُ إلا الذينَ ظلمُوا مِنهم وقولُوا آمنا بالذي أُنزل إلينا وأنزل إليكم وإلٰهنا وإلٰهكم واحدٌ ونحنُ له مسلمون » .

إن كلًّا من هذه الإلهامات ، من هذه الإنزالات النبوية هي حلقة في حقيقة إلهية واحدة ، حتى لو أن الرسالةَ قد شُوهت . فالمسلم (٢) يُكرم إبراهيم وموسى والمسيحَ . كما يوجد في الإسلام أيضاً جوامعُ باسمِ مريمَ وفي ليبيا يُحتفل الآن بعيد الميلاد ، ولادة النبي عيسىٰ وتُكرم فيها مريم : **﴿قولوا**(٣) : آمنا باللهِ وما أُنزلَ إلينا وما أُنزلَ إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحقَ ويعقوبَ والأسباطِ وما أوتيَ موسىٰ وعيسىٰ وما أوتيَ النبيونَ مِنْ رَبهم لا نفرق بينَ أحدٍ منهم ونحنُ له مسلمون » .(٣)

« أركان الاسلام الخمسة »

مهما كان الرأي الذي يحمله شخص غير مسلمٍ عن القرآن ، فإنه لا يمكن أن يكون هناك حِوار حقيقي . إذا لم نعترف أنه إشراقة إلهية وإيمان يربط

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٦

(٢) الاسلام لم يكرم الرسل والأنبياء فحسب بل اشترط لصحة ايمان المسلم الايمان بجميع الرسل والأنبياء .

(٣) البقرة الآية ١٣٦

الإنسان بأصله وبغايته ويعطي معنى لحياته اعتماداً على أركان الاسلام الخمسة .

الشهادة : ذكرت فيما سبق ، هي : لا إلٰه إلاّ الله محمدٌ رسولُ الله .

إن للكون كله معنىً ، والمطلق يبدو في النسبي على شكل آيات ، ورموز الطبيعة والناس كما وُصفتَ تأكيداً لما جاء به القرآن - هما تجلٍ لله وشاهد على إظهار وجوده : ﴿ وإنْ مِنْ شَيءٍ إلاّ يسبحُ بحمدهِ ولكنْ لا تفقهونَ « تسبيحهم(١) إنّـه كـانَ حليماً غفوراً ﴾ .

الصلاة : هي مشاركة الانسان بشكل واعٍ في تسبيحةِ الحمد التي تربط المخلوق بخالقه . إن الصلاة تدمج الإنسان المؤمن بهذه العبادات الشاملة ، فحين يقوم مسلمو العالَم لأداء الصلاة ووجهتهم تتجه نحو مكة وكذلك جميع المساجدِ حيث أن المحراب يدل على اتجاه الكعبة ، فإنهم ينتظمون على شكل دوائرَ متحدةِ المركز في طواف القلوب المنجذبة نحو مركزها . والوضوءُ من الشعائر قبل الصلاة يرمز الى عودة الانسان إلى الطهارة الأولية ، مبعداً عن نفسه كل ما يمكن أن يُبعده عن وجه الله ، حيث يصبح بواسطتها مرآة كاملة .

الصيام : هو انقطاع إرادي في إيقاع الحياة ، يُعتبر تأكيداً على حرية الإنسان تجاه ذاته ورغباته ، فيتذكر في الوقت ذاته ذلك الانسان الجائع(٢) وكأنه كائن في ذاته وأن عليه أن يساعدَه للتخلص من الجوع ومن الموت .

الزكاة : إنها ليست صدقة(٣) ، لكنها نوعٌ من العدالة الداخلية المفروضة بحكم الشرع ، والتي تجعل التضامن بين أهل الإيمان فعاّلاً ، أي هؤلاء الذين يعرفون كيف ينتصرون على الأنانية والبخل في أنفسهم . إن الزكاة تذكير دائم بأن كل ثروة مثل كل شيء ، يعود الى الله ولا يمكن للفرد

(١) سورة الاسراء - آية ٤٤

(٢) ما آمن بي ساعة من نهار من أمسى شبعان وجاره جائع الى جنبه وهو يعلم (حديث نبوي شريف) .

(٣) وفي أموالهم حقٌ معلوم للسائلِ والمحرومِ . « سورة المعارج » .

التصرف بها على هواه. لأن كلّ إنسانٍ هو متضامن مع الآخرين. ﴿وفي أموالهم حقٌ معلومٌ للسائلِ والمحرومِ﴾

الحج الى مكة

إن الحجَ لا يجسد فقط الحقيقةَ العالمية للأمة الاسلامية ككل.. ولكن بالنسبة لكل حاج على حده، فإنه - يُحيي فيه الشوقَ الباطني نحو مركز ذاته. إن فكرة الاسلام المركزية في كل مظاهره هي هذه الحركة المزدوجة، حركة مدٍ يتجه بها الإنسان نحوَ الله، وحركة جذر يَمن اللهُ بها على الانسان، كإنبساط القلب الإنساني وانقباضه: ﴿والذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليهِ راجعون﴾[1].

الأمة المحمدية مبنية على التسامي

بهذه الطريقة للتصور وعيشَ التسامي والايمان، أقيمَ شكلٌ جديد للأمة حيث تظهر سِماتها الجوهرية في جماعة المدينة التي أنشأها النبي في عام ٦٢٢. فعندما أصبح النبي مؤسساً للدولة في عام ٦٢٢، أعطىٰ المثال الأول للأمة من نموذج جديد، لم تكن أمة قبلية قائمة على روابط الدم كما كان الأمر لدى البدو، أو قائمة على ملكية الأرض كما كان الأمر لدى الحضر. ولم تكن كذلك أمة في المعنى الغربي للكلمة، قائمة على وحدة الأرض. أو السوق. أو اللغة. أو التاريخ، أي معطيات مثل العرق أو الجغرافيا أو التاريخ وبالنتيجة، مرتبطة بالماضي، لكنها أمةٌ نبوية قامت على التجربة المشتركة من أجل إعلاءِ كلمةِ الله.

عندما أعلن النبي بأنه لا إلٰه إلاّ الله، فإنه يستبعد كل شيء من أشكال الشرك ويجعل القوة والثروة نِسبيين. إن كلّ سلطة أو ثروةٍ مردها الى الله وحده، وأي شخص يملك جزءاً صغيراً من سلطة أو من ثروة فهو ليس الا وكيلاً مسؤولاً عنها.

(١) البقرة آية ١٥٦

الانصار والمهاجرون

إن التأمل في جماعة المدينة يؤدي الى إبراز القاسم المشترك لكل المجتمعات الاسلامية التي تصبوا لأن تكون مخلصة حقاً لتعاليم النبي ﷺ.

التسامي والأمة

أليست هذه هي المشاركة التي تُمكن الاسلامَ من تقديمها اليوم؟ من أجل قيام مستقبلٍ ذي طابعٍ إنساني. في عالَمٍ جعل فيه الوضع الراهن لا يُطاق، بعد استبعاد التسامي وتقويض الجماعة بسبب الفردية. وجَعلت من غير الممكن قيامَ ثوراتٍ على الطريقة الغربية.

اننا لا نتعمد مطلقاً أن نظهر كل ما حققته المجتمعات الاسلامية في التاريخ على أنه شيء مثالي، بل إننا نفكر أن الطموحَ الى استخلاص تشريع يناسب كافة الأزمنة وكافة الشعوب من نص موحى (مُنزل) ينادي بالايمان في لغةٍ يفهمها شعبٌ ما وفي عصرٍ ما، لهو شيء يستند إلى تمامية ضيقة[1]. ألم يأت في القرآن:

(١) كل شيء في الاسلام ينبثق من عقيدته ويتلون بفكرته العامة، ولكنه لا يجمد ولا يقف؛ بل يمتد ويتطور ويمشي مع الناس ومعَ الحياة في لين ويسر وسماحة، فالإسلام كدين عام للناس كافة. وكعقيدة ارتضاها الله ختاماً لرسالاته. واصطفاها لتصنع على أعين الناس، خير أمة أخرجت للناس. حينما جاءت أنظمته وشرائعه؛ إنما جاءت كليات عامة تصوغ روح الأشياء وتبدع ناموسها، وتترك للناس التطبيق بما يلائم حياتهم ويحقق مصالحهم ويكفل سعادتهم وقوتهم وتنطلق عقولهم لتجول في مرونة وسماحة مجتهدة مبدعة منظمة متطورة.
فالشريعة الاسلامية كائن حي دائم النماء لا يقف ولا يجمد. لأن الوقوف عن الحركة سنة الأموات، والجمود طبيعة العاجزين.
هذه الأحكام يمكن أن تتغير وتتبدل بتغير الزمان والمكان والأشخاص، لذلك فإنه من التعصب أن تبقىٰ هذه الاحكام كما هي. ونقول أنها صالحة لكل زمان ومكان.
وما قامت الشريعة الاسلامية الا لتكون شريعة عالمية وأسسها ترتكز على كتاب الله ومنهج النبي ﷺ فلا ضرر فيها ولا ضرار، فمنطق التشريع فيها هو المرونة والمصالح المرسلة والتطور الحضاري ومراعاة العرف العام والمكان والزمان.

الناشر

﴿ وَلكلِّ أمةٍ رسول ﴾
سورة يونس - ٤٧ -

والأوضح من ذلك قوله تعالى :

﴿ وما أرسلْنا من رسولٍ إلا بلسانِ قومهِ ليُبيِّن لَهم ﴾
سورة ابراهيم - ٤ -

السلطة السياسية :

بواسطة هذين المبدأين الجوهريين المتمثلين بالسلطة التي لا تعود الا الى الله الذي يجعل السيادة الاجتماعية نسبية والاستشارة (الشورى)[1] ، التي تحرم، كل وَساطةٍ بين الله والشعب واستبعدَ في نفس الوقت كل استبداد مطلق واستبعد كل سلطان يضيف القداسة على السلطة ، ويدعي أنه قائد يستمد سلطته على الأرض من الله ، وكذلك اية ديموقراطية على الطريقة الغربية ، وكـل فردية ديكتاتورية تسلب الحرية من الشعب .

الملكية : إذا كانت كل ملكية هي ملكية الله فإن كل انسان ليس له فيها إلا حق الانتفاع بعمله ، فالمفهوم القرآني والنبوي للملكية هو على عكس المفهوم الغربي والبرجوازي . فالملكية: في التشريع الاسلامي ليست من خاصةِ الفرد أو الجماعة : إنها على عكس ذلك ، فعل اجتماعي منظم حسب الأوامر الالهية بولاية الخير .

إن مفهوم العقد الاجتماعي عند روسو[2] يقوم على مفهوم مجرد للفرد

---

(١) علاقة المسلمين وسمتهم التي تتلألأ في تاريخهم أن أمرهم شورى فيما بينهم لا يستأثر به فرد ولا تتفرد به طائفة حتى رسول الله ﷺ وهو القمة الشامخة التي مُنحت العصمة يأمره ربه جل جلاله بأن لا ينفرد بالأمر بل يجب أن يشاور المسلمين في كل أمر من امور الحياة .
ولا جدال في أن الرسول لم يكن يشاور اصحابه في امور الدين والرسالة فتلك امور الكلمة العليا فيها للوحي وأوامر الله سبحانه • وإنما كانت المشورة في امور السياسة وشؤون الحكم والحرب والقتال وما يتعلق بالحياة المتحركة النامية . ولمكانة الشورى في الاسلام سميت سورة كاملة في القرآن بإسمها يقول أبو هريرة لم يكن أحد اكثر مشورة من رسول الله ».
(٢) كاتب فرنسي ولد في مدينة جنيف عام ١٧١٢ توفي ١٧٧٨ اما نظريته فإنها تقول بأن الانسان =

ولا يمكنه في النهاية أن يتصور تكاملاً اجتماعياً الا وفق اسطورة « الادارة العامة » ، حيث أظهرت الدلائلُ التاريخية الملموسة من خلال البرلمانات والأحزاب أظهرت كلّ ما تتضمنه من تفويضٍ واستلابٍ للسلطة ، لإعطائها صورةً مشوهة للديموقراطية . فاشتراك الشعب في السلطة أصبح وهماً وخداعاً .

وهكذا كان بالنسبة للملكية . فتعريفها الفردي والروماني والبرجوازي قد قاد الى الزيف المدعي بالمنفعة العامة.وهي نظرية تقول بأنه إذا جرى كل فرد وراء مصلحته الخاصةِ فإن المصلحةَ العامة ستتحقق .[1]

إن قرنين من الاضطرابات الاجتماعية الناتجة عن هذه الليبرالية الاقتصادية المزيفة والتي ما زالت تحتضرُ قد ساعدا على كشف كذبة المصلحة العامة الاقتصادية كما كشف كذبة الارادة العامة السياسية .

واليوم إذا كان الاسلام لم يتجمد في ماضيه ، ولم يتقوقع المسلمون ، ويعرفوا كيف يحلون مشاكلَ عصرهم مستلهمين ذلك من جماعة المدينة . وذلك حسب تعبير جوريس[2] « إن بقاء المرء مخلصاً يتمثل بنقل الشعلة من موقد الأجداد لا الرماد ، وإن النهر في ذهابه الى البحر يبقى وفياً لمنبعه » .

ويمكن بهذا أن يتضحَ ليس فقط للمسلمين وانما بشكل عام ، رؤية اشتراكية غير عقيمة بسبب العلموية الوصفية[3] والفردية الغربية ، بل تخصبها القيم الأساسية التي أججتها الأمة النبوية في المدينة ، كشعلة من الأمل السامي والأمة .

= طيب بطبيعته لكن المجتمع هو الذي يفسد هذه الطبيعة ولهذا يجب العودة الى الفضيلة البدائية . ولهذا أحب الطبيعة وعاش بين ثناياها وبشكل فردي .
(١) هي نظرية تقول إن على الدولة أن لا تتدخل في العلاقات الاقتصادية القائمة بين الأفراد أو الطبقات . أو الامم .
(٢) رجل سياسي فرنسي وخطيب ماهر ، وهو مؤسس الحزب الاشتراكي في فرنسا وقد اغتيل عام ١٩١٤ .
(٣) الوصفية : هي فلسفة الفيلسوف الفرنسي اوغست كوست، التي تدعي ان الروح الانسانية عليها ان تعرف كينونة الأشياء وتسر من الحقائق المأخوذة من الملاحظة ومن تجربة الظواهر .

إنتشار الاسلام .

إن انتشار الإسلام لا يمكن تفسيره بأسباب خارجية أو حتى بضعف أو تفكك الامبراطوريات المهزومة!! مثل الامبراطورية الرومانية في الشرق ، والامبراطورية الفارسية الساسانية وقبائل القوط الجنوبية في اسبانيا. ولا حتى لأسباب عسكرية فقط !!.

إن الامبراطورية الرومانية في الشرق والامبراطورية الفارسية الساسانية وهما القوتان العظيمتان في ذلك العصر ، قد وهنتا فعلياً بسبب الحروب المستمرة فيما بينها وذلك من أجل السيطرة ، والتحكم بالشرق الأوسط وخاصة من عام ٦٠٤ حتى عام ٦٢٨ . ومن الصحيح أيضاً أن كلتا القوتين المتنافستين قد أدخلتا القبائل العربية في قضاياهم حيث استخدموا فرسان هذه القبائل كمرتزقة للدفاع عن خطوط حدودها الأمامية .

لقد أقام الفرس «الساسانيون» في الحيرة بالقرب من عاصمتهم (المدائن) قبيلة بني لخم التي جعلوا منها سلالة عربية باسم اللخميين الذين كانوا مكلفين بمحاربة البيزنطيين . باستمرار على اعتبارهم من الأجراء . وبالمقابل اختار الأباطرة البيزنطيون قبيلة عربية أخرى هي قبيلة بني غسان. وأطلقوا عليهم في عام ٥٤٩ لقب الأمراء الغسانيين والذين اعتنقوا المسيحية بعد فترة وجيزة، وقد استخدمهم البيزنطيون للدفاع عن امبراطوريتهم ضد اللخميين في الحيرة . فكانت هذه عوامل مساعدة لانتصارات العرب المسلمين في المستقبل .

المساواة مبنية على عزة الله .

لكن الأسباب الجوهرية لهذا التوسع السريع الذي أدى غداة وفاة النبي ﷺ خلال اثني عشر عاماً ، من عام ٦٣٣ حتى عام ٦٤٥ ، الى تثبيت تفوق العرب في فلسطين وفي سوريا وفي ما بين النهرين وفي مصر وهو انتشار لم يستطع إيقافه الا العوائق الطبيعية فقط ـ كسلاسل الجبال في آسيا الوسطى

وفي إيران الشرقية وصحارى سيرتياييك[١] والنوبة ـ كانت داخلية ومرتبطة بجوهر الاسلام نفسه .

إن التأكيد الجذري ، في بادىء الأمر ، لعزة الله الذي جعل كلّ سلطات الطبقات الاجتماعية وكل الثروات وكل الأحوال الاجتماعية أو العرقية نسبية فأقام بذلك تساوياً من حيث المبدأ بين الجميع وجعل منه خميرة للتحرر من كل الاضطهادات السياسية أو الاقتصادية أو الدينية . وأعطت هذه المساواة كياناً لأمل جميع المضطهدين .

وهذا ما يفسر كيف أدى انتصار عسكري واحد على الطغاة الحاكمين ـ مثل هرقل ، امبراطور بيزنطة في عام ٦٣٦ ، ويزدجرد الثالث قائد امبراطورية الساسانيين في بلاد فارس في عام ٧١١ ـ الى تقويض امبراطوريات كالامبراطورية الفارسية وامبراطورية القوط الجنوبيين في اسبانيا او كيف سُلمت للعرب أُغنى مقاطعات الامبراطورية البيزنطية؟: كسوريا ومصر وفيما بعد بقليل كل افريقيا الشمالية .

غزو ام تحرير ؟

في كل حالة وبعد هزيمة الطبقة المسيطرة والمكروهة لدى الشعب ، كانت الشعوب تستقبل العرب المسلمين كمحررين لهم من نير الظلم الاجتماعي أو السياسي أو الاضطهاد الديني .

بالنسبة للمسيحيين الموحدين المضطهدين على أنهم ملحدون من قبل امبراطورية الشرق ، ومثل مسيحيين بلاد فارس النسطوريين ، ومثل القبائل البربرية التي دعمت سابقاً الدوناتيين في الوقت الذي كان يستنجد القديس اوغسطينوس بقوة القمع العسكري والبوليس لدى امبراطور روما ضد الالحاد ، وبالنسبة لليهود او المسيحيين الاريوسيين او البرساليين في اسبانيا المضطهدين من قبل رجال الدين المتعصبين ، ومثل الفلاحين الأقباط في

(١) صحراء تقع في شمال شرقي ليبية وهي غنية بالبترول .

مصر الخاضعين لابتزاز مالكي الأرض الكبار في بيزنطة ، كان انتصار العرب على أسياد هؤلاء ومضطهديهم هو إنقاذ وخلاص لهم . خصوصاً ان هرتقطهم التي تولدت في غالبيتها من تفسيراتها الهلنستية[1] للثالوث ، مما جعلهم يقتنعون بالمفهوم الاسلامي لله، ولتوحيده بسرعة :

﴿ قلْ هوَ اللهُ أحدٌ ، الله الصمد ، لَمْ يلدْ ولمْ يولدْ ، ولم يكنْ لَه كفواً أحد ﴾
سورة الاخلاص

إن كل مسيحي موحداً كان أم نسطورياً أوأريوسياً يمكنه أن يعترف بإيمانه ، بعيداً عن تمحك رجال الدين العقيم ، كما يؤكد ذلك على نحو رائع المجمع الديني في (لاتران)[2] الذي انعقد في عام ١٢١٥م لإدانة مفهوم يواكيم دوفلور[3] للثالوث .

وإذ أُكد من جديد على الوحدة المطلقة للمادة كجوهر أو طبيعة إلهية وذلك بنفس اللغة المأخوذة عن الاغريقيين ، عرَّفها على انها حقيقة مطلقة لا تُدرك ولا توصف . والتي هي وحدها مبدأ كل شيء . . . وهذه الحقيقة لا تلد ولا تولد .

أما الأسقف/ دوشين/[4] استشهد بميخائيل السوري في دراساته حول وضع الكنيسة في سوريا في القرن السابع : إن إله الثأر . . . حين رأى شراسة الرومان الذين يسلبون كنائسنا في كل مكانٍ ويسيطرون على صوامِعنا بقسوة ، ويدينوننا دون رحمة ، قاد اولادَ اسماعيلَ من الجنوب ليطلق سراحنا بواسطتهم . وليس بالمكسب البسيط أن يطلق سراحنا من وحشية الرومان ومن خُبثهم وغضبهم ومن حسدهم القاسي وأن نَجِدَ أنفسنا في سلام .

---

(١) الهلنستية : اليونانية التي تلت فتح الاسكندر للشرق ٣٣١ قبل الميلاد حتى القرن السادس قبل الميلاد .

(٢) لاتران : مقر وكنيسة في مدينة روما بايطاليا .

(٣) متصوف ايطالي دعا في نظريته الى سيطرة الروح على المادة .

(٤) لويس دوشين : اسقف وعلامة فرنسي قام بدراسات حول التاريخ القديم للكنيسة .

الإسلام في اسبانيا

في الطرف الآخر من البحر المتوسط ، في اسبانيا ، عُني الإسلام ايضاً بالحرية الاجتماعية والدينية في آن واحد . لقد بيَّن (ايفناسيو اولاغوي) كم كان من المستبعد أن يحقق سكان الحجازِ فتحَ اسبانيا عسكرياً بغزو مكثف :
« كيف استطاع حفنة من البدو القادمين من الجزيرة العربية أن يفرضوا لغتهم وعقيدةَ الاسلام على خمسة عشر مليوناً من السكان الذين يعيشون على / ٦٠٠ / ألف كيلو متر مربع في شبه الجزيرة الإيبرية ؟ غير أنه من المحتمل أن يكون دور الصراعات الداخلية في اسبانيا له أهمية كبرى ، منها الصراعات الدينية والسياسية . ففي عام ٤٧٦م ، جعل أحد ملوك القوط / أفريلا / من الأريوسية ديناً رسمياً في كل شبه الجزيرة بعد أن قطع علاقاته مع امبراطور بيزنطة رغم أنه حدث في عام ٥٨٩ في المجمع الديني في طليطلة أن قام ملك آخر يدعى / روكاريد / بالارتداد عن الأريوسية ، لكن المشكلة لم تحسم في نفوس الشعب . حتى أنه في اسبانيا تحالف الأريوسيون والبربسياليون والغنوصيون الذين كانوا جميعاً يعتبرون أن المسيح هو نبي عظيم ويرفضون بذلك قرارات المجمع الديني في نيقيا ، بسهولة مع الاسلام لأنهم يشعرون بأنهم قريبون منه ، كما هو الحال في بلاد فارس بالنسبة للنسطوريين .

وهكذا فإن انتصار الاسلام في اسبانيا ظهر كنتيجة لحرب أهلية شهدت انتصار الموحدين على الدين الرسمي في الوقت الذي لعب فيه الاسلام دوراً موحداً بشكل سريع . ان الاسلام الذي جمع بين الطوائف الموحدة (أي الطوائف التي رفضت تعريف الثالوث كما تمت صياغته في نيقيا ، والتي ترى في المسيح نبياً ، وترفض ان تسميَ مريمَ أم الله) . ظهر الاسلام حتى للكنيسة انه ليس ديناً جديداً وانما بدعة مسيحية . هكذا اعتبره ايضاً القديس يوحنا الدمشقي ، ودانتي نفسه لم يضع محمداً بين الوثنين بل وضعه بين أصحاب البدع في الدائرة الثامنة من النار (نشيد ٢٨) ، أي في نفس دائرة البابا نيكولا الثالث ، والبابا بونيفاس الثامن وكليمان الخامس .

هؤلاء الموحدون الذين هم في صراع مع الأرثوذكسبيين ، قد دعمتهم بعض القبائل البربرية في / الريف / في معركة واحدة بين جبل طارق وقادس ، لكن هذا الدعم لم يكن ذا أهمية كبيرة على المستوى الاستراتيجي .

إن انتشار الاسلام لم يتخذ شكلَ الغزو ولا حتى شكل الاستعمار . فتأثير التجار العرب وتأثير فكر الاسلام وارسال بعضِ القادة العرب، واخيراً سياسة الأمير الأموي/ عبدالرحمن الداخل / الذي هرب من بغداد ووصل إلى اسبانيا في عام ٧٥٦م في نشر الاسلام . كل ذلك كان ذا أثر حاسم .

كتب المستشرق / دوزي /(١) في كتابه « تاريخ مسلمي اسبانيا : ان الفتح العربي كان خيراً لاسبانيا ، فقد نتج عن هذا الفتح ثورةٌ اجتماعية هامة ، فأخفت جزءاً كبيراً من الآلام ... كانت تئن تحتها البلاد منذ قرون ...

فقد حكم العرب حسب الطريقة التالية : لقد خفضت الضرائب بالمقارنة مع ضرائب الحكومات السابقة . ونزع العرب من الأغنياء الأرضَ التي كانت مقسمة على شكل اقطاعاتٍ واسعة بين الفرسان ، والتي كان قد قام بزرعها مزارعون أرقاء وعبيد مستاؤ ن ، وقد تم توزيع الأرض بالتساوي على الذين يعملون فيها . أما المالكون الجدد لهذه الأرض فقد اشتغلوا فيها وهم ممتلئون حماساً ، فجنوا منها أفضل المحصولات . أما التجارة فقدتخلصت من التحديد ومن الضرائب الثقيلة التي كانت تسحقها فتطورت بشكل ملحوظ . إن القرآن قد أباح للعبيد فرصة لِعتقِ أنفسهم بدفع تعويض منصف ، وقد وضع هذا طاقات جديدة قيد الاستخدام . إن كل هذه

(١) دوزي ، رينهارت (١٨٢٠ - ١٨٨٣) مستشرق هولندي من أصل فرنسي ، كان استاذاً في جامعة ليدن ، اشتهر بدراساته الأندلسية،وفي مقدمتها هذا الكتاب«تاريخ مسلمي اسبانيا حتى غزو المرابطين للأندلس » ٤ أجزاء .

الاجراءات قد نتج عنها حالة من رغد العيش العام الذي كان سبباً للاستقبال الطيب عند بداية الحكم العربي الاسلامي .

انفتاح وتسامح

إن إحدى سماتِ الإسلام التي تفسر انتشارَه السريع هي انفتاحه وتسامحه . لقد أمر القرآن الكريم باحترام وحماية أهلِ الكتاب ؛ أي يهود ومسيحيين . وأرسى إيمان إبراهيمَ أيضاً الذي كان المرجع المشترك .

هذا التسامح امتد فضلاً عن ذلك الى الزرادشتيين في بلاد فارس. والى الهندوسيين حيث أنه عندما توطدت السيطرة العربية في بلاد فارس. قام عدد قليل من الزرادشيتين بالهجرة إلى الهند. حيث أنشأت سلالتهم الجماعات الفارسية التي ما زالت حتى الآن ، ولم يحارب العربُ بشكل قطعي الا المشركين . إن قبول اليهود والمسيحيين أيضاً الذين رفضوا الدخول بالاسلام ، والثقة التي أوليت لهم قد سمحت لهم بتبوء أكبر وظائف الدولة . فجّد القديس يوحنا الدمشقي ابن سرجون كان الوزير الأول للخليفة الأموي في دمشق ، وقد عهد الخليفة إلى القديس يوحنا الدمشقي نفسِه بالادارة المالية لامبراطورية دمشق . إن الشعور بالانفتاح هذا استمر بعد عام ٧٥٠م في زمن العباسيين في بغداد . فعندما أنشأ الخليفة المأمون في عام ٨٣٢ بيت الحكمة بالإضافة الى جامعته ومرصده ، عُهِدَ بإدارته الى طبيب مسيحي نسطوري هو حنين بن اسحق / . إن هذا الموقف سمح لنا بتجميد الجهاد في معناه وبعده الحقيقي ومن المألوف عند الغربيين أن يفسروا الجهاد بالحرب المقدسة أي أنها حرب ملتزمة لأجل انتشار الاسلام . إن كاتبَ مادة الجهاد في الموسوعة الاسلامية المستشرقُ د. ب. ماكدونالد ، بدأ مقالته بالتأكيد على : « إن انتشار الاسلام بالسلاح هو واجبٌ ديني على كلِّ المسلمين »(١) .

(١) هل خطر بفكر هؤلاء المتعصبة من الحاقدين ان يجمعوا عدد القتلى في حروب النبي ﷺ من بعثته وحتى وفاته خلال ٢٣ سنة ، فإنه لم يجاوز ٤٤٠ رجلاً من العرب مسلمهم ومشركهم فاي دعوة في العالم حققت مثل انتصارات محمد بهذه القلة القليلة من الخسائر البشرية .

وهكذا ان التعبير العربي لا يتكلم عن حرب . فهناك كلمة أخرى هي ، الجهاد ، حيث تَعني هذه الكلمة الجهاد في سبيل الله . فالقرآن يبين هذا بشكل تام: ﴿لا إكراه في الدين﴾ [سورة البقرة ٢٥٦] إن كل النصوص التي استشهد بها بهدف إظهار الإسلام كدين مخيف ، دين السيف ، قد فُصِلَتْ وبترتْ دائماً عن نصوصها الكاملة . ومثالاً على ذلك أطلقوا على الآية الخامسة من السورة التاسعة: بآية السيف ، وقد أُظْهِرَ منها فقط السطرُ التالي : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ . يمكننا ان نميز بسهولة نصوصاً في القرآن من هذا النوع شريطةَ أن نفصلها عن سياق الآية حيث تحدد (كما هي الحالة في الآية السابقة) ما يخص قتال هؤلاء الذين أقاموا عهداً ثم نقضوه أو الذين يهدفون أن يخيفوا المسلمين من المجاهرة بإيمانهم وممارسته .

ما هو الجهاد ؟

بكلمة واحدة ، إذا لم تُستبعد الحرب ، فانها لا تُقبل الا في حال الدفاع عن الإيمان عندما يُهدد ، وليست الحرب من أجل نشر الايمان بالسلاح . فالقرآن لا يبرر الجرب الا عندما نصبح ضحيةَ غزوٍ أو اعتداء . فمن المحرَّم على المسلمين قطعاً أن يكونوا غزاةً أو معتدين .

﴿ وقاتلوا في سبيلِ الله الذينَ يقاتلونكم ولا تَعْتَدوا إن اللهَ لا يحب المعتدين ﴾

سورة البقرة - ١٩٠ -

إن القتال المسلح بالنسبة للذي يقوم بالجهاد ، أي المجاهد، ما هو إلا الوجه الثاني للجهاد، الجهاد في سبيل الله. هناك حديث نبوي مشهور يميز بين الجهاد الأصغر أي الدفاع عن الايمان بالقوة ضد عدو خارجي يهدده ، أو يضطهده ، والجهاد الأكبر الذي هو الصراع الداخلي لمحاربة أنانية الانسان وللسيطرة على رغباته وغرائزه ، لكي يترك المكان كله لإرادة الله . إن الجهاد الأكبر هو صراع ضد الذات ، ضد كل الميول التي تجذب الانسان بعيداً عن مركزه هو كل ما يقوده الى صنع الأصنام وهو مأخوذ برغبات جزئية ،

وبالنتيجة ، تمنعه من الاعتراف بتوحيد الله . إن عبادة الأصنام والأهواء هي أكثر صعوبة أيضاً في محاربتها من المشركين في الخارج .

يوجد هنا درسٌ كبير ، حتى ليومنا هذا ، من أجل كل الثوريين الذين يدَّعون بأنهم غيروا كل شيء ما عدا أنفسهم ، كما حدث في السابق مع كثير من الصليبيين الذين ادعوا انهم فرضوا في القدس أو في اسبانيا أو في أمريكا ضد الهنود ، الدين المسيحي الذي كانوا يسيئون اليه بتصرفاتهم . إن فصل الحياة الخارجية عن الحياة الداخلية ، يعني ان يحكم المرء على نفسه بنشر عبادات وثنية لا تؤدي الا الى المآسي الدموية .

إن أحد الامثلة اللامعة لإنجازات الانسان هو الجهاد المزدوج على غرار الأمير عبد القادر الذي لم يكن فقط زعيماً حربياً ، ينظم المقاومة المسلحة ضد الغازي المجهز بوسائل عسكرية لا تقارن مع وسائله العسكرية ، وذلك من أجل الدفاع عن شعبه وإيمانه ، لكنه كان ايضاً واحداً من كبار المتصوفة في ذلك القرن ، وهو تلميذ ابن عربي الذي كان مرتبطاً معه بعلاقة filiation inintiatique تبنٍ وتعليم . ففي كتابه « كتاب المراحل » يتأمل ملياً في تعاليم المتصوفة المسلمين الأساسية : « إن الحقيقة العميقة للمخلوقات هو الله ، والله ليس فقط هو الوجود لكنه أيضاً كل الاحتمالات غير الظاهرة ».وحين نفته الحكومة الفرنسية الى دمشق عقب المظاهرات ضد الأجانب في عام ١٨٦٠م ، قام بحماية / ١٤٠٠٠ / مسيحي في دمشق وانقذهم من المذبحة ولهذا قام البابا بمنحه وسام بيوس التاسع . هذا الوجه البطولي الكبير قد خَطَّ في كتابه « كتاب المراحل » هذه الأسطر المميزة لانفتاح الإسلام .

إذا خطر على بالك أن الله هو الذي تبشر به مختلف المدارس الاسلامية والمسيحية واليهودية والزرادشتية أو أنه ما يبشر به المؤمنون بالتعدد وكل الآخرين فاعلم بالفعل أنه كذلك ، لكنه في نفس الوقت هو غير ذلك .

الشهيد ، شاهد على الحقيقة والإيمان

إن هذا الإدراك الرفيع المستوى للجهاد في سبيل الله يُفسر بطريقة

أخرى أيضاً ، يُفسر في الدور الذي يلعبه الشهيد في مفهوم المجاهد في الإسلام . لقد كتب رجل الدين المسلم الايراني / مُطهري / الذي حارب ضد الاستبداد ضمن حركة وطنية منذ عام ١٩٦٠ ، كتب في كتابه : الشهيد ، الشاهد ، الشهادة . وقد وصف الشهادة بقوله : إن الشهادة ، الشهيد ، يجابه الموت باسم القضية المقدسة ، ويستشهد بوعي وبمعرفة تامة للمخاطر .

﴿ ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عندَ ربهم يُرزقون﴾ .

سورة آل عمران ١٦٨

إن تضحية الشهادة اما أن تحصل في معركة حيث يؤمل بالنصر ، كما حدث في معركة أُحُدْ التي قادها النبي ﷺ ، ومن أجلها أنُزلت هذه الآية القرآنية السابقة ، واما أن تكون موتاً مقبولاً عمداً مع اليقين بالهزيمة المباشرة .

إن نموذج هذا الشهيد جسده لدى المسلمين استشهاد الحسين حفيد النبي الذي استشهد في معركة كربلاء في عام ٦٨٠ م . إن للشهيد هنا معنى آخر غير الهزيمة أو الموت لأنه شاهد باسم الحق والإيمان ، انه في نفسه مساهمة في نصر هذا الحق وهذا الإيمان .

إن دويّ « الله اكبر » التي حَركت في ايرانَ ملايين الرجال والنساء وايديهم خالية في مواجهة جيشٍ أمريكي التسليحِ والتدريبِ ، وانتصر هؤلاء على هذا الجيش بإستشهاد كثير من رجال الإيمان ، قد شقّتْ طريقها في كل التاريخ الاسلامي .

انها منحت الأمل والشجاعة من أجل مواجهة كلِّ ظلم واضطهاد ، منذ المعارك الأولى للنبي . ثم ثورة المهدي في السودان ضد الرشاشات الانكليزية في نهاية القرن التاسع عشر ، وكذلك بطولة المجاهدين الجزائريين ضد قوىً

عسكريةٍ متفوقة للغاية ، أكدّت انتصار[١] الإيمان على الأسلحة .

إن أحد رجال الدين الإيرانيين / علي شريعتي / أَحدً مفكري المقاومة ضد الظلم في ايران ، قد كتب في عام ١٩٧٢ : أن الشهادة ليست هي بعداً من أبعاد الاسلام . لكن جوهرها يوحد بشكل لا يتجزء بين مقاومة عدو الايمان الخارجي وبين الصراع الداخلي ضد ترددات النفس الحيوانية في ذاتنا ، من أنانية وخوف .

من الخلافة الى الامبراطورية

بمحاولتنا فهم الأسباب الجوهرية للانتشار الاسلامي ، وفي نفس الوقت بفصل مفهوم الجهاد عما حملته القرون ضد هذا المفهوم ، من تعصب ضد الاسلام ، ومن استعمار ، وأفكار مسبقة عرقية ، نحن لا نريد بذلك أن ننسب الكمال للإسلام التاريخي ، لكن بكل بساطة هدفنا هو التذكير بأن مبدأ الإسلام يستبعد الحرب الدينية والتعسف ، كما استبعدتها المسيحية بمبادئها وعلى الرغم من أن الذين اقترفوا هذه المجازر هم مسيحيون وملوكهم مسيحيون أيضاً وأساقفتهم وأحبارهم مثل : سلب القسطنطينية ، أو مذابح القدس ، أو محرقة تركمادا في إسبانيا . أو إبادة هنود أمريكا الجماعية .

ويجدر بنا أن نُذكِّر بأن هذا الانفتاح على عادات ونُظم الآخرين لم يكن دون مخاطرٍ بالنسبة لطهارة الإيمان . فمثلاً عندما تولى بنو أمية في عام ٦٦١ م الخلافة واستقروا في دمشق فإنهم لم يتأثروا بالامبراطورية الرومانية في بيزنطة وتقبلوا بناها وطبقاتها الاجتماعية فحسب ، وإنما حدث انعطاف خطير في تاريخ الإسلام . فبعد الخلفاء الراشدين الأربعة الأوائل الذين كانوا من صحابة النبي السابقين : أبو بكرٍ ، وعمرٍ ، وعثمان ، وعلي ، اهتم الأمويون كثيراً بالسلطة السياسية لذاتها وليس من أجل معناها الديني ، وهذا التفريق هو

---

(١) هذا في الحاضر . وهذا ما عبر عنه أبو بكر في الماضي : . . والله ما انتصرنا على فارس والروم بعدد ولا عدة وإنما بشيء وقر في الصدور من هذا الدين . . .

انفصالٌ عن الشعور الإسلامي العميق . فضلاً عن ذلك ، بعد نقل الخلافة من شمال الجزيرة العربية المتقشفة الى الترف البيزنطي في دمشق ، انتشرت أخلاق وآدابٌ أخرى ، وازداد توزيع الأراضي التي حررها المسلمون على القادة العرب . وقد نشأت إقطاعيات كبيرة لصالح الملاكين العرب الذين يعيشون في المدن من عائدات الأراضي التي يعمل فيها المزارعون الأهليون . وقد ثقلت الضرائب على غير المسلمين . وقد قام الأسياد الجدد بصك النقود الذهبية والفضية على غرار ما كان في عهد الإمبراطوريات الفارسية والبيزنطية السابقة.كما جعلوا الخلافة وراثية رغم تعاليم الإسلام . لقد تحولت الخلافة الاسلامية في ظل الأمويين الى امبراطورية عربية خالصة .

إنتشار الإسلام : الأمويون .

عبْر البلاط المترف في دمشق حيث تصب كل ثرواتِ البلاد المفتتحة من قماش وخمور وعبيد واعمال فنية استمر الإنتشار على ثلاثة محاور رئيسية هي : آسيا الصغرى حيث حُوصرت ثلاث مرات وباءت الحصارات بالفشل ، وآسيا الوسطى حيث فُتحت أفغانستان في عام ٧٠٠ ، وبخارى (٧٠٦ - ٧٠٩) وخوارزم ، وسمرقند (٧١٠ - ٧١٢) ، وفرغانا (٧١٣ - ٧١٤) . أما في الجنوب فقد وصل القادة العرب الى الهندوس في عام ٧١١وأخيراً تحقق التقدم الثالث في شمال أفريقيا وفي اسبانيا . وقد أنشىء معسكر في القيروان في عام ٦٧٠ ، وسقطت قرطاجة في عام ٦٩٨ ، والمغرب في عام ٧٠٨ . وفي أيار عام ٧١١ ، عبَرَ القائد العربي طارق بن زياد الى اسبانيا على رأس فئة من المسيحيين المنشقين ، وفتح قرطبة ثم طليطلة . وفي عام ٧٣٢ ، اشتبكت مفرزة عبد الرحمن الداخل اثناء عودتها من غارة على سان مارتان في مدينة تور في فرنسا بجيش شارل مارتيل في بواتييه ، هذا ما يشير الى الحد الأقصى للتقدم الإسلامي باتجاه شمال بلاد الغال.وعلى الرغم من أن العرب قد وصلوا في السنوات التي تلت الى ناربون والى وادي الرون والى (بروفانس) المتوسطية .

وقد أشار الكاتب الفرنسي (أناتول فرانس) في كتابه / الحياة المُزهرة / بسخرية الى مغزى معركة بواتييه هذه ، الذي اراد التاريخ الغربي أن يجعل منها رمزاً للمواجهة بين الشرق والغرب كما حدث في السابق في مناوشات الماراتون بين الفرس والأغريق : « سأل السيد دوبواه مرة السيدة نوزيير ما هو أسوأ يوم في التاريخ ؟ لم تكن السيدة نوزيير تعرف ذلك . قال لها السيد دوبواه : إنه يوم معركة بواتييه عندما تراجع في عام ٧٣٢ ، العلم والفن والحضارة العربية أمام بربرية الفرنجة » .

إن عبارة (أناتول فرانس)[1] هذه لم تكن خاطئة إلا في تأريخ الأحداث ، لأن تطور الثقافة والحضارة الإسلامية لم تبدأ بشكل حقيقي إلا بعد ثورة العباسيين عام ٧٥٠ إن الأمر يتعلق هنا بثورةٍ وليس فقط بانقلاب أو بتغيير العائلة المالكة . وقبل ازدهار الثقافة الخاصة بالإسلام ، أوْجَدَ الإسلامُ الظروف الضرورية لتجديد شباب العالم . في بادىء الأمر عندما أنشأ ، بفضل اتساع الامبراطورية الوليدة ، مجالاً عالمياً للتبادلات التجارية والثقافية ، حيث بدأت تختلط بثروات وثقافات القارات الثلاث ، قارة أوروبا الهلنستية والرومانية وقارة آسيا القصوى من إيران الى الهند وحتى الصين ، وقارة افريقيا حيث اصبحت الإسكندرية ملتقى كل العلوم وكذلك كل الروحانيات والفلسفات .

وقد قدمَّ العرب لهذه الأمة المنتشرة من حيث الثقافة والتجارة والتي تشكلت خلال فتوحاتهم ، لغةً مشتركة هي العربية القادرة على أن تنقل من المحيط الأطلسي الى المتوسط ، ومن المحيط الهندي الى بحر الصين ، وحتى الصحراء في آسيا الوسطى ، كلَّ قوى الحياة لأغنى وأقدم ثقافات العالم ، وإضافة الى ذلك ، حملت لهم هذه اللغة ، ايماناً مشتركاً حيث جعلت كل فرد منهم لا ينكر حكمة ربه.بل ويجد فيها المنبع.فإن مثل هذا

(١) كاتب فرنسي (١٨٤٤ - ١٩٢٤) ولد في باريس وكان شكوكياً يميل إلى الشك في الامور.نال جائزة نوبل في عام ١٩٢١ .

التبدل يمس كل أوجه الحضارة وينسف البنى القديمة .

إن دعوة الإسلام الشاملة لا يمكن التعبير عنها بالحكم العربي الاموي فقط .

مرحلة جديدة ، العباسيون

منذ عام ٧٥٠ قامت ملامح أمة جديدة ، أمةٍ عربية إسلامية في عهد سلالة العباسيين الجديدة حيث تقلد المسلمون غير العرب أماكنهم في كل مكان . فالأمة الإسلامية وليس فقط العربية ، قد أوجدت ثانية حسب هدف النبي ، بناءَها الديني الذي كان محجوباً في عهد حكم الأمويين العربي المحض . لقد بدلت الخلافة عاصمتها . ففي عام ٧٦٢ تأسست مدينة بغداد كمركز للامبراطورية على نهر دجلة بالقرب من (المدائن) العاصمةِ القديمة لبلاد فارس الساسانية وهنا يكمن اكثر من رمز ، فالبنى السياسية والإدارية والموظفون الذين يقومون بمهام هذه البُنى هم اكثر اقتراباً من الامبراطورية الايرانية القديمة مما هم من النمط الحكومي البيزنطي في عهد الأمويين .

إن هذا التبدل الجوهري قد ظهر عن طريق تبديل السياسة الخارجية والداخلية . ففي الخارج لم يعد هناك توسع كبير بل دفاع عن الحدود فقط . وعلى العكس فإنه في داخل هذا النطاق الجغرافي الواسع ، انطلق توسع تجاري لم يسبق له مثيل . فمن بغداد وصل التجار المسلمون عبر البصرة الى الهند حيث أنشأوا مراكز تجارية وأقاموا اتصالات مع التجار الصينيين . وعبر الطريق البري أنشأوا حركة مرورٍ مكثفة مع سوريا ومصر.وايضاً عبر ايران مع آسيا الوسطى والصين . وأخيراً أصبح المتوسط الذي كانت تصب فيه قوافل الصحارىٰ ، بحيرة اسلامية بعد سقوط جزيرتي صقلية وكريت . إن امتلاك المسلمين للبوصلة والدفة المتحركة قد منحهم تفوقاً بحرياً مطلقاً لعدة قرون .

« خلال هذه الفترة كلها تفوق المسلمون على الجزء الأكبر من حوض المتوسط . فأساطيلهم جالت فيه في كل اتجاه . . . ولم يعد المسيحيون يتمكنوا حتى من تعويم ألواح خشبية » .

ابن خلدون ـ المقدمة .

منذ عام ٧٥٠ حتى منتصف القرن الحادي عشر أي حتى اللحظة التي ازدادت فيها التهديدات على طرفي الامبراطورية : كتهديدات الأتراك في ايران وفي بغداد ، والمسيحيين في فلسطين ، وفي اسبانيا حيث انهارت خلافة قرطبة ، عرفت السيطرة الاسلامية ثلاثة قرون من التألق في كل المجالات الثقافية ، وساهمت مساهمة أساسية في الحضارة العالمية وقبل أن تبلغ العصر الحديث حيث كان الإسلام منبعَ النهضة الغربية ، وقبل أن يحقق نهضته الخاصة به ويفتح اليوم مستقبلاً جديداً ، فإننا سنجري موازنة لازدهاره الأول .

الفصل الثاني

القلب والروح

﴿ ألم ترَ أن اللهَ يسبّح له منْ في السمواتِ والأرض والطير صافات كلٌّ قد عَلِمَ صلاتَه وتسبيحه ﴾

سورة النور - ٤١ -

من المخالف للإسلام وهو دين التوحيد أن نفصل(١) تأملَ العمل الداخلي عن الخارجي. فالصوفية - التي تعتمد على إصلاح البعد الداخلي أي القلب - هي انسجام بشكل جوهري بين الجهاد الأكبر أي الصراع الداخلي ضد كل شهوة جزئية تُبعد الانسانَ عن مركزه ، وبين الجهاد الأصغر أي العمل لتحقيق الأمة الاسلامية في وحدتها وانسجامها ضدّ كلِ اشكال الشرك ،

---

(١) وهذا ما حققه المسلمون أي الصوفيون ، فكان لهم دور هائل في نشر الدعوة الاسلامية في خارج دار الاسلام . وقال ماسنيون (إن الاسلام لم ينتشر في الهند بواسطة الحروب بل انتشر بفضل الطرق الصوفية أولئك الذين يُعطون ولا يطالبون ، ويقرضون ولا يأملون في شيء • وانتشار الاسلام في افريقيا السوداء والسنغال ومالي ونيجيريا وتشاد ، إنما يرجع الشطر الأكبر في الفضل فيه إلى الطرق الصوقية . ويتصل بهذا ايضاً دور الصوفية بالجهاد بالمرابطة في الثغور الاسلامية لحمايتها . ضد المعتدين على حدود الاسلام . فرباط عبادان هذا الثغر الاسلامي رابط فيه عدد كبير من كبار مشايخ الصوفية مثل مقاتل بن سليمان متوفى سنة ١٥٨ هـ وحماد بن سلمة ١٦٧•وبشر الحافي ، ورباط المانشير في تونس ، ورباط الفتح في المغرب ، ومئات غيرها كانت حصوناً حربية ، وخانقانات صوفية في آن واحد معاً وعلى هذا فقد جمعوا البعدين الداخلي والخارجي أي الجهادين الأكبر والأصغر أي جهاد النفس والهوى وجهاد العدو .

والسلطات ، والثروات والمعارف المزيفة والآلهة المزيفين الذين يبعدونه عن كونه مرتكِزاً على القانون الإلهي .

التجربة المُعاشة في التوحيد

إذاً من الخطأ أن نخلط بين الصوفية والتصوف المسيحي أو التأمل الهندوسي . بدون شك نتج عن اتساع الاسلام اتصالات وتبادلات مع الفرس في الصحراء ومع الروحانيات المسيحية ، ومع الغنوصيين في الاسكندرية وكلهم دون شك عرفوا كتابات بلوتين[١] وحكم الهند والتقشف البوذي . هذا الإخصاب المتبادل استطاع ان يُغني رؤ ية كل شخص ، لكن الصوفية هي وجه من وجوه التقوى الإسلامية .

فمنابعها الاساسية هي في القرآن ، وللإشارة الى هذا الجانب بشكل أفضل علينا أن نقول بكل وضوح بأنه حتى مؤلِّف ماسينيون[٢] الرائع حول (آلام الحلاج) لم يفلت من محاولة التنويه على الجوانب التي في مؤلف حسين منصور الحلاج الذي توفي في بغداد عام ٩٢٢ ، جعلته قريباً من الصوفية المسيحية في طهارة حياته وفي استشهاده النهائي وفي آلامه وفي بعده عن العمل السياسي وفي توقه لما هو رباني وفي تمجيده للحب الإلهي .

ولكن بين الصوفية المسيحية والصوفية المسلمة ـ مهما كانت عظمة كل منهما ـ فإن هناك اختلافاً جوهرياً في الهدف والطريقة . فالصوفية المسيحية هي حوار مع شخص المسيح الذي بواسطته سكن الله حياة المسيحي . لكن بالنسبة للمسلم ان المسيحَ ليس هو الله، بل هو نبي عظيم ، لكن الله لا يظهر بذاته بل يُبين كلامه وقانونه .

في نظر المسلم ، ان الاعتقاد بأن كلمة الله قد صارت جسداً أو أن

---

(١) بلوتين : فيلسوف روماني درسَّ في روما فلسفة تعتمد على النظريات القديمة ، كما درسّ المسيحية .

(٢) مستشرق فرنسي وكاتب لدراسات حول الدين الاسلامي والحضارة الاسلامية .

نطلق على الله اسم الأب يعني ذلك أننا نسيء الى تسامي الله .

لا يوجد تشابه بين الخالق والمخلوق، ولهذا وبشكل جازم لا يسعنا أن نتحدث عن « حب الله »[١] . فبعض المسلمين المتعصبين يلومون الصوفيين لأنهم استخدموا هذه اللغة وانساقوا وراء هذه التجربة .

إن حب الله للانسان وحب الانسان لله ليس غريباً على الاسلام ، فيمكننا أن نقرأ في القرآن :

﴿ قلْ إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يُحببكم اللهُ ويغفرْ لكم ذنوبكم ﴾

سورة آل عمران ـ ٣١ ـ

﴿ فسوفَ يأتي الله بقومٍ يحبهم ويحبونه ﴾

سورة المائدة ـ ٥٤ ـ

إذن ليس من الممكن للانسان أن تكون لديه هذه الإلفة مع الله التي تميز اكبر الصوفيين المسيحيين : غير أنه بالنسبة للصوفي ، توجد مرحلة سامية في ترقيه لا يظهر له القانون فيها على أنه أمر خارجي وإنما يصل الى إخماد رغباته الجزئية ، حيث تكون إرادة الله تمتلك فيه كل المكان ، وتصبح مركز ذاته .

إنها أسمى درجات الحرية ، عندما يصل الصوفي إلى مركز ذاته دون أن يشده أي شي إلى الخارج ، فإنه لا يعمل إلا في مجال « المطلق » ، وفي وحدانية « المطلق » .

إن طُرقهم تختلف عن الصوفية المسيحية ، لا يستطيع في الواقع أن يقتصر على تجربة التوحيد هذه بل يقتبس فقط من التجربة التوحيدية السامية المعاشة ، قوة توجيهٍ تحمله نحو الأمر بالمعروف ، نحو تحقيق ترابط الناس

---

(١) بل يجب أن يكون أحب ما في الوجود إلى المؤمن هو الله فالحب هو روح الوجود ، واكسير القلوب وصمام الأمان لبني الانسان وهذا تأييد للحديث النبوي الشريف فقد جعله النبي ﷺ دعاءه فيقول ﴿ اللهم ارزقني حبك وحب من يحبك واجعل حبك أحب إليَّ من الماء البارد » .

والتحكم بالأشياء ، لأن الانسان هو خليفة الله في الأرض قال تعالى (إني جاعل في الأرضِ خليفة) ، وهو المسؤول عن التوازن والانسجام في الطبيعة وبين الناس .

إن لحظة التأمل هي إذاً تلك اللحظة التي تجمع وتركز القوى القادرة على هز العالم .

- الزهد والحب والشعر -

دون أدنى شك ، هناك نقاط التقاء وتجانس بين التصوف المسيحي والصوفية المسلمة . أولاً السعي لدى الطرفين الى الزهد . إنه التعليم الدائم للصوفيين ، ولهذا يُعرِّف ابو الحسن النوري الصوفيين بقوله : إنهم لا يملكون شيئاً ولا يملكهم شيء . وقال / الجنيد / : إن الصوفية هي الله الذي يُميتك في ذاتك ليعيدك الى ذاته . وقال ابو يزبد البسطامي [1] : عندما يزول الأنا ، يصبح الله عندئذٍ مرآة لذاته في نفسي .

وهذا تعليم قرآني مباشر :

(أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلماتِ ليس بخارجٍ منها ؟) .

سورة الأنعام - ١٢٢ -

وعبر هذا الزهد يصبح الحب الحقيقي ممكناً وهو حب غير أناني ، كله

---

(١) طيفور بن شرشوان (٨٧٧) صوفي كان جده مجوسياً ثم اسلم ، وكان ابو يزيد متمسكاً بآداب الشريعة محافظاً عليها عبر عن حبه وشوقه لله بعبارات هي شطحات مسرفة في الرمز والألغاز تبدو في ظاهرها منافية لتعاليم الكتاب والسنة ولكنها في الحقيقة تعبير روحي عن ذوق باطني ووجد قلبي وحب انساني لكل مخلوقات الله تعالى. من اقواله: إلهي إن كان في سابق علمك أن تعذب أحداً بالنار من خلقك فعظم خلقي فيه (أي في النار حتى لا يسع معي غيري) . وهو يدعو الله لجميع الناس. ويلتمس منه ان يبسط رحمته على الخلق كلهم . ويود لو يتشفع للناس كافة لكل الخطاة بأي دين دانوا ويود لو تحمّل عن الخطاة جميعاً فاتسع وجوده ليشمل النار كلها فلا يبقى فيها موضعاً لغيره وذلك رحمة بالناس جميعاً .

عطاء وتسليم . فبواسطة الصوفيين في الاسلام ، نحن بعيدون كل البعد عن المفهوم **الأفلاطوني** للحب كما هو في « فيدر » أو « الوليمة » الذي يشق طريقه عَبْر حب جمال الأجساد الى حب جمال النفوس ، ثم الى الجمال بذاته ، جمال الخير . في بادىء الأمر لم يتمكن الاسلام من التلاؤم مع ازدواجية النفس والجسد هذه . ثم وبخاصة التسامي الاسلامي لا يمكنه أن يتقبل هذه الاستمرارية . كتب روزبيهان الشيرازي (١١٢٨ - ١٢٠٩) في كتابه « ياسمين العشاق »

« منذ قبل وجود العالم ، ومستقبل العالم ، الكائن الالهي هو الحب ذاته ، هو الحبيب والمحبوب ، ليس هناك إلا حب وحيد ، وعلينا أن نتعلم قراءة قواعد الحب الالهي في كتاب الحب البشري » .

وقد فسرَّ « هنري كوربان » الحب على هذا النحو : إن الحب لا ينتقل من مادة الى مادة أخرى ، من مادة انسانية الى مادة إلهية ، انه تحول الذات التي تتحقق . .

وحين يذكر قصيدة ليلىٰ والمجنون للنظامي حيث المجنون الذي يتملكه جنون الحب ، أصبح مرآة لله . يضيف : « **إن الله نفسه هو الذي يُتأمل وجهه الخالد في نظرة الحبيب الى المحبوب** » .

الزهد ثم الحب واخيراً الشعر : إن الشعر هو النقطة الثالثة في لقاء الصوفية مع التصوف المسيحي . لقد أنتجت الصوفية بعضاً من أمهات المؤلفات الشعرية الشاملة ، وسوف أستشهد بواحدة منها فقط ، تمثل القمة في الشعر الصوفي ، أو بالأحرى ذروة الشعر في العالم الا وهي أعمال الرومي (١٢٠٧ - ١٢٧٣) . انه المثنوي لجلال الدين الرومي ، انه تأمل شعري واسع حول القرآن يُعبر في لغة الشعر عما لا يمكن أن نقوله بلغة أخرى ، يعبر عن الاعجاز الذي لا يمكننا أن نُعرفه بالمفاهيم المدركة ولكننا نشير اليه بالرمز .

وهكذا بدأ القديس جان دولا كروا(١) بنقل التجربة التي لا توصف في مؤلفاته « الليلة الظلماء » « الصعود الى الكرمل » أو « الشعلة الملتهبة » ، بقصيدة ، ولم تكن بقية هذه المؤلفات الا تعليقاً عليها .

إن المزية الكبرى التي يتمتع بها الشعر ـ مثله في ذلك كمثل الموسيقى وكمثل الجامع في تماوج قبابه الوضاءة وكمثل ترتيل القرآن وكمثل الكاتدرائية بترانيمها الغريغورية(٢) وزجاج نوافذها الملون ـ هي أنه يُوجِد مشاركة تجربةٍ عميقةٍ واحدة وفي سطوع الحياة بواسطة الفن الذي هو اقصر الطرق بين إنسان وآخر .

ـ تأملٌ وعمل ـ

لكن هذه المقارنات مع التصوف المسيحي لا يجب أن تُخفي الصفة الاسلامية الخاصة للصوفية : انها التعبير عن التقوى الاسلامي عن لحظة التأمل الداخلي ضمن رؤيا شاملة للعمل الذي ينظمه القانون الالهي لخلق الأمة الانسانية .

فمهما كان تصوف الصوفيين المسلمين وأناشيد الرومي أو آلام الحلاج كلها ، فإنه لا يمكننا ان ننسى أن الاسلام لا يمكن رؤيته من خلال الحلاج وانما من خلال القرآن ونبيه ، وان الصوفية ليست الا وجهاً من أوجه الحياة التأملية وانفعالة مناضلة في آن واحد مثلما كانت عند محمد ﷺ وعلي وعند عبد القادر الجيلاني .

ويحدد ابن خلدون في مقدمته من خلال نظرته التاريخية للتصوف مكانة الصوفية في المفهوم الشامل للإسلام : الصوفية « التصوف » هي شكل من اشكال معرفة القانون الديني « الشريعة » التي نشأت في الإسلام . واليكم أصلها : إن الطريق الذي اتبعه صوفيو المستقبل كان يُعتبر دائماً على أنه

(١) قديس وطبيب كنيسة ، أصدر مؤلفات تتحدث عن الصوفية .

(٢) ترانيم كنائسية كانت تستخدم في القرن السابع وقد قام بتدوينها البابا غريغوار وسميت باسمه

طريق للحقيقة والسيرة الحسنة من قبل صحابة النبي وكذلك تلاميذهم وخلفاؤهم . إن الصوفية تقوم على الممارسة الدقيقة للتقوى ، وللإيمان المطلق بالله ، والتخلي عن أباطيل الدنيا والمتع والثروات ، وعن الأمجاد التي يسعى وراءها الناس جميعاً ، وفي لحظات الانزواء (التنسك) بعيداً عن العالم من أجل تكريس النفس للصلاة . كل هذا كان متداولاً بين صحابة النبي والمسلمين الأوائل . وفيما بعد وخلال القرن الحادي عشر ، ازداد الميل الى خيرات هذا العالم ، واهتم الناس اكثر بالمتع الدنيوية . ان ما نسميهم بالصوفيين هم الذين ذهبت طموحاتهم الى أبعد من ذلك ، فالصوفيون يتصفون بالتقشف والزهد والورع . ثم طوروا نوعاً من المعرفة الخاصة : الوجد(١) (الانخطاف الروحي) . فالصوفي المبتدىء يتقدم من مرحلة الى أخرى حتى التجربة النهائية « التوحيد الإلهي » .

ـ الخضوع للإرادة الإلهية ـ

ينتج بوضوح عن التحليل التاريخي لابن خلدون ، أولاً أن الصوفية لا يمكنها أن تكون خاصية تفصل التأمل عن العمل . إن هدفها هو ، على عكس ذلك ، وعي الإنسان الأعمق للتوحيد الإلهي واكثر من ذلك خضوع الإرادة الانسانية للارادة الإلهية محققاً بحياته كلها وحدة ذاته حول ذلك المركز الوحيد .

لقد اهتم سقراط بالانسان فقط ، دون أن تلعب عنده كل من الطبيعة والله دوراً جوهرياً . وهناك آخرون من لوكريس(٢) الى الكاتب المغربي اندريه جيد ، أذابوا الانسان في نسيج الطبيعة او في تيار الرغبات واخيراً هناك آخرون امثال كثير من المتصوفين المسيحيين من آباء الصحراء الى الرهبانيات التأملية

(١) وهم يقتدون بالنبي ﷺ حتى بالمواجيد يقول سهل بن عبدالله (كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فباطل ويقول ابو سليمان الداراني ربما تنكت الحقيقة قلبي اربعين يوماً فلا آذن لها ان تدخل قلبي إلاّ بشاهدين من الكتاب والسنة .

(٢) شاعر لاتيني عاش قبل الميلاد من عام (٩٨ـ ٥٥ قبل الميلاد .

الدينية ، قد وضعوا ثقل حياتهم كلها في المعرفة التوحيدية لله ، دون أن يحاولوا الدخول في بُنى المدنية (العالم الدنيوي) .

في المفهوم القرآني ليس فقط الانسان هو خليفة الله في الأرض ، وهو المسؤول عن الطبيعة وعن انسجامها على مستوى العالم ، لكن ايمانه هو مبدأ عمله ومبدأ قوانين أمته . فلا الإقتصاد ولا السياسة ولا العلم ولا الفنون يمكنها أن تنفصل عن الايمان الذي يخط لهم اهدافهم الالهية والانسانية .

إن الحياة بكل ابعادها تجد في الله وحدتها ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن ﴾
سورة الحديد - آية ٣ -

إن ميزة الصوفية هي / عبرتلك الرؤ يا القرآنية لله / جعلت الانسان كلاً مستوعباً كل ابعاده ، ومعيدة كل شيء الى نفس المركز . فالانسان الذي تجره شهواته والاغراءات الخارجية هو دائماً مهددٌ بالتشتت في المتعدد .

فالصوفية تعكس هذا التيار . إن انتصار التوحيد وانتصار مركز الذات هو الشرط الأساسي للنشاط المكثف والحي في الأمة .

إن الصوفية لا تنادي بالابتعاد عن العالم ، انها تقود الى التجرد الداخلي الذي يسمح لوحده بالعمل الحقيقي . العمل الذي يُنجز لا لغاية انانية خاصة أو لأطماع بل من أجل الكل . فليس هناك تماثل فقط بل ربما تَبنٍ غير مباشر بين الفهم الاسلامي للعمل وفهم سبينوزا :[١] العمل لصالح الكل والمضي من علم الأخلاق الى دراسة علم اللاهوت والسياسة . هذا ما استخلصه سبينوزا من عبر الفيلسوف اليهودي المذهب ، العربي اللغة . موسى الميموني (١١٣٥ - ١٢٠٣) . وربما كان من التراث الاسلامي وبشكل خاص من مدينة الفارابي الفاضلة ٨٧٢ - ٩٥٠

(١) سبينوزا (١٦٣٢ - ١٦٧٧) فيلسوف هولندي ، ولد في امستر دام . ويعتبر من أبرز القائلين بوحدة الوجود ، بين الفلاسفة المحدثين .

استبطان القانون

إن أصل الصوفية هو من القرآن[١] . إن نظرة تأملية عميقة إلى القوانين الاساسية في الإسلام تجعل الإنسان المسلم يتعايش بوعي وواقعية أعمق من خلال هذه النظرة العميقة .

إن الشهادة في جزئها الأول (لا اله الا الله) هي وسيلة لتمييز المظهر الحقيقي من المظهر غير الحقيقي .

وهي في جزئها الثاني (محمد رسول الله) التي تربط كل شيء في الطبيعة وفي التاريخ ، وفي الحياة ، بالله عز وجل ، وهي التي توصل إلى الحقيقة المطلقة وهي الدليل عليه .

إن الصلاة هي الشعور بالعبودية والتبعية لله ، وهي تنفي كل كبرياء ، وخلافاً لكل ما يدعيه الإنسان من معرفة لا ترتبط بالله .

وحينما يؤدي الانسان المسلم الصلاة فإنه لا ينتظر جزاءً عادياً دنيوياً على ما قدم سوى رحمةٍ وفضلٍ من الله .

وما الصلاة إلا لحظات ارتقاء روحي يقف المسلم بين يدي ربه ويثني عليه بما هو أهله . إن الصيام يؤكد قدرة الإنسان على الابتعاد عن تيار الحاجات الحيوانية . أما الزكاة فإنها تحقيق لدمج الحياة الاقتصادية بحياة النفس والروح ، والتضامن الاجتماعي بالإيمان .

أما الحج فإنه يرمز إلى خضوع الصوفي الخضوع الكلي لله عز وجل وهو يتمثل عنده في المعراج (وهو صعود النبي ﷺ في ليلة الاسراء والمعراج) . حيث تكون أبواب السماء مفتوحة والدعاء مستجاب . وفي هذه الليلة تجلى الله لنبيه من خلال خطابه له .

(١) التصوف الاسلامي نشأ من التأمل المتواصل للقرآن والأحاديث النبوية . نشأته إسلامية خالصة ، ومن داخل الاسلام نفسه ، ومع مرور الزمن والإتصال بالأفكار الخارجية دخلت إليه فلسفات اجنبية كانت بمثابة الزخارف لها أما المعاني الرئيسية لصوفية المسلمين فهي من تأمل الآيات القرآنية بعمق .

إن الإيمان الحق ليس أمراً على هامش الوجود ، إنه عقيدة واضحة مقبولة ، فالإيمان يدعو للترابط والوحدة وراء التنوع والكثرة ، والتي لا هدف لها في النهاية إلا تحقيق أمة انسانية عالمية . وقد أكد على ذلك قوله تعالى ﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا . . . ﴾

الإنسان الكامل

في نهاية طريقه يعي الصوفي[١] ويطّلع على ماهية الإنسان ، وماهية العالم وعلى الهوة التي تفصله عن الله . ولفهم الحياة في كليتها عليه أن يدرك اولاً أن العالم لا يتحرك بتأثير القوى اللاواعية والعشوائية وليس تجربة خارجية للأحداث فقط لكنه اكتشاف داخلي للمعنى . كتب المتصوف المصري ذو النون[٢] (٨٦٠) :

آه يا إلهي ، لا انحني أبداً لأصغي إلى صراخ حيوان ؛ ولا إلى حفيف الأوراق في الأشجار ؛ ولا إلى خرير الماء ، ولا إلى نغم الطيور ؛ ولا أرهف سمعي مطلقاً بدعوة الظل المحببة ؛ أو بعصف الرياح ؛ أو بدوي الرعد ؛ إلا وأجد أنها تشهد على وجودك أيها الواحد .

---

(١) الصوفي هو الذي يكون قبل كل شيء عالماً بالشريعة المطهرة كتاباً وسنة وعاملاً بهما على قدر طاقته ، ولا يكون ذلك إلا بعد طهارة القلب وتزكية النفس من هواها ، وذلك بكثرة ذكر الله حتى يصبح محباً وسالكاً وذائقاً وعارفاً وواصلاً . وهذه المعاني يجب ان تكون متحققة لدى كل مسلم .

وعلى هذا فالأفضل للخروج من هذه التسميات الضيقة ولسد الذرائع ، الرجوع إلى تسمية القرآن (هو سماكم المسلمين من قبل) .

(٢) ذو النون المصري واسمه أبو الفيض ثوبان ولد (٧٧١ توفي ٨٥٩) وهو زاهد صوفي من النوبة ، كان عالماً بعلوم الشريعة وبعلوم الحقيقة ، وهي علوم الصوفية ، وكان عالماً بالكيمياء وله مصنفات منها كتاب الركن الأكبر ، وكتاب الثقة في الصنعة ، وكتاب العجائب ، ويعده القفطي من طبقة ابن حيان في انتحال صناعة الكيمياء .

واشتغل باللغة السريانية وترجم عنها . ويعد ذو النون من كبار أئمة الصوفية وإن الكل أخذ عنه وانتسب إليه ، وهو أول من فسر اشارات الصوفية وتكلم بالأحوال . وعنده أن بين الرب والعبد حباً متبادلاً ، من ذاق الحب الآلهي عرف الذات الآلهية وهذا تحقيق لقوله تعالى « يحبهم ويحبونه » توفى رحمه الله بالجيزة ودفن بالقرافة الصغرى .

إن الإنسان في كماله في نهاية طريق التصوف هو الإنسان الكامل أي في بادىء الأمر ، إنه عَالَم صغير : اعلم بأن الانسان الكامل يحتوي في ذاته على توافقات مع كل حقائق الوجود . إننا نكتشف فيه ليس فقط كل مستويات وجود الكون ، لكننا نكتشف الانسانية في مجموع تاريخها وثقافاتها .

إن صفته كإنسان تدل على طبيعته المركبّة (التي تكمن فيها المخلوقات الأخرى) وعلى استعداده لإحتضان كل الحقائق الجوهرية . . . هذا هو الإنسان إله زائل وخالد في الوقت نفسه إنه دائماً مخلوق وخالد . . . فاكتملت الخليقة بوجوده . . .

وهكذا تقع تبعة سلامة العالم على عاتق الانسان .

لقد اختار الصوفي لنفسه أن يجعل من حياته الخاصة مكاناً لظهور ما هو رباني وأن يصبح هذا الكائن البسيط والمستقيم مثل الناي التي يمر فيها وينشد من خلاله ذكر الله .

التعالي والوجود الدائم

أخيراً عندما يتعلق الأمر بالله ، يصف ابن عربي منهجين في كتابه فصوص الحكم في الفصل المخصص لنوح للتكلم عن تنزيه الله دون تشبيه بأي كائن ما ، والمماثلة التي تشير الى الله بواسطة الرموز والصور المأخوذة بالضرورة من عالم الوجود الدائم ، إنه لا يمكننا أن نفصل بين هاتين الحالتين : ويعلل ذلك ابن عربي بقوله (. . . وكذلك من شبهه وما نزّهه فقد قيده وحدده وما عرفه . ومن جمع في معرفته بين التنزيه والتشبيه بالوصفين على الاجمال لأنه يستحيل ذلك على التفصيل لعدم الاحاطة بما في العالم من الصور ، فقد عرفه مجملاً لا على التفصيل كما عرف نفسه مجملاً لا على التفصيل . . . .) .

أهل الكتاب :

رغم هذا الجدل وهذين المنهجين اللذين يتطابقان ويتنافران في

الوقت نفسه يبقى الله في تعاليه .

إن مصيبة تاريخ الأديان المقارن ، انه يحمل في الغرب علامة العصر الذي وُلِدَ فيه . في عصر العقلانية الوصفية الذي يستبعد من حيث المبدأ كل ما يتجاوزه . وفيما يخص الإسلام فإن الغرب اعتمد على وجهة نظر مسيحية متعصبة وطائفية، وترفض الاعتراف بصحة الوحي الاسلامي وذلك اعتماداً على تأكيد صحة وحيها هي .

إن وجهة نظر القرآن وأكبر الفلاسفة المسلمين كانت مختلفة وبشكل خاص فيما يتعلق بأهل الكتاب ، اي سلالة ابراهيم . فالقرآن الكريم كان دائماً يكرر ان الله أرسل لكل شعب انبياؤه :

﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما اتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾

سورة المائدة ـ ٤٨ ـ

وكذلك يحاول ابن عربي في فصوص الحكم أن يحدد مساهمة كل نبي في الوحي من آدم الى ابراهيم ، ومن موسى الى المسيح ومحمد .

وقد كتب الغزالي أيضاً ما يلي : في كتابه « المنقذ من الضلال »

« . . . . أنني رأيت أن أطفال النصارى لا يكون لهم نشوء وارتقاء إلا على التنصر وصبيان اليهود لا يكون لهم إلا على التهود وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الاسلام . وكنت قد سمعت حديثاً للنبي : يقول:« كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهُودانه أو يُنصرانه أو يمجسانه . . .»!

نحن نختار بحرية المنهج الاسلامي ونقف في مواجهة الطرق التي تدعَّي أنها علمية أي تلك التي تتجاهل مسلماتها الخاصة ، وبشكل خاص المسلمة الفلسفية الوضعية القائلة باستبعاد كل امكانية للتسامي بشكل مبدئي، أي كل ظهور جديدٍ بشكل مفاجىء في التاريخوالتي تنزوي في أفكار مسبقة

(١) حديث : « كل مولود يولد . . .» رواه مسلم في صحيحه.

لتزعم أن لا شي ينشأ إلا نتيجة ومحصلة لأحكام سابقة .

اننا ندرس الأديان أولاً عبر تجربة وشهادة الذين يؤمنون بها . من وجهة النظر هذه يمكننا الآن أن نقيس على مستوى الإيمان ما يستطيع أن يقدمه الاسلام لحياتنا في العصر الحديث .

إخفاق الغرب :

إن ما يميز حياتنا في الوقت الحالي في نمط التطور الغربي وفي نموذج الثقافة الذي يدعمه ، انه تفكك الانسان وتصدع المجتمع . لقد فقَدَ الانسان كل علاقة مع الطبيعة والمجتمع والله .

إن الانسان قد انفصل عن الطبيعة التي اعتقد انه سيدها ومالكها : إن الانسان الغربي الذي يعتقد أن الطبيعة تعود إليه يعتبرها كأنها فقط احتياطي للمواد الأولية أو أنها مستودع لفضلاته ، يتلاعب بها بلا رادع وذلك بواسطة تقنيات مَنَحَتْهُ سلطة تدمير الأرض ومن عليها ، فليس للأرض أي معنى بالنسبة إليه . إن المسيحية بتحديها الأولي للطبيعة ، وبانضمامها منذ القرن الرابع الى الثنائية اليونانية وبتنازلاتها المتعاقبة منذ عصر النهضة لمبدأ العلموية الذي يدَّعي أنه يحل كل مشاكل الحياة ، لم تنجح في مساعدة الانسان للمحافظة على هذا البعد الكوني ، وعلى هذا الاتحاد الودي مع كل الكائنات ، فإن القديس فرنسوا[١]. هو بمفرده الذي عرف كيف يحتفظ بتلك العلاقات . أما الاسلام حين لا تفسده الرؤية الغربية المشوهّة التي فرضها الاستعمار ، يمكنه أن يساعدنا في وعي هذه الوحدة التي هي جوهره وإيمانه الاساسي والأولي .

فمنذ عصر النهضة حُكم على الإنسان في مجتمعاتنا الغربية بالعزلة والانفصال عن الآخرين بسبب الفردية التي ما زال احتدامها يزيد منذ عصر الغزوات الاستعمارية وحتى عصر الانحطاط النهائي في حياة المجتمع المنعزل ، وبسبب انتشار المنافسات الوحشية في الاقتصاد التجاري حيث

(١) قديس ومؤسس نظام جماعة الفرنسيسكان .

يقضي أقل الناس ضميراً على أقلهم امكانية للدفاع عن نفسه ، وبسبب تقنيات الطمع التي تشكل الدعاية والتسويق اقصى تعبير عنها ، إذ تفرض احتياجات مصُطنعة كبديل حقيقي لاشباع الرغبة والأنانية .

هذا النظام يُولدُ العنف بشكل محتوم ؛ في مجتمعات حُرِمَ فيها كثير من الشباب أشياء قد اعتادوا ممارستها من طمع. وجرياً وراء شهواتهم المجنونة ، يتزايد عدد الذين يحاولون الاستيلاء بالعنف الصريح على ما يمتلكه غيرهم من المحظوظين ومن ورثة الثروات والمعارف بشكلٍ قانوني أو غير قانوني بالمضاربة والغش . إن اعلان « حقوق الانسان والمواطن » الذي يصرح أن حريتي تتوقف حيث تبدأ حرية الآخرين . فحرية الآخرين إذن تُعتبر حداً وليست شرطاً لحريتي الخاصة . الحرية هكذا هي حالة خاصة من حالات الملكية : تخضع لنظام التسجيل الإسمي مثلها .

إن فردية كهذه تُهيء بالضرورة حرب الجميع ضد الجميع حتى ينتهي الأمر بهم الى أن تتحول بسبب منطقها ذاته الى المعنى المعاكس ، الى الاستبداد : إن الفرد الذي تتمثل به مجموعة منتصرة فيصبح رمزاً يُحوِل الآخرين لخدمة المجموعة الوهمية التي تشكل الدولة أو حزب الأمة أو الطبقة .

ان مجتمعاتنا الأوروبية (ومجتمعات العالم الثالث التي صيغت على شاكلتها أو قِلدَّتها) لم تتوقف عن التأرجح منذ اربعة قرون بين فردية شريعة الغاب وبين استبداد الجماهير العشوائية .

إن المسيحية في هدفها الجوهري والأساسي تحمل الترياق لهذه الفردية وذلك بنظرتها الثالوثية للشخصية الانسانية . هذه النظرة القائلة إن حقيقة الانسان ليست في ذاته بل في الغير وفي المختلف كلياً . لكنه عندما شوهت فلسفة وشذوذ ثنائية الاغريق التي حدت بها الى تفسير تناقض الله مع قيصر بشكل يُعبر عن الاستسلام وفصل بين العقيدة والسياسة (ذلك التناقض الذي كان من حيث المبدأ رفضاً جذرياً لادعاءات قيصر الاستبدادية) وهذه ثنائية فصلت بين

الايمان والسياسة ، فقد تركت لقيصر منذ عهد قسطنطين كامل السلطة على الحياة السياسية والاجتماعية لا بل ساعدته في مهمته لأن السياسة بهذه الثنائية الهشة تجعل من الايمان قضية خاصة ليس لها أي تأثير على تنظيم المدينة . وهكذا أصبحت السياسية مستقلة عن قضايا الانسان والدين سوية ، لها أهدافها الخاصة بها ، وليس لها أي رابط يربطها بالانسان وبالله .

الإسلام حامل الأمل

إن الإسلام برفضه فصل الثنائية المزعومة بين السياسة والإيمان. وبرفضه التفريق أيضاً بين علاقة السياسة بالدين (والتي هي علاقة بين بعدين من أبعاد الإنسان المسلم) . وبين العلاقات بين الكنيسة والدولة (والتي هي علاقة بين مؤسستين تاريخيتين) وبربطه الدائم للتسامي بالأمة ، يمكنه مساعدتنا على إنعاش المسيحية ذاتها وتجاوز أزمة تفكك النسيج الاجتماعي .

وأخيراً يمكن للإسلام وبربطة كل شيء بالله ، أو بنظرته القائمة على ارتباط كل شيء بالله . أي نظرته الى كل ملكية أو سلطة أو معرفة أو محاكمة عقلية ، نظرة نسبية ، انطلاقاً من ربطها بالغائية الكبرى التي تسمو على كل شيء في هذا الوجود .

وعلى هذا يمكن للإسلام أن يكون خميرة تحرر ونضال ضد كل أشكال التسلط والعبودية المفروضة على الإنسان بحجة اطروحات مزيفة تبعده عن أصالته ومركزه .

ولقد استطاع الإسلام في يوم ما من خلال صراعه ضد الاستلاب والغزو الاستعماري أن يلعب دوراً رئيساً في المواجهة والتحرر ، وخير شاهد على ذلك ما فعله مجاهدو الجزائر ، وافغانستان ، أو إيران عند انتفاضتها صارخة الله أكبر ضد الاضطهاد الداخلي وضد النموذج الغربي الذي فرض عليها من قبل .

هذا وإذا لم يسيطر بعض المتعصبين في ايران ـ على مبادرات الشعب

فيطفئوا عندها ضوء الثورة الاسلامية ، مقلدين بذلك دور الكنيسة والحزب ، هذا الدور المعارض لكافة تعاليم الاسلام .

لكن في هذا المجال ، من الأفضل للغربيين بدلاً من وقوفهم موقف المراقب المتسلط على الأنظمة السياسية التي تنتسب للإسلام ، أن يطرحوا على انفسهم سؤالين يقودانهم الى التواضع .

أولاً : ما هو نصيب الغرب المستعمر من المسؤولية في بعض تراجعات الاسلام نحو التعصب ؟

إن دفاع الشعب المسلم عن إسلامه وبشكل باسل وشجاع ، تحت نير الاستعمار كانت الطريقة الوحيدة الممكنة للمحافظة على هويته : فكل ابعاد حياته الأخرى من الاقتصاد حتى السياسة ومن اللغة حتى الثقافة كانت مقولة حسب متطلبات المحتل . وكان الاسلام يمتلك طهارة البعد الواحد للحياة الذي لا يمكن ان يُعاش ، تحت السيطرة الاستعمارية .

ثانياً : المحافظة على أدنى حد من الاستقامة ترتكز على عدم مقارنة النظام الاسلامي كما هو بالمسيحية كما يجب أن تكون ، أو بالاشتراكية كما يجب أن تكون ان من يسألني بسخرية بلهاء : أين هو هذا الاسلام الذي تجعلونه مثالياً على الخريطة ؟ أجيبه دون خوف : تجرأوا وضعوا اصبعكم على خارطة العالم لتبينوا لي أين هو المجتمع المسيحي؟ أو المجتمع الاشتراكي ؟. ليست غايتي الدخول في حرب كلامية للمقارنة بين ما حققه هؤلاء وما حققه الآخرون رغم أنه بحسب ترتيب المسؤوليات والمآسي من الحروب الصليبية حتى الاستعمار ، ومن بعبع الاستغلال الى المبادلات اللامتكافئة المسببة للمجاعات . لا يجوز للحضارة الغربية والمسيحية أن تدَّعي أنها لعبت دور القاضي أو مدرس الأخلاق الحميدة .

إن غايتي غير ذلك : فأمامنا المشاكل التي هي اليوم مشاكلنا وحيث أن الرهان هو بقاؤنا وهو معنى حياتنا ، إن مسيحياتنا واشتراكياتنا مهما كان عجزها التاريخي واخفاقاتها في الماضي ، فإنها تبقى خميرة لاجتماعاتنا

ومشاريعنا . لكنها لم تُجنب الغرب السعي نحو ضَياعه ، وان يجر العالم خلفه نظراً لتفوقه المادي . إن هذا الشكل من النمو وهذا الشكل من الثقافة التي فرضها الغرب بالسلاح والتجارة وبتقسيم العمل وبالمبادلات اللامتكافئة وبالإرساليات والمدارس ، كل هذا أوقف حتى الآن ومَنع أشكالاً اخرى من التطور والإبداع . لقد قادتنا ، وجميع العالم معنا الى حافة الافلاس والفوضى . لقد حان الوقت ـ ربما متأخراً ونكون بذلك قد حكمنا على انفسنا بحياة دون معنى ودون هدف وبالموت ـ لكي نسأل ونبحث عما يوجد لدى العوالم الثلاث من معتقدات ، لنحاول أن ندرك ونعيش اشكالاً أخرى من الوجود . فالإنسان يعيش في عالم لا يستطيع تحويله وحسب وإنما تجاوزه . فعندما لا يشعر مجتمع بالحاجة إلى هذا التجاوز فإنه يتلاشى . ما الذي يستطيع الاسلام أن يقدمه لنا لنتهيأ للقيام بالمسؤوليات التي فرضتها القوة العلمية والتقنية على كل الناس في هذه الأيام ؟ المشكلة عالمية ولا يمكن أن يكون حلها الا على مستوى العالم .

الفصل الثالث

الأمة الإسلامية

﴿لله ما في السموات وما في الأرض﴾ سورة البقرة - ٢٨٤ -

ما هي الانجازات التاريخية والاجتماعية التي حققها الاسلام في مجالات الاقتصاد والقانون والسياسة من خلال المبادىء الاسلامية الجوهرية ؟ الملك لله وحده، وهو وحده الذي يشرّع، وهو وحده الذي يحكم .

الاقتصاد : الملك لله وحده .

ان مفهوم الملكية لدى امة المدينة التي أنشأها النبي هو على نقيض المفهوم الروماني . فالملكية في القانون الروماني هي (حق التمتع كما هي أيضاً حق اساءة الاستخدام) . اذ يتمتع المالك بسلطة على ما يملك لا يحق لأحد التدخل بها.ويشكل هذا المبدأ الرئيسي أساس قوانين نابليون وأساس النظام الاقتصادي الحالي كله . إنه يمنح المالك حقاً الهياً مؤكداً فبامكانه أن يُخرِّبَ ما يملكه دون أن يطاله العقاب حتى ولو أدى بتصرفه هذا الى حرمان المجتمع من الخيرات الضرورية لحياته ؛ ويمكنه أن يكرس الخيرات دون حدود . ففي القانون الفرنسي تعتبر المؤسسة الحرة امتداداً للقانون الوراثي ويمكن لأصحابها أن يوقفوانشاطها أو ينقلوها أو يسرحوا موظفيها ، إن مختلف التشريعات التي دعت الى نزع الملكية من أجل المصلحة العامة وحتى الاجراءات التي اتخذت من جراء ضغط العمال لم تحسن الامتيازات إلا

بشكل طفيف . فأي تحديد لهذا الامتياز يتعلق في كل لحظة بعلاقة القوة بين الذين يستفيدون منها والذين يتحملون نتائجها .

منذ البدء يتعارض المفهوم الاسلامي بصلابة مع هذا النظام . إن الملكية المتعلقة بالمرجع المتسامي ، بالمرجع الالهي ، حسب المفهوم الاسلامي ليست حقاً لفرد أو مجموعة أو لدولة ، إنها وظيفة اجتماعية . أياً كان المالك ، فرداً أم جماعة أو حتى الدولة ، فيجب أن يقدم حساباً عن ملكيته للأمة . إنه ليس إلا وكيلاً مسؤولاً عنها ، ونجد هنا مبدأً كان آباء الكنيسة المسيحية قد دافعوا عنه سابقاً ، لكن الغرب نسيه منذ زمن طويل . ليست السرقة أن نستولي على ما نحن بحاجة إليه ، بل أن نكدس لدينا ما لسنا بحاجة اليه . هذه هي متطلبات مفهوم الإيمان من خلال نظرة جماعية .

وخير دليل على هذا هي تعاليم القرآن التي ما انفكت تؤكد :

﴿ الذي جمع ماله وعدده ﴾ سورة الهمزة

﴿ وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى . ﴾ سورة الليل

﴿ .. وجمع فأوعى .. ﴾ سورة المعارج

﴿ .. وتحبون المال حباً جماً ... ﴾ سورة الفجر .

في الحقيقة ، اذا كان الاسلام يسعى الى توزيع أفضل للثروات ، فانه يعترف بحق الملكية الفردية المكتسبة بالعمل ، أو بالوراثة ، أو بالهبة ، لكن العمل يلعب دوراً أساسياً . ففي أحد أحاديث النبي قيل : « من أحيا أرضاً ميتة فهي له » .

وقد أشار (شارل جيد)[1] في دراسة [الاقتصاد السياسي] إلى أن : « التشريع الاسلامي لا يقبل الملكية الفردية للأرض إلا على أراضٍ خاضعة لعمل فعال » . ولم يكتف القرآن بادانة الربا ففي الأزمنة الأولى لانتشار الاسلام لم يكن الاقتصاد العسكري يمنح حق الاستيلاء على الأراضي وإنما

(١) شارل جيد : اقتصادي فرنسي (١٨٤٧ - ١٩٣٢) ، لقد قام بنشر مؤلفات حول الاقتصاد السياسي وأيد مبدأ التعاونية (نظام اقتصادي يمنح التعاونيات دوراً هاماً) .

فقط فرض عليها ضريبة (الخراج) . وإثر تدهور الهدف المبدئي ، نشأ نظام المالكين غير القاطنين والمستغلين لأعمال المزارعين .

وليس المبدأ الذي أعلنه أبو الحسن النوري للمتصوفة بقوله : « إنهم لا يملكون شيئاً ولا شيء يملكهم » إلا موقفاً متطرفاً كالرهبانية في المسيحية .

ان المفهوم الاسلامي عن التجارة هو الأولى ان نأخذ به كتشريع اساسي للمجتمع :

ففي الغرب تكون التجارة (كما كانت متصورة في عصر الليبرالية بشكل أمثل) عملية سبر عامة يعبّر المجتمع من خلالها عن حاجاته . بينما في عصر انحطاط النظام الرأسمالي ، وعصر الامتيازات التجارية انقلبت السلسلة ، حيث قام المنتخبون الأقوياء يبحثون عن أسواق لتصريف بضائعهم . إن الاقتصاد الاسلامي ، من حيث المبدأ على الأقل ، ليس منسجماً مع ذلك المفهوم الرأسمالي للسوق ، ولا مع شكله الليبرالي . ولا مع شكله الإحتكاري . وإذا كان وجود السوق مقبولاً فليس هو غاية بحد ذاته ، إن عليه أن يلبي الحاجات الحقيقية ، وعليه أن يكون تابعاً في غاياته ووسائله الى حكم موجه نحو هدف يتجاوز السوق والمجتمع الذي يعمل فيه . وعليه أن يحترم معايير الإسلام التي تنطوي على توزيع عادل للعائدات ، وترفض الاحتكارات التي تحول دون اظهار السعر الحقيقي للتكاليف .

ليس الاقتصاد الاسلامي محايداً اذن تجاه القوى المتنافسة فالأمر لا يتعلق فقط بمراقبة انتظام الصفقات ، وهذا من صلاحية المحتسب كما قال ابن خلدون . وقد أحدث الأوروبيون هذه الوظيفة بعد الحملات الصليبية تحت اسم « مراقب البيع » . في المجتمع الاسلامي الأهداف هي الهامة ، وما السوق الا وسيلة لبلوغ الغايات . وقد ذكر القرآن اولئك الذين : ﴿ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وايتاء الزكاة ﴾ سورة النور -٣٧- .

ان الزكاة ، هذا القسم المقتطع من المال حسب ما يأمر به الدين ، ليست فقط على العائدات.وإنما على رأس المال أيضاً وتشكل أحد أهم أركان

الاسلام الخمسة . إنها وسيلة دائمة لإعادة توزيع الثروات على المجتمع ولفسح المجال لحركية اجتماعية . إن هذا الشكل الأولي للضمان الاجتماعي الذي لم تأخذ به بعض الدول الأوروبية كفرنسا إلا في منتصف القرن العشرين ، بعد صراع طبقي قديم وبعد عدة قرون قد أخذ به الاسلام على أنه احدى ضرورات الإعالة منذ ثلاثة عشرة قرناً .

وهناك ابداع اسلامي آخر : إنشاء نظام الضرائب غير المباشرة التي تُفرض على انتاج الكماليات ، وهكذا نشأت امتيازات للدولة ونظام تفاضلي للجمارك ، تتناول كل المنتوجات التي يتعلق بها أمن ورفاهية الأمة . ان مبدأ هذا النظام هو القانون الاسلامي العام ، منذ القرن العاشر . ولهذا فان [فريديريك الثاني) (دي هوهنشتاوفن)] (الذي كان من كبار المعجبين بالثقافة العربية ويتكلم هذه اللغة بشكل ممتاز) ، امبراطور المملكة الرومانية المقدسة وملك صقلية اعتبر من أوائل رجال الدولة الحديثة . لأنه نقل هذه المبادىء الى أوربا والمانيا . وبشكل مختصر نقول إن الاقتصاد الناجم عن انمبادىء الاسلامية هو نقيض النظام الغربي الهادف للنمو ، والذي يُعتبر فيه الانتاج والاستهلاك غايتين بحد ذاتهما . تزايد وتسارع في الانتاج ، والاستهلاك .بغض النظر عن كونه مفيداً أو ضاراً ، مفسداً أو قاتلاً ، ودون الأخذ بعين الاعتبار للاهداف الانسانية . فالاقتصاد الاسلامي لا يهدف في مبدئه القرآني الى النمو بل يهدف الى التوازن. لذا لا يمكن مقارنة الاقتصاد الاسلامي بالنظام الرأسمالي (على الطريقة الاميركية مثلاً) ولا بالنظام الجماعي (على الطريقة السوفييتية مثلاً) ان من ميزاته الاساسية عدم الخضوع الى حركيةٍ عمياء تجعل الاقتصاد هو غاية في ذاته. بل هو يتعلق باهداف سامية انسانية وإلّهية تتجاوزه ، لأن الانسان لا يكون إنسانياً بشكل حقيقي إلا بارتباطه مع الله .

القانون : الله وحده هو المشرِّع

بما أن الله هو المالك الوحيد ، فانه هو المشرع الوحيد . هذا هو مبدأ الاسلام في رؤيته للتوحيد. إذن لا تقوم الأمة على مبدأ (اعلان حقوق

الانسان) ، ولكن على وحيٍ سماوي يحدد وظائف ، وواجبات الانسان . لن نطيل الحديث عن كثرة المذاهب المختلفة من حنفية ومالكية وشافعية وحنبلية وتشعباتها في هذه البقعة أو تلك من بقاع الاسلام . فهذه المذاهب تختلف من حيث درجة تمسكها وتشددها . فالبعض منها يدعي أنه يأخذ بحرفية القرآن بالضبط وكأنهم يستطيعون أن يأخذوا منه قانوناً مفصلاً قابلاً للتطبيق في كل زمان ومكان ، وآخرون استندوا بشكل كبير على المنبع الثاني : الأحاديث ، أي أقوال النبي وصحابته المقربين المستوحاة من روح القرآن وذلك لحل المشاكل الملموسة بطريقة جديدة . وهناك أيضاً من أكدوا على أهمية الشورى ، أي استشارة فقهاء التشريع ، وآخرون اقترحوا مبدأ القياس وليس فقط بالاستنتاج من أجل حل للأوضاع المستجدة . كما خضع آخرون ، بوعي أو دون وعي ، لتأثير القانون الروماني ، البيزنطي ، أو القانون الساساني القديم . بينما كانوا في الصدر الأول للاسلام لا يأتمرون الا بأوامر الله ، ولا يقيمون وزناً الا لرأي الجماعة ، (وهو ما يصطلح عليه بالإجماع) .

وعلينا أن نوضح هنا أن هذه النزاعات هي من مخلفات الماضي ، وعندما يغلق باب الاجتهاد ، كانت كل محاولة لفتحه تعتبر خروجاً عن الدين .

وقد نتج عن ذلك جمود ، لا بل تراجع في الثقافة والسياسة الاسلامية . وليست هذه الظاهرة حصراً بالمسلمين وحدهم .

ففي المسيحية صار الفكر والعمل المسيحيين عقيمين بسبب البدع ، أمثال لائحة الأضاليل في سنة ١٨٧٠ التي أدانت كل ما يبدو جديداً في العالم باسم النظرية الثابتة ، والتي حاولت تجميد الفكر ضمن فلسفة واحدة هي التومانية (فلسفة توما الاكويني) وضمن طريقة عمل واحدة تمثلها نظرية الكنيسة الاجتماعية ، قد تساعدنا على أن نفهم بالمقارنة مساوىء التعصب في كل الحضارات . يقوم التعصب على عدم التمييز بين ثقافة وايمان معينين وبين الشكل الذي اتخذه في فترة من التاريخ فيمنعهما من البقاء على قيد الحياة وبالتالي من الابداع .

إن التعليم القرآني المغاير لنظرتنا الفردية لا يعتبر الانسان على أنه حقيقة منعزلة.وإنما يشكل جزءاً من كل هو الامة ، وهذه الأمة موجهة هي ايضاً نحو غايات أسمى . فقولنا أن الإنسان يشكل جزءاً من كل ليس له في المنظور الاسلامي المعنى ذاته كما في الغرب الذي لا يتصور أي بديل عن الفردية إلا سيطرة الدولة التامة .

إن الكل الذي يشمل المسلم جزءاً منه ليس هو الشمولية العضوية كما عرفها هيغل ولا كما عرفها المفهوم الفاشي الذي جاء فيه إن الانسان كفرد ليس له معنى ولا قيمة ولا حقيقة إلا بولائه للدولة . وليس الرابط بين الانسان وهذا الكل الكبير المتمثل بالأمة رابطاً بيولوجياً بدائياً كالذي بين الخلية والعضو الذي تنتمي إليه .

إنه ليس رباطاً وظيفياً أو اجتماعياً أو سياسياً يفرضه على كل فرد تقسيم العمل الذي يجعل منه كائناً مجزءاً مخنوقاً في دور تقني أو اقتصادي أو سياسي يستلبه ويفتته .

ان هذا النوع من العلاقات لا يمكن أن يوجد إلا ضمن مجتمع لا غاية له إلا في ذاته ، أي أنه ليس حاملاً لأي مشروع آخر غير نموه وقوته .

وهكذا فان الأمة الاسلامية تتجاوز الأهداف الخاصة بها الى الأهداف التي حددها الله . ان هذا التسامي المزدوج في العلاقة بين : الأمة بالنسبة للانسان ، والله بالنسبة للأمة لا ينتج عنه طبقة معينة ولا اضطهاد الانسان للانسان . فليست الملكية الفردية، ولا تنافسات الأسواق ، ولا المجابهات العنيفة أساساً لحرية الانسان لكنها خضوع مشترك لغاية الهية تتعلق بها كل السلطات البشرية وكل مستويات السلطة السياسية والثروة الاقتصادية والثقافة على اعتبار أنها تخصص اصطفائي أو نفوذ تقني .

المساواة كالحرية لها أيضاً أساس مختلف بشكل جذري عن المساواة

لدينا : انها ليست من خصائص الفرد الانعزالي وانما هي تعبير ونتيجة لارتباط كل فرد بالمطلق ، وللشعور الالهي فيه ، الذي يسمح له بأن يأخذ أبعاده ، بعداً غير محدود تجاه المؤسسات الانسانية وكل النزعات البشرية للسيطرة . هذا هو الأساس القرآني للقانون .

لا شك في أنه لم يعرف إلا القليل من الانجازات الملموسة حتى في الوقت الذي كانت فيه الحضارة الاسلامية في أوجها ، وكذلك اوروبا المسيحية وبخاصة في زمن سيطرة الكنيسة اذ أنها لم تر إلا قليلاً جدا من الانجازات التاريخية الملموسة المطابقة للمجتمع الذي نادت به تعاليم يسوع الناصري .

لكن في اللحظة التي اكتسحتنا واستولت علينا فيها أمواج انحرافات عصرنا من الرغبة العمياء في النمو ومن محاولة السيطرة لدى الدول والقوميات المتعددة ومن مظاهر العنف ومن توازن الارهاب على جميع مستويات الدول كأفراد وجماعات ومن المبادلات غير المتكافئة التي زادت من خطر سيطرة البعض ومن بؤس عدد كبير فليس الوقت وقت فتح نزاع حول حسنات البعض التاريخية أو تخلي البعض الآخر عن أهدافه ومن الملح بالنسبة للجميع أن يُنشئوا مشاريع بناءة لكل فرد ، فالأفكار القوية جديرة بتحريك طاقات العالم كله حول مشروع مشترك .

لقد قادتنا المبادىء الفردية في عصر النهضة الغربي. ثم الثورات البورجوازية الى الفوضى. كما قادتنا المحاولات الاستبدادية لقلب هذا التيار بتزييف معنى الأمة في النظام الفاشي أو مفهوم الطبقة في النظام الشيوعي إلى المأساة .

وفي هذا العصر ما الذي يمكن للإسلام أن يقدمه بنظامه القائم على مبادئه العظيمة ؟

اذا كانت المسيحية ، والحق يقال ، تنادي بمبادىء التسامي نفسها فانها ، عندما أفسدتها ثنائية فلسفة الاغريق وحرفتها البنى التسلطية في

الامبراطورية الرومانية فإن العلاقات بين الدين والسياسة قد أصبحت مزيفة منذ عهد قسطنطين ومجمع نيقيا وحتى يومنا هذا . وان التأمل البناء في الأهداف الاسلامية يمكن أن يخصب الكثير من محاولات التحرر التي ظهرت لدى بعض المسيحيين منذ عشرين عاماً خلت .

الاسلام والقانون الدولي

لا بد أن يظهر إسهام القانون الاسلامي في القانون الدولي . واذا كان من الحقيقي أن بعض المسلمين في البحر المتوسط قد مارسوا شيئاً من القرصنة التي تشبه القرصنة الأوربية في الأطلسي ، وكذلك كما حصل فيما بعد لحساب ملوك اسبانيا والبرتغال وفرنسا المسيحيين المتعصبين أو المتزمتين الهولنديين والانكليز ، وعلى كل فإنه من الامور الثابتة والمحققة أن المسلمين قد وضعوا أنظمة للتجارة البحرية حتى في أيام الحرب . وقد دونت هذه القوانين عام ١٣٤٠ في برشلونه في قنصلية البحر ، فيما عرف بالمرجع البحري ، الذي صاغ مبادءه القديس لويس لدى عودته من الحملة الصليبية الأولى ، مقلداً بذلك المسلمين .

إن أول كتاب يضم مجموعة قوانين مبوبة في الغرب، كان على يد الفونس العاشر[١] بأجزائه السبعة، وهو يحوي في جزئه الثاني تشريعاً حول الحرب مأخوذاً عن النصوص الاسلامية حول هذا الموضوع وقد جمع في عام ١٢٨٠ في اسبانيا المسلمة (الأندلس) وبحث فيه حماية الأطفال والشيوخ والنساء والعاجزين ، واحترام الالتزامات وقوانين الشهامة التي يجب احترامها في زمن الحرب .

ومما يستحق الاعجاب ، إبان الحروب الصليبية أن أطباء عرب في فلسطين جاءوا إلى المعسكر المسيحي بعد المعركة للإعتناء بالجرحى ، وقد اعُترف لهم بجدارتهم العالية .

---

(١) ولد في طليطلة وقد لقب بالحكيم وكان ملك كاستيل وليرن وامبراطور الغرب وكان مثقفاً كبيراً وقد نشطت الحركة العلمية في عصره وسميت الجداول الفلكية باسمه (الجداول الألفونسية)

إن روح الفروسية عند صلاح الدين الذي طرد الصليبيين من القدس قد اصبحت اسطورة . وأما تقاليد الفرسان الصليبيين الغربيين التي تحمل الوحشية والهمجية قد اكتسبت شيئاً من الرحمة بعد أن احتكوا مع أعدائهم من الفرسان المسلمين . ولهذا كان الفرسان التيتونيون يقومون بزيارات إلى بلاط فريدريك الثاني الذي كان من أشد المعجبين بالحضارة العربية وفي مملكة صقلية .

واليوم إذا لم يعترف الغرب بتأثير هذه الحضارة الاسلامية التي اخصبت العالم خلال الف عام ، على القانون الدولي ، فلا بد أن يكون لديه تعصب أعمى ، وهو التعصب الذي طالما اتُهم به الاسلام ، وهو منه براء .

القرآن والمرأة

إن المثال النموذجي لهذا التعصب في الغرب يظهر في المجادلات حول المرأة في الاسلام ، ومن المفيد أن نميز مرة اخرى بين التعليم القرآني ، وبين تطبيق الدول الاسلامية من جهة ومن جهة أخرى مقارنة عادلة بين تطبيق الشعوب المسيحية الحقيقي ، وبين التطبيق الحقيقي عند الشعوب الاسلامية . وليس بين نظرية الطرف الأول ، وتطبيق الطرف الثاني .

على المستوى اللاهوتي لم يشر القرآن إلى علامة عبودية وخضوع بين الرجل والمرأة . فالمرأة في القرآن لم تخلق من ضلع آدم ، بل إنها زوج من زوجين[١] .

. . . . من الصحيح أن القرآن مثل التوراة والانجيل قد منح للرجل سلطة على المرأة وهذا التباين هو سمة ثابتة في كل المجتمعات الأبوية ولم

---

(١) القرآن أشار الى ان المرأة خلقت منه ثم بث الذرية منهما وذلك بقوله تعالى في سورة النساء آية ـ ١ ـ ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً. . .﴾ والأحاديث الصحيحة تشير إلى أن كل الناس من آدم وآدم من تراب. وأن «المرأة خلقت من ضلع أعوج وإن أعوج ما في الضلع أعلاه فإن ذهبت تقييمه كسرته ، وإن تركته لم يزل اعوج ، فاستوصوا بالنساء» .
متفق عليه .

يختف حتى في يومنا هذا من أي بلد من البلدان ، لكن اذا قارنا القوانين القرآنية مع قوانين المجتمعات السابقة فإنها تشير إلى تقدم ملموس قياساً لقوانين مدينتي (أثينا وروما) حيث كانت المرأة تعتبر قاصرة للأبد .

أما في القرآن فإن المرأة لها الحرية الكاملة في التصرف بأموالها وممتلكاتها .

إن هذا الحق الموجود في غالبية التشريعات الغربية ، وخاصة في فرنسا لم يُعترف فيه للمرأة إلا في القرن التاسع عشر أو القرن العشرين .

فالقرآن والسنة الشريفة يمنحان للمرأة حق طلب الطلاق (عند الضرورة) . وهذا الحق لم تنله المرأة في الغرب إلا بعد ثلاثة عشر قرناً .

لقد أقر القرآن تعدد الزوجات ، لكنه لم ينشئه فهو موجود من قبل ، والمتطلبات التي فرضها القرآن هي التالية : عدالة تامة ، اقتصادية ، عاطفية ، جنسية بين مختلف النساء وبهذه الشروط جعلت الأنظمة القرآنية تعدد الزوجات أمراً صعباً .

علاوة على ذلك فان الفصل وعدم التمييز بين الناحية القانونية في الزواج المرتبط بمجموعة القوانين الاجتماعية ، وبين العلاقات الشخصية في الحب والجنس ، هو نفاق مفضوح . فالزواج الواحد المتشدد الذي أوجد في قانون نابليون بتشريع الزواج الذي كان هدفه الاساسي الحفاظ على شكل منّ الملكية والارث ، هذا التشريع لم ينل من التطبيق الفعلي إلا النادر القليل فقط .

في تقاليدنا الغربية الزواج الآحادي موجود في القوانين فقط ، وهو حبر على ورق . بينما المعمول به فعلاً هو تعدد الزوجات ، وهذا يتوضح في توجه جوهر الأدب الغزلي في الغرب كما في أماكن اخرى إلى تمجيد الحب ، غير حب الزوجة الشرعية .

ويجدر بنا أن لا ننسى في الأخير أن كل التفنن في الحب وتمجيده

والاخلاص له كما ظهر في الغرب مع الشعراء الجوالين ، الحب الغزلي ، ومخلصو الحب لدانتي . هي من أصل عربي اسلامي وترتبط بالحب العذري . يتجلى ذلك في كتاب « ياسمين العشاق » لروز بيهان الشيرازي في القرن الثاني عشر في ايران . أو « طوق الحمامة » لابن حزم القرطبي في القرن العاشر .

الله أكبر

حقيقة أنه لا يوجد في نظر الاسلام سلطة الا سلطة الله تقودنا في السياسة الى نتائج مشابهة لتلك التي لاحظناها في مجال الاقتصاد والتشريع . فاذا جعلنا كل سلطة نسبية ـ الله اكبر ـ كما اذا جعلنا كل ملكية وكل ثروة نسبية فان نظاماً اقتصاديا اميناً على مبادىء الاسلام لا يمكن مقارنته بالنظام الرأسمالي ولا بالنظام الجماعي وحتى ان نظاماً اقتصادياً أميناً على مبادىء الاسلام لا يمكن مقارنته مع التيوقراطيه ولا مع فوضوية الحق الالهي في الغرب ولا بالديموقراطية البرلمانية .

وإن تفسيرنا للاسلام على أنه دين نجد فيه تشريعاً سياسياً مفصلاً في القرآن وصالحاً لكل الشعوب وفي كافة الأزمنة فهو تفسير ضيق لمستقبل الاسلام . فالقرآن نفسه لم يتوقف عن التذكير بأن الله أرسل لكل أمة رسولاً قادراً على أن ينقل لهم الرسالة بلغة وثقافة هذا الشعب وفي هذا الزمن :

(ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك) .

ويحلوا للمسلمين أن يشيروا الى أقوال المسيح التي أوردها القديس يوحنا ويعتبرونها كإعلان عن مجيء النبي محمد : « وما زال لدي أشياء كثيرة أقولها لكم ولكنكم في هذا الوقت لستم قادرين على تحملها ، وعندما سيأتي روح الحق فانه سيجعلكم تصلون الى الحقيقة كاملةً . انجيل يوحنا ١٦ (١٢ ـ ١٣)

ان الأمر يتعلق بالفعل ، بنفس الرؤية . لكن تعود مسؤولية تطبيقها على الإنسان في كل بلد وفي كل عصر بطريقة متوافقة مع روح ومع شروط هذا البلد وهذا العصر . وهذا ما فعله الماوردي في « الاحكام السلطانية » متخيلاً

خلافة مثالية في عصر كانت فيه الخلافة العباسية تحمل طابع الملكية التاريخي في بيزنطة وبلاد فارس الساسانية . ولكن القول بامكانية استخراج دستور[1] وقانون في القرآن بجميع تفاصيله هو أمر غامض كإمكانية اعتبار السياسة المستقاة من الكتاب المقدس لبوسييه الذي يهدف للدفاع عن ملكية لويس الرابع عشر المطلقة ، جاعلاً من الملك « نائب الله على الأرض » إضافة إلى أنها تحدد إلى الأبد سياسة الكنيسة الرسمية ومن غير المنطقي النظر إلى السياسة الاجتماعية وما فيها من تعاليم على أنها صالحة لكل زمان ومكان .

بالنسبة للمسيحيين يمكننا على الأكثر أن نعرف أنواع الحكم التي استبعدتها مبدئياً تعاليم وحياة وموت وبعث المسيح وكذلك بالنسبة للمسلمين التي استبعدها القرآن . لقد استبعد القرآن على سبيل المثال ملكية الحق الالهي الاستبدادي بالمعنى الغربي للكلمة لأنه لا يوجد في الاسلام كهنة ولا كنيسة مؤهلة قانونياً بالتكلم وبالحكم باسم الله . واذا كانت الخلافة قد

(١) لم يشرع الاسلام لأتباعه نظماً مفصلة في الحكم والسياسة ، أما الجانب التعبدي في الاسلام فهو مفصلاً ومحدداً ومبيناً لأن العبادات أوامر إلهية لا شأن للعقول بها ولا رأى للناس في طرائقها ، كتحديد الصيام والصلاة في ركعاتها والحج في وقته . . . الخ
ولكنه جاء في شئون الناس وما يتعلق بحياتهم من معاملات وسياسات ونظم ـ بخطوط عريضة عامة وترك التفصيلات والجزئيات والفروع للعقول أن تبدع وتفكر وتنظم شؤون الحياة على ضوء المصالح العامة وبمقتضى التطور الزمني والاختلاف المكاني .
يقول الاستاذ خلاف في كتابه علم اصول الفقة »
ومن استقرأ أيات الأحكام في القرآن يتبين أن احكامه تفصيلية في العبادات وما يلحق بها من الأحوال الشخصية لأن أكثر احكام هذا النوع تعبدي لا مجال للعقل فيه ، وأما الأحكام المدنية والجنائية والدستورية فأحكامها فيها قواعد عامة ، ولم يتعرض لتفصيلات جزئية إلا في النادر ، لأن هذه الأحكام تتطور وتتبدل بإختلاف المكان والزمان والمصالح فاقتصر القرآن فيها على القواعد العامة والمبادىء الاساسية
ويقول العزبن عبد السلام « تحدث للناس أحكام بقدر ما يحدثون من السياسات والمعاملات .
وبذلك يفتح الاسلام امام المسلمين أوسع أبواب التطور وأعظم منافذ الاجتهاد ويدير حياتهم على مرونة حية دائمة الحركة والنمو في خططه العريضة القائمة على الشورى والاجتهاد والمصالح المرسلة والاجماع .

أصبحت وراثية وعائلية فقد كان هذا تقليداً للاستبدادية البيزنطية أو الساسانية . بالنسبة للاسلام وللمسيحية يكون من الخطأ أن ندمج فيها المبادىء مع الشكل الذي اتخذته في هذا العصر أو ذاك من تاريخه . فالقرآن يستبعد بنفس الطريقة ، بسبب المساواة المطلوبة بين كافة المشتركين بالايمان ، نظاماً ديموقراطياً برلمانياً أي الديموقراطية المبنة من جهة على فردية المواطن التي ليس لها أي غاية إلا المصلحة الشخصية وتتجابه بشكل أعمى في صراعات سياسية تكون نتيجتها الاحصائية شيء ما لا يريده أي شخص . انه يستبعد أيضاً فكرة التوكيل والتصرف بالسلطة ، كما قال روسو ، التي تشكل وسطاء بين الله والأمة المؤمنة . ان كل تمثيل هو تضليل فليس هناك أي بديل عن الشعب فالديموقراطية إما أن تكون مباشرة أو لا تكون .

ربط الانسان بالمطلق

ان الأمة ليست ثمرة للعقد الاجتماعي إنها امة الايمان القائمة على اليقين عند كل فرد يشكلها. إن هناك هدفا يتجاوز المصالح الفردية وحتى مصالح المجموعة مهما كانت واسعة . هذه الأمة تعني الانسانية في مجمل تاريخها وتطلعاتها . ان الامة الاسلامية هي حاملة هذه الكلية لأن كل فرد من أعضائها متحد مع الآخرين كافة بعيداً عن اختلاف العرق أو الأرض أو الماضي التاريخي بنفس الايمان في التوحيد السامي .

من وجهة النظر الاسلامية الخالصة ، الأمة هي مرض غربي ، إنه إرث مشؤوم لمن تجزئة الاستعمار للأمة الاسلامية . وهذا ما ينطبق على الديموقراطية على الطريقة الغربية مع مواجهات وصراعات افرادها وجماعاتها التي جزأها التنافس ، وتلاعب بها الاعلام، ليست له علاقة مع مبدأ الشورى ، واستشارة الناس الذين لا يوجد بينهم رباط أفقي ناشىء عن التنافس وانما رباط عمودي عند كل فرد مع المطلق الواحد .

ان السلطة مثل الملكية موجهة نحو أهداف تتجاوزها . ليس هناك أي تعليم فعلي في وقت تجعلنا فيه تجربة عصرنا نعي بأنه لا يمكن أن تكون

هناك اشتراكية داخل طريقتنا في السعي وراء النمو الأعمى دون هدف انساني ولا يمكن أن تكون هناك اشتراكية من خلال فرديتنا الغربية التي تشكل الرأسمالية أساساً لها وتعبيراً عنها في آن واحد . ولا يمكن أن تكون هناك اشتراكية دون تسامٍ ، دون امكانية دائمة لقطع الصلات مع حتمياتنا واستلاباتنا . لقد أصبح الوضع الراهن لا يطاق العيش فيه. والثورة أصبحت مستحيلة لأن الانسان الغربي لا يشعر مطلقاً بالحاجة إلى التسامي . وان كل ثورة ستسقط اذا ادعى الانسان أنه غير كل شيء ولم يغيّر نفسه .

﴿ ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾

ان تغيير الانسان ، في عصرنا هذا ، كما في زمن الريشيين في الهند الفيدية أو في زمن لاوتسوفي الصين كما في زمن ابراهيم وزمن يسوع الناصري أو زمن محمد هوربطه مع المطلق وتذكيره بقدرته على الانفصال عن كل ما هو موجود ومقاطعته لهذه الأمور بدءاً من النمو والقدرة وانتهاءً بالعنف .

(١) سورة الرعد الآية ١١

الفصل الرابع

العلم والإيمان

﴿ قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . . . ﴾

﴿ قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . . . ﴾

سورة الأنعام - ٩٧ - ٩٨ -

لا يمكن الحكم على تطور العلوم والتقنيات في حضارة من الحضارات دون أن نأخذ بعين الاعتبار الاحتياجات الواجب تلبيتها والمنهج الثقافي في ذلك المجتمع . ولا يمكننا الاكتفاء بالتساؤل عن كيفية حدوث هذه الإنجازات العلمية والتقنية بل علينا أن نتساءل عن السبب الذي حدثت من أجله والغايات التي كرست في سبيلها . وعلى هذا فإنه لم يتم وضع اسس العلم الصيني أو الهندوسي أو الاسلامي بشكل منفصل عن مفهوم الانسان وحياته اللذين وجدت من أجلهما هذه العلوم والتقنيات .

إن الاهتمام بالغاية الانسانية لهذه العلوم والتقنيات لم يكن قط عائقاً في سبيل ازدهارها . وإذا لم يكن العلم الاسلامي قد سلك الطريق ذاته الذي سلكه العلم الغربي منذ القرن السادس عشر فليس هذا لأنه أقل قيمة بل لأن المسلمين رفضوا النظر في أي فرع من هذه العلوم بشكل منفصل عما يعتبره الاسلام غاية الوجود ومغزاه .

بهذه الروح نريد أن نلقي نظرة إجمالية لتقييم العلم الإسلامي ودراسة

تطلعاته متحاشين قبل كل شيء أن نرى فيه ـ كما فعل مؤرخونا غالباً ـ إما مجرد نقل للعلم الاغريقي أو الايراني أو الهندوسي أو الصيني وإما مجرد حلقة في سلسلة الاكتشافات ، نعتبرها بمثابة « عصر ما قبل التاريخ » بالنسبة للعلم الحديث ، وتتلخص فائدتها التاريخية في انها مهدت السبيل لعلمنا الذي ندعوه بصلف « العلم » بدلاً من أن نسميه بكل بساطة العلم الغربي .

مرحلة التمثل :

ولكي نفهم العلم الاسلامي في مضمونه ومغزاه. فإن من المهم أن لا نفصله عما تفرض عليه غايته الا وهو الايمان الاسلامي . فلا يمكن فهم العلم الاسلامي دون فهم الاسلام بذاته ، تلك القوة الحية التي كانت روح ذلك العلم .

إن مبدأ التوحيد وهو حجر الأساس في تجربة الاسلام لمعرفة الله يُلغي كل ما يفصل بين العلم والايمان . وبما أن كل شيء في الطبيعة هو دلالة على الوجود الإلهي تصبح معرفة الطبيعة ـ مثلها في ذلك مثل العمل ـ شكلاً من أشكال الصلاة وسبيلاً للتقرب من الله . فالقرآن والحديث لا يفتآن يمجدان العلم ويحثان على البحث العلمي حتى لو كان الباحثون لا يرتبطون بالايمان الاسلامي . وهذا ما يفسر دور الاسلام المخصب والتجديد العلمي الذي حصل في كل مكان بفضل انتشاره. او لم يقل النبي :

« ما من رجل يسلك طريقا يلتمس فيها علماً إلاّ سهل الله له طريقاً إلى الجنة ...[1] »

« يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء »[2]

---

(١) رواه مسلم وابو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم قال صحيح على شرطهما .

(٢) اخرجه ابن عبد الله من حديث ابي الدرداء بسند غير صحيح ، وابن الجوزي في العلل ورواه الشيرازي عن انس

بدأ عصر العلم العربي بروح انفتاحية فائقة ، وبمجهود منظم لاستيعاب تراث كافة ثقافات الماضي . بدأ هذا العصر بشكل خاص بعد عام ٧٥٠ مع العباسيين في بغداد . فعندما تولى هارون الرشيد (٧٨٦ ـ ٨٠٩) على انقرة أو عندما أحرز الخليفة المأمون (٨١٤ ـ ٨٣٣) النصر على الامبراطور البيزنطي ميخائيل الثالث ، لم يطلب من أي منهما كتعويض عن خسائر الحرب الا أن يُسلموا المخطوطات القديمة والمؤلفات الاغريقية الموجودة في بيزنطة وهذا ذو مغزى عظيم !!!.

وقد نُظِمَ في بغداد عمل ضخم للترجمة . فمنذ القرن الثامن جذب هارون الرشيد الى بلاطه اصحاب العلم واللغويين من كافة الجنسيات وأسس الخليفة المأمون وهو أحد خلفاء هارون الرشيد مدرسة للمترجمين هذه الأكاديمية كانت في أول الأمر تحت إدارة شخص فارسي من جند يسابور يدعى، يحيى بن ماسوية وكان طبيباً ورئيس مترجمين خلال حكم هارون الرشيد.وظل في مناصبه في ظل حكم المأمون . وخلفه في هذه الأعمال المحرك الشهير لفرق الترجمة حُنين . وما كان حُنين هذا ، الذي ارتدَّ الى المسيحية ، يترجم فقط المؤلفات الطبية لأبقراط وجالينوس وديسكوريد. بل أيضاً مؤلفات الرياضيين والفلكيين وعلماء الطبيعة . وبطلب من المأمون ترجم الفزاري وعدَّل كتاب الفلك « سيد هانتا » للعالم الهندي براهما غوبتا . وبما أن العرب أخذوا عن الصينيين فن صناعة الورق منذ القرن التاسع فقد أسسوا أول مصنع للورق في بغداد حوالي عام ٨٠٠ . وكان على الغرب أن ينتظر أربعة قرون كي يعرف هذا الاختراع ويستخدمه بفضل العرب !!.

وقد أخذت المكتبات تزداد في أرجاء الوطن العربي كله . ففي عام ٨١٥ ، حيث كانت اوروبا تجهل القراءة ، أسس الخليفة المأمون « بيت الحكمة » وكان يضم مليون مجلد . وفي عام ٨٩١ احصى أحد المسافرين اكثر من مئة مكتبة عامة . وفي القرن العاشر كانت مدينة النجف في العراق تلك المدينة الصغيرة تمتلك أربعين ألف مجلد . وكان بحوزة ناصر الدين الطوسي رئيس مرصد مرغا مجموعة من اربعمئة ألف كتاب . وفي الطرف

الآخر من الأرض الاسلامية ، في اسبانيا المسلمة ، كان الخليفة الحكم في قرطبة يمتلك في القرن العاشر مكتبة تضم أربعمائة ألف مجلد بينما لم يستطع ملك فرنسا « شارل الخامس » الملقب بالحكيم أي العالِم ، أن يجمع بعد اربعة قرون تسعمائة مجلد . ولكن لم يستطع أحد أن ينافس خليفة القاهرة « العزيز » حيث أن مكتبته ضمت مليوناً وستمئة ألف مجلد منها ستة آلاف في الرياضيات وثمانية عشر ألفاً في الفلسفة !!!.

هذا الشغف بالكتب وهذه البادرة الأولى لتمثل الثقافات السابقة في ايران ، والصين والهند واليونان ما كانت تنطوي على نوع من الإصطفاء . فقد تلقى المسلمون هذا التراث وجددوه على هدي افكارهم .

النظام التثقيفي :

قدم المسلمون اكثر المساهمات غنىً في الثقافة العالمية وذلك بواسطة ايمانهم . لقد قاد التعصب اوروبا الى الركود وخلال عدة قرون. بينما عرف المسلمون المنتصرون أن يتمثلوا التراث الثقافي بدلاً من أن يدمروه مهيئين بذلك ازدهار وانتشار ثقافتهم : ثقافة مستوحاة من كافة وجوهها من رؤية القرآن التوحيدية ، وهذا ما يعبر عنه النظام التثقيفي الخاص بالاسلام .

إن نقطة الانطلاق في أي نوع من التعليم هو القرآن الذي يدرس في المسجد ، فإن حكمة الايمان تجمع كافة العلوم في كلٍ عضويّ لأنها جميعاً تصبو الى عالم هو في كليته تجلٍ من الله أي وحي بآيات الله ، فما الكون الا مشهد ديني يظهر فيه الواحد عبر المتعدد بألف رمز .

ان احدى ميزات العلم العربي الجوهرية والمستقاة من مبدأ التوحيد هو مبدأ ترابط العلوم فيما بينها فليس هناك فاصل بين علوم الطبيعة وعلوم المرئيات من جهة واللاهوت أو الفن من جهة أخرى ، كما وأنه ليس هناك حاجز منيع بين مختلف العلوم من الرياضيات وحتى الجغرافيا ، وهذا ما يفسر عدد العبقريات الموسوعية في الثقافة الاسلامية . ففي التقليد الغربي لا يوجد إلا

ليوناردودافنشي واحد. أما في الاسلام فإن المفكرين يعدون بالعشرات من بينهم الكندي والرازي والبيروني وابن سينا الذين أبدعوا في آن واحد في مجال الطب والرياضيات واللاهوت والجغرافيا وكثيراً ما تفوقوا حتى في مجال الشعر مثل الرياضي عمر الخيام. أو الفيلسوف العربي ابن عربي. أو في الموسيقى مثل الرازي العظيم .

هذه الرؤية التوحيدية تفسر أيضاً الأهمية التي اعطتها الحضارة الاسلامية لتصنيف العلوم. فحين نوضح وحدة الواقع والمعرفة نكون منساقين الى تأمل في وحدة العالم والى وحدانية الله التي تدل عليها وحدة الطبيعة . وهكذا يكون الانتقال غير منقطع من المسجد الى المدرسة. حيث يبقى تعليم وحدانية الله ووحدة الطبيعة أساساً لكل معرفة . وهذه حال القيروان في فاس والزيتونة في تونس. والأزهر في القاهرة. وجامعات سمرقند وقرطبة . وليس هناك فاصل بين أمكنة التعليم وامكنة البحث الأخرى أكانت المراصدَ ، التي بنى اولها الخليفة الأموي عبدالملك في دمشق عام ٧٠٧ أو المشافي ، التي كانت في الوقت نفسه كليات للطب .

أما خارج العالم الاسلامي فقد أنشئت كليات الطب الكبرى : كلية سالرن في صقلية بعد نهاية الحكم العربي وكلية بولونيا وكلية مونبيلييه بفرنسا على غرار كليات الطب العربية وتحت تأثير تعاليمها . وكذلك الجامعات الأوروبية من جامعة باريس الى جامعة اوكسفورد التي انشئت على الطراز الاسلامي بعد ثلاثة قرون .

وإذا تجاوزنا الأحداث الواقعية ، واذا تجاوزنا اولوية الاكتشافات العربية التي لا تقبل الجدل ، تلك الاكتشافات التي كانت تنسب دائماً وبشكل مضحك الى هذا أو ذاك من العلماء الاغريق أو الغربيين. فإن روح العلم العربي الاساسية هي التي تجعل منه شيئاً آخر ليس مجرد حلقة بين العلوم القديمة والحديثة ، ولذا فليست العلوم العربية علوماً محنطة أكل الدهر عليها وشرب قياساً إلى العلم الحديث ، وإنما هي تصلح للمستقبل كما صلحت للماضي بما يكمن فيها من حكمة وروح .

وحينما نستوعب العلوم الاسلامية في مضمونها وجوهرها وغايتها ، لا في منجزاتها التاريخية فحسب نرى أنها تمنحنا الطريق والاسلوب للتخلص من النزعة العلمية التي تفصل بين العلم والعقيدة . وتعمل على تهيئة الفكر والعقل لخدمة أهداف مرسومة . أو مبطلة الزعم القائل إن العلم المبتور المجرد من ابعاده يساهم في تفتح وبناءالشخصية الانسانية ، فضلاً على ذلك فإن النزعة العلمية الغربية تعمل على جعل العلم قيمة مطلقة بذاتها تزن الامور بحسب فوائدها ومنافعها دون النظر إلى الأهداف السامية إلا هدف تحقيق النمو والقدرة .

الرياضيات : من المتعدد إلى الواحد .

الرياضيات ـ في المنظور الاسلامي ـ هي : نقطة اتصال بين المحسوس والمفهوم بين عالم الصيرورة وعالم الخلود . ففي العلوم والفنون ، من العمارة الى الموسيقى حيث تسود الهندسة والعلاقات الرياضية . الرياضيات هي طريق الوحدة .

ان ما نسميه ـ نحن الغربيون ـ الأرقام العربية ، والتي يسميها العرب الارقام الهندية معترفين بالفضل ، ادخلها الخوارزمي الى اوروبا . وكان الكتاب الهندي / سيد هانتا / الذي أُحضر الى بلاط المأمون في عام ٧٧٣ يحتوي على نظام الترقيم العشري الذي يسمح بواسطة تسعة رموز بالاضافة الى الصفر بالتعبير عن أي رَقْم. لقد أحدث انقلاباً في الرياضيات . هذه الطريقة الجديدة في الحساب حملت اسم ذلك الذي عمَّ وبشكل منهجي منظم الاكتشاف الهندي فكان لوغاريتم الخوارزمي الذي قلب رياضيات الغرب بعد ذلك بقرنين بفضل جامعة قرطبة الاسلامية على يد الراهب جيربير الذي اصبح فيما بعد البابا سيلفستر الثاني . وكانت صقلية هي الطريق الثاني للدخول ، فقد كتب ليونارد بن بوناتشي والذي لُقِبَ فيبوناتشي في أحد كتبه :

« الرموز الرقمية التسعة عند الهنود هي التالية 1- 2- 3- 4- 5- 6- 7- 8- 9 وبهذه الأرقام التسعة والرمز 0 الذي يسمى باللغة العربية صفراً يمكننا كتابة أي عدد كان . بالنسبة للهنود الصفر المرموز له بدائرة يعني العدم ، الفراغ

Sunya» وترجمه العرب حرفياً : الصفر يعني الفراغ (الفارغ) » .

بما أن العدد ـ ١ ـ هو الرمز الاكثر مباشرة للمبدأ الإلهي فإن سلسلة الأعداد وتراكيبها هي السلم الذي يرقى بها الانسان من المتعدد الى الواحد اي الى الله . وهكذا تكون الرياضيات مرتبطة مباشرة مع الرسالة الاسلامية الأساسية : رسالة التوحيد . انها إذن علم مقدس وهي واحدة من عمليات القياس التي توحي بوجود ما هو إلهي في العلوم الأخرى كما في هندسة الفنون . فإذا ما تذكرنا أن العدد ٤٤٤٤ يكتب بالأرقام الرومانية(MMMM CCCC XLIV ، وهذا ما يجعل أية عمليةٍ حسابيةٍ صعبةً جداً ، نستطيع أن نتصور دور هذا الترقيم المعتمد على مكان الارقام واكتشاف الصفر في تطور العلوم والتقنيات وكذلك في الصناعة والتجارة والمحاسبة .

بدءاً من ذلك الوقت جعل العرب الرياضيات تقفز قفزة حاسمة بشكل منفصل عن الاغريق بعد أن تمثلوا كافة اكتشافاتهم وبخاصة لأنهم ما عادوا يرفضون كل ما ليس بمحدود على انه غير عقلاني . وعلى العكس فإن عملهم كان منصباً على غير المتناهي . فثابت بن قرة[1] الذي توفي عام ٩٠١ يخالف اسلوب التفكير الاغريقي ويبحث عن المجموعات اللانهائية والتي هي جزء من مجموعة أخرى لا نهائية ، مثل مجموعة الاعداد الزوجية بالنسبة لمجموعة الأعداد .

وكان الخوارزمي رائد علم الجبر . والتسمية نفسها « الجبر » هي عنوان كتابه الشهير ، ومع مبدع الجبر يجري الانتقال من المفهوم الاغريقي للعدد ككمية صرفة الى مفهوم العدد كعلاقة صرفة . أما القاشاني فقد حسب فيما بعد العلاقة بين الدائرة وقطرها العدد π ، وطور عمر الخيام نظرية الأعداد الصماء مبتعداً بذلك عن تعصب الاغريق لفكرة المحدود كما كتب بحثاً

(١) ثابت بن قرة : ابو الحسن الحمداني (٨٢٦ ـ ٩٠١) عالم رياضيات وفلك وطبيب عربي وأحد المترجمين من اليونانية الى العربية ترجم كتب ارخميدس ـ اقليدس وبطليموس وغيرهم . كانت قياساته للقطع المكافيء والأجسام الفراغية المتولدة منه مثيرة للانتباه ومن مؤلفاته الطبية كتاب « الذخيرة » .

منهجياً عن المعادلات من الدرجة الثالثة وظل بحثه هذا سائداً حتى القرن السابع عشر . لقد افتتح ثابت بن قرة الحساب التكاملي في القرن التاسع وربط الهندسة بالجبر. وانصب اهتمام الطوسي والبيروني وأبو الوفا على العلاقات الجيبية واكتشفوا القاطع قبل كوبرنيك[٢] بعدة قرون .

الفلك و « رموز » وحدانية الله .

في ميدان الفلك أخذ المسلمون بتراث بطليموس وتجاوزوه بشكل واسع وكان عملهم في هذا الميدان أيضاً متوافقاً توافقاً تاماً مع الغايات الاساسية التي يتوخاها الاسلام . كتب البتاني[٣] (٨٧٧ - ٩١٨) وهو أحد كبار الفلكيين في القرن التاسع :

« بعلم النجوم يصل الانسان الى برهان على وحدانية الله والى معرفة حكمة الله في ما خلق .

إن العلم العربي هو علم تجريبي على عكس الاغريق . فقد أقام الخليفة المأمون مرصداً في بغداد لرصد حركات الكواكب بشكل منظم . لقد أجريت قياسات دقيقة تحت اشراف يحيى بن منصور وتم التأكد منها في مركز جند يسابور كما تم التحقق منها بعد ذلك بثلاث سنين في مرصد جبل قاسيون قرب دمشق . ونظم فلكيو المأمون الجداول « المأمونية » التي طورت جداول بطليموس بشكل جذري . وكتب ثابت بن قرة كتاباً : « في الأسباب الداعية الى الاستعاضة عن جداول بطليموس بجداول محققة بالبراهين ». (وضع جداول محققة بدلاً من جداول بطليموس) .

(٢) نيفولا كوبرنيك هو عالم فلكي بولوني ، لقد برهن على ان حركة الكواكب المزدوجة حول نفسها وحول الشمس (١٤٧٣ - ١٥٤٣)

(٣) البتاني ابو عبد الله محمد بن سنان (٨٥٨ - ٩٢٩) أحد اعلام الفلك عند المسلمين برهن على امكان حدوث كسوف حلقي للشمس .
اهم اعماله جداوله المسماة بالزيج الصابىء ، ترجمت وانتشرت في اوروبا في القرن الثالث عشر ، وأمر الفونس العاشر بترجمتها الى الاسبانية في ذلك القرن .

إن الفلك عند العرب لا يتجاوز الفلك عند الاغريق في مجال المراقبة فقط ، وإنما أيضاً في مجال القياس. لقد حسب البتاني ميل الأرض ٢٣° ٣٥َ وهذا الرقْم تثبته القياسات في يومنا هذا على الشكل التالي ٢٣° / ٢٧َ - وحسب مبادرة الاعتدالين ٥٤َ ٥ً بالسنة . وتوصل فلكية المأمون في حساب خط منتصف النهار الى ١١١٨١٤ م ويُقدر في يومنا هذا بـ ١١٠٩٣٨ م .

في القرن الثالث عشر ، بُنيَ مرصد ماراغا ، الذي كان يشرف عليه ناصر الدين الطوسي (١٢٠١ - ١٢٧٤) واصبح نموذجاً يحتذى به اذ أنه جمع بين الرصد والحساب . كانت فيه تجهيزات فريدة من نوعها في العالم آنذاك نذكر منها بشكل خاص كرة محلقة مؤلفة من خمس حلقات من النحاس يزيد قطرها على ثلاثة أمتار وهذا يعني وجود تقنية عظيمة تسمح بقص دوائر معدنية بهذا الحجم بدقة متناهية . وفي الفترة نفسها ، في مدينة بورغوس ، طلب ملك قشتالة المسيحي الفونس العاشر الملقب بالحكيم تقليد تجهيزات ماراغا لوضع الجداول الألفونسية والتي هي عبارة عن نسخ للجداول العربية . تلك الجداول التي اعتمدها نيقولا دي كوز ليقترح على المجمع الكنسي عام ١٤٥٦ تعديل التقويم .

كانت هذه الابحاث الفلكية تقدم للعرب فائدة عملية منها معرفة التوجه في الصحراء وفي البحر بشكل خاص . عندما أصبح هؤلاء العرب البدو الرحل بحارين، ومدوا خطوطهم ليس فقط في البحر الأبيض المتوسط وإنما أيضاً في المحيط الهندي وسواحل افريقية . فقد استدعت ضرورة تحديد مكان السفينة أمرين : معارف عميقة واجهزة قياس ، مثل الاسطرلاب الذي طوروه والذي كان يسمح بقياس ارتفاع النجوم والشمس والقمر والكواكب الاخرى والبوصلة التي اخترعوها ونقلوها الى الصين . كما وأن وجوب التوجه نحو مكة من اجل الصلاة اينما كان المرء ، كان يتطلب علماً دقيقاً لمعرفة الاتجاه في الأرض العراء. وكذلك وجوب تحديد الصلوات الخمس اليومية بشكل دقيق كان يقتضي تحديداً دقيقاً للشمس وساعة اشراقها وساعة غروبها. ولتحديد بداية ونهاية الصوم اليومي. ومدة ظهور القمر لحساب بداية ونهاية شهر رمضان .

وقد توصل العلماء في مرصد سمرقند الذي بناه الأمير الفلكي اولونغ بيك حفيد تيمورلنك على غرار مرصد ماراغا ، الى حساب السنة الشمسية بفارق أربع عشرة ثانية عن الحسابات الحالية .

الطبيعة والجغرافيا في القرآن

تناول العلماء المسلمون الجغرافيا بالروح نفسها . وكتب البيروني[1] في كتابه ـ الآثار الباقية عن القرون الخالية : « لقد اخترق الاسلام العالم من الشرق الى الغرب وتقدم في أوروبا ووصل إلى حدود الصين واثيوبيا وبلاد الزنج (جنوب افريقيا) وأرخبيل ماليزيا وجاوة وبلاد الترك والسلاف . لقد تعلمت شعوب عديدة التفاهم المتبادل وهذا أمر لا يهيؤه الا ترتيب من الله » . وفي هذا المجال أيضاً تحقق تقدم كبير على بطليموس .

« هناك كثير من الأمكنة وصفتها جغرافية بطليموس في شرق بعض الأمكنة وهي الآن في غرب الكثير من الأمكنة الأخرى . . . يعود سبب هذه الأخطاء الى غموض في المعطيات مثل تقديرات خطوط الطول وخطوط العرض » .

لقد اتى الاتفاق التام من القياسات : كخطوط الطول والعرض ، ومن الملاحظة . فتطور رسم الخرائط وتشكيل التضاريس والجغرافية البشرية المرتبطة بالتاريخ . وتضافرت المؤثرات العديدة كمتطلبات التجارة والايجار

---

(١) ابو الريحان محمد بن أحمد البيروني (٩٦٢ ـ ١٠٤٨) مؤلف عربي سافر الى الهند ودرس لغة اهلها وحصل على كثير من العلوم . فكان مؤرخاً لغوياً ، أديباً ، عالماً بالرياضيات ، والطبيعيات والفلك والطب والفلسفة والتصوف والأديان .

وله مؤلفات منها تاريخ الهند والقانون المسعودي في الهيئة والنجوم وكتاب تحقيق مالنهند . بالاضافة الى فلسفته كان منصرفا بأكثر عنايته الى الرياضيات والفلك ، فقد سجل في كتابه القانون المسعودي . سجل بالبرهان الهندسي قانوناً اشبه بقانون جريجوري نيوتن لحساب الاستكمال والذي ظهر بعده بعدة قرون ، كما وضع معادلة لاستخراج مقدار محيط الارض يسميها علماء الأفرنج « قاعدة البيروني » ويعترف نيللنو بأن قياس البيروني لمحيط الأرض في الاعمال العلمية المأثورة للعرب . فكان أول من أثبت حركة اوج الشمس . وعمل على تبسيط رسم الخرائط الفلكية بطريقة تشبه ما نشره ج.ب. نيكولوزي دي باترو سنة ١٦٦٠ .

والجمع والادارة وتأمل العمل الإلهي ورموزه لتجعل من الجغرافيا مع الرياضيات والفلك والطب أحد العلوم التي قدمت فيها الحضارة العربية الاسلامية للعالم أعظم الهبات . ان القرآن هو كتاب الله المسطور ، أما الطبيعة فهي كتابه المنظور الذي يدل على ابداعه وذاته ووجوده .

وأرض الجغرافيين مثلها في ذلك مثل سماء الفلكيين هي دليل على وجود الله تجلي الله لنا . أمَّا هُوَ فلا يستطيعُ أحدٌ أن يراه كما هُوَ .

ليست الطبيعة شيئاً فارغاً من المعنى كما يجعلها علم الطبيعة عند ديكارت الذي يعتبر كل حقيقة مجرد كمية صرفة والذي يعتبر ان الحيوان ما هو الا آلة وهذا المفهوم طبَّقه لامتري فيما بعد (١٧٠٩ ـ ١٧٥١) على الانسان ذاته . اما في العلوم الاسلامية فلم يُفصل من أي منها ، من الفلك الى الجغرافيا ومن الرياضيات الى الطب ، الواقع المدروس عن التأمل في اصوله وغاياته . والعلم الاسلامي الذي لا يبعدنا عن الملاحظة الدقيقة جداً والحساب ، هو الذي علَّم العلم الغربي الطريقة التجريبية (المناقضة لطريقة الإغريق التي تهتم بالنظريات اكثر مما تهتم بالوقائع ، وطرق الرياضيات الحديثة ، لأنه طبقاً لأسسه الأولى لا يفصل العلم عن الحكمة .

إن امتداد رقعة الحضارة الاسلامية التي فاقت في اتساعها كل امبراطورية سابقة ، والتحرك عبر المحيطات والصحارى من المحيط الهادي الى المحيط الأطلسي ومن الصحراء الى آسيا الوسطى ، اقتضت معرفة صحيحة بالأرض .

وكان الحج الى مكة من كافة اصقاع العالم المعروفة أنذاك يزيد باستمرار عدد الذين يشاركون في هذه الأسفار وبالتالي عدد الذين يحتاجون هذه المعرفة . والتجارة ذات المدى البعيد كانت تتطلب بالاضافة لرسم الخرائط بدقة للتجارة والقوافل ، معرفة عميقة بالمصادر والاحتياجات في كل مكان .

جغرافيا اقتصادية وبشرية :

بدءاً من القرن التاسع شقَّ الملاحون العرب المحيط الهندي ، وفي القرن العاشر ، أي قبل ماركوبولو (١٢٦٤ - ١٣٢٤) بثلاثة قرون ، اعطى التاجر العربي سليمان أول وصف للصين - في القرن الرابع عشر طاف ابن بطوطة (١٣٠٤ - ١٣٥٦) العلامة والرحالة الكبير كل البلاد العربية من تومبوكتو الى بخارى ثم مرَّ الى افغانستان ووصل الى دلهي في الهند ثم سيلان وأخيراً وصل الى كانتون في الصين وكانت مذكراته تعبيراً عن عجائب مشاهداته .

في بلاط روجيه الثاني الصقلي (حتى بعد أن انتزعَتْ صقلية من العرب) ألفَّ الجغرافي العربي الإدريسي (المولود في سبتا عام ١١٠١) « كتاب روجيه » الذي يشكل بخرائطه أفضل وصف للعالم في العصر الوسيط . هذه المعرفة بالخرائط كانت ذات أهمية كبرى للملاحين الصقليين والجنوبيين والقشتاليين والبرتغاليين ، فكانت ترتكز على تحديد رياضي لخطوط الطول والعرض وعلى نظام اسقاط مستوى سابق لتربيع (مركاتور) بخمسة قرون ، وعلى سعي وراء الدقة في تحديد رسم الشطآن ومجاري الأنهار .

ابن ماجد ، وهو ابن عائلة من الملاحين ، ولد حوالي عام ١٤٣٠ ، لم يكن فقط مؤلف « بحث في مبادىء الملاحة وقواعدها » بل كان ملاحاً يلقب بأسد البحار وهو الذي قاد اسطول فاسكودي غاما البرتغالي الذي كان يعتبره كنزاً عظيماً ، من ميلندة (على الساحل الافريقي) إلى كالكوتا ١٤٩٨ .

لقد نما كل هذا العلم في جو من التقوى الدينية . فقد كان الجغرافيون العرب يحبون التذكير بعبارة أحد الصحابة أبو سعيد (الخدري) : « اكثر الخطب بلاغة هو أن تسافر عبر العالم المتوحش وأن تتأمل هدوء البحار » .

ازرعوا أرض الله :

ولكن بالاضافة للتأمل والدراسة والبحث هناك أيضاً العمل الذي يمارس على هذه الطبيعة . (ثم سواه ونفخ فيه من روحه) . (وإذْ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) فالإنسان إذن مسؤول عن التوازن

الطبيعي ، مسؤول عن الطبيعة التي يجب عليه ان يجعلها اكثر جدارة بخالقها . فالحدائق الفارسية أو الأندلسية كما يمكن ان نتأملها الآن في أصفهان أو شيراز أو في الحمراء جنَّات العرين في غرناطة ما هي الا صورة مصغرة عن الجنة فكلمة . فردوس . بالفارسية تعني : الحديقة .

في هذا المجال أيضاً لا يوجد انفصال بين الجغرافيا والزراعة أو الجيولوجيا والبيولوجيا وعلم النبات أو بين المعرفة والتطبيق . فإن بين دراسة تغيرات التضاريس - تكون طيات الجبال وتشكل السهول وحتى المحيطات وتوضع الرسوبيات وتشكل المياه الجوفية وبين استخدام الانسان لهذه الدراسة لمتابعة زراعة الأرض بحسب مشيئة الله ، توجد علاقة وثيقة . فقد ساعدت الجغرافيا على جعل القنوات مطمورةً في أرض إيران لكي لا تمتص السماء الحارقة مياه الأرض ، وشلالات وجنات العرين المفردة ومجاري المياه العظيمة عند الأغالبة قرب القيروان . هي الآثار التي لا تزال حية لعمل زراعي أرض الله .

في القرن السادس عشر درس مهندس ايطالي جيرانيلوتوريانو الأعمال الهيدرليكية الاسلامية في طليطلة والتكنولوجيا العربية المعتمدة على ضغط الماء والهواء في بناء المناهل ورافعات الماء من أجل الري وفي بناء الطواحين والموسيقيين الآليين . هذه الاختراعات العربية كانت أساساً لاكتشافات توريشللي في ايطاليا في القرن السابع عشر بالنسبة لميزان الضغط الجوي . وقد تجاوز كتاب الجزاري « بحث في الآلات » الذي وُضع في القرن الثالث عشر الى حد بعيد كتاب « علم الحركة » لهيرون الاسكندراني (القرن الأول) و « الغازيات » لفيلون البيزنطي (القرن الثاني) .

يتضمن كتاب الجزاري هذا الجزء الهام من تصورات ليوناردو دافنشي الميكانيكية ولا بد أنه قد قرأه .

« التاريخ ومغزاه » : ابن خلدون .

ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦) وجه كبير من وجوه العلم العربي ومفكر

عربي ، عالم وفنان ورجل دولة وقانوني وفيلسوف في آن واحد . كتب في القرن الرابع عشر مؤلفاً ضخماً عن عظمة وانحطاط الحضارات من وجهة نظر التاريخ وعلم الاجتماع . فهو عندما يبحث في أساس السلطة أو أصل الأسر المالكة فإنه يقوم بذلك بتمكن لا يعادله كتاب « الأمير » لميكيافيللي الذي اتى بعده بقرن : وعندما يعرف المنهج التاريخي ليكون أساساً لتأريخ تفسيري وسببي فإنه يفعل ذلك بصفاء يعادل صفاء مونتسكيو مؤلف « روح الشرائع » و « عظمة وانحطاط الرومان » .

كتب ابن خلدون في عصر لم يكن فيه الغرب يعرف إلا مدوني اخبار يكتفون بوصف الأحداث. كتب في مقدمته : « حين أبدأ بذكر الأسباب العامة في دراسة الأحداث الخاصة «فسأتناول تاريخ الجنس البشري بالتفسير والتعليل» مرُجعاً الأحداث التاريخية بأسبابها وجذورها . . . فطريقنا في معالجة هذا الموضوع تشكل عالماً جديداً قائماً بذاته ابن خلدون -المقدمة- . فهو إذ يجمع بين ملاحظة الرجل السياسي الشخصية وبين التفكير النظري ، يشير الى تأثير المناخ والجغرافيا والظواهر الاقتصادية على حياة الشعوب . ويدرس بنية وعمل المجتمعات اعتماداً على تقسيم العمل مقدماً أول صياغة للمادية التاريخية .

إن ما نراه من اختلاف في العادات والافكار لدى مختلف الشعوب راجع الى طرائق المعاش التي تسلكها تلك الشعوب في حياتها » ولكن ما يميز ابن خلدون عن ميكيافيللي، أومونتسيكو أو حتى ما يميزه عن المفهوم الموضوعي للتاريخ الذي لا زال سائداً بشكل واسع في ايامنا ، هو تفكيره التركيبي الذي يبحث خلف واجهة الظواهر عن الحياة التي تعطيها معنى . منذ الصفحة الأولى لمقدمته « التاريخ العام » . يتابع كلامه موجهاً اللوم لاولئك الذين لا يرون فيه الا رواية واحداثاً مجردة : « اذا نظرنا الى التاريخ من الداخل فسرعان ما يكتسب معنى آخر» فإن الأمر يقوم بالنسبة له على « أن يشرح للقارىء كيف ولماذا كانت الأمور على ما هي عليه !! »

ولا ينطلق من وجهة النظر الغائية الساذجة أو الايمان بالعناية الإلّهية على

غرار بوسويه الذي اتى بعده بقرنين في كتابه « دراسة في التاريخ العام » ورغم انه يستند الى الآية الكريمة : ﴿ . . . وفوق كل ذي علم عليم ﴾ سورة يوسف آية ٧٦ . فإنه يقيم رابطاً آخر بين العلم والايمان . فالتاريخ لم يكتب بشكل مسبق قبلنا ومن غيرنا . فيمكن للانسان ان لا يستجيب للنداء ويكون مسؤ ولاً عن قدره . وحين يذكر الطاعون الأسود الذي اجتاح تونس عام ١٣٤٨ مودياً بحياة والده ووالدته.ذلك الطاعون الذي سبب تأخراً في الحضارة ، يكتب ابن خلدون بلغة رائعة : وكأنني بالمشرق قد نزل به مثلما نزل بالمغرب وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادرَ بالاجابة والله وارث الأرض ومن عليها .

لا يستند التاريخ في المنظور الاسلامي والعلمي عند ابن خلدون الى الإخفاق أو الاسباب والشروط او الدفعات الى الامام أو الماضي فقط، بل أيضاً الى المشاريع الانسانية والأهداف الجزئية والى الدعوات والقفزات ذات المنشأ الإلهي ، قفزات في الايمان تكون أحياناً متخاذلة وأحياناً أخرى تصل الى حد الشهادة أو الانتصار : هذا هو التاريخ بالتمام والكمال لأن هذا هو الإنسان .

- الإنسان - العالَم الأصغر - نظرية الطب وتطبيقاته .

من العبث ان نتطرق لإحدى أجمل زهرات العلم الاسلامي : الطب ، دون أن نؤكد الى اي حد تنبع خصائصه الجوهرية وطريقته في التعرض للمسائل من رؤيته الاسلامية للعالم . لا ترتكز الطريقة التجريبية - والتي لا تمت بصلة الى طريقة غاليان التصورية - على الملاحظة والتطبيق السريري في التعليم فقط وانما بشكل خاص على الاهتمام الدائم بالوحدة ، طبقاً لمبدأ التوحيد الاسلامي ، الذي يجد هنا تطبيقاً مباشراً عليه : وحدة الجسم الناتجة عن ترابط الأجزاء مع الكل ، وحدة الكائن الحي مع بيئته ومع مجموع التأثيرات الكونية ، وحدة الروح مع الجسد التي تبشر بالطب النفسي - الجسماني . وهكذا تحتل مفاهيم التوازن والتوافق الجوهرية في الاسلام ،

المكانة الاولى في نظرية الطب وتطبيقه .

هذه النظرية الطبية ، المرتبطة بما وراء الطبيعة وبعلم الكون وبالفلسفة في الاسلام ، والتي تعتبر الانسان عالماً أصغر يختصر في ذاته مجمل درجات الكائن ، ترتبط بشكل وثيق بالتطبيق العملي . فلا يتم تعليم الطب الا في المستشفى . وتؤكد هذه النظرية الطبية على الوقاية فالاجراءات الطقسية في الوضوء ونظافة الجسم والامتناع عن الكحول والصوم تقود مثلاً الى نشر كتاب عن الحمية الغذائية في الأندلس الاسلامية في القرن الثاني عشر « كتاب الحمية » لأبي مروان بن زهر .

منذ منتصف القرن الثامن اصبح الطب الاسلامي وريثاً للماضي كله . في نهاية القرن الثالث اجتمع في جنديسابور اطباء الهند وايران ومصر . وعند اغلاق مدرسة ايديسيا في بلاد ما بين النهرين جُعلت مركزاً للأطباء ، ووجد فيها آخر علماء وفلاسفة مدرسة اثينا ملاذهم عندما طردهم الامبراطور جوستينيان في عام ٥٢٩ . وأدخل اليها الطب الهندي في القرن السادس . وهكذا جمع الاسلام في جنديسابور والاسكندرية اهم مركزين للطب .

وكانت الكنيسة المسيحية قد سدت الطريق في وجه تطور الطب ففي عام ١٢١٥ ، في مجمع لاتران ، استصدر البابا انيوسان الثاني قرار التحريم : « كل طبيب يعالج مريضاً قبل أن يعترف هذا المريض ، يقع تحت طائلة الحرمان . لأن المرض ناتج عن الخطيئة » .

بسبب هذا الموقف لم تكن كلية الطب في باريس تمتلك طوال ستمئة سنة إلا كتاباً واحداً يلخص كل العلم الطبي في العالم منذ العصور الوسطى القديمة وحتى عام ٩٢٥ ، وكان هذا الكتاب من تأليف عالم مسلم : الرازي ، الذي ما زال تمثاله مع تمثال ابن سينا قائماً في المدرج الكبير في شارع « الأباء القديسين » . وان موسوعة الرازي الطبية الكبرى (٨٦٥ - ٩٢٥) هي الكتاب العلمي الوحيد الذي بقي مسيطراً عشرة قرون . وطُبع بحث الرازي عن الجدري والحصبة المكتوب في القرن العاشر اكثر من

أربعين مرة بين ١٤٩٨ و ١٨٦٦ . وحتى مجيء كلود برنارد . كُتب الرازي التي ترجمها (فاراجو) الى اللاتينية عام ١٢٧٩ بأمر من شارل الأول ، قادت خطى الطب عند كافة شعوب الغرب على مدى الف عام . وفاق تأثير ابن سينا ، المولود في بخارى عام ٩٨٠ والمتوفى في همذان عام ١٠٣٧ ، على تأثير الرازي ، وبقي كتابه القانون في الطب الذي ترجمه جيراردو كريمون (توفي عام ١١٨٧) ، الموسوعة الكبرى في الطب في عصر النهضة لوضوح تصنيفه للأمراض والدراسة المنهجية لأعراضها . وبقيت طرقه في تشخيص ذات الجنب والتهاب الرئة وتضخم الكبد والتهاب الصفاق متداولة خلال ثمانية قرون . ولقد كان ابن سينا كالرازي عبقرياً جامعاً : كان طبيباً وعالماً في الطبيعيات وفيلسوفاً وشاعراً وعالماً في الدين .

واننا مدينون لابن الهيثم المعروف في الغرب باسم الحسن المولود في بصرى عام ٩٦٥ ، والمتوفى في القاهرة عام ١٠٣٩ ، الرياضي الكبير والفلكي والمهندس ، بأبحاثه على البصريات التي دشنت العلم التجريبي . ولقد قام فضلاً عن ذلك كطبيب عيني بأول وصف تشريحي للعين .

ولم يتردد روجيه باكون[1] الذي تلقى علومه في جامعات اسبانيا الاسلامية في نسخ بصريات ابن الهيثم في الجزء الخامس من كتابه (الكتاب الكبير) المكرس لدراسة علم البصريات ، وهذا ما جعل منه رائد الطريقة التجريبية والعلم الحديث في الغرب . ان روجيه باكون يعترف بنفسه باقتباساته على الأقل في ميدان الفلسفة فقد كتب : « الفلسفة نابعة من الأرض العربية ولا يستطيع أي لاتيني أن يفهم الحكمة والفلسفة اذا لم يكن يعرف اللغات التي تُرجمت منها » .

روجيه باكون متيالوجيكوس ٤ ، ٦

في عام ١٠٠٠ ، في بغداد نجح طبيب عيني آخر ، الموصللي في شفاء مرض الساد (الماء الزرقاء) وهو (تكثف في عدسة العين يمنع

(١) راهب فرنسيسكاني انكليزي (١٢١٤ - ١٢٩٤) وهو من كبار العلماء في العصور الوسطى .

الإبصار) بطريقة الامتصاص بواسطة إبرة مجوفة وهذه العملية لم تنجح في الغرب الا في عام ١٨٤٦ قام بها الدكتور بلانشيه .

ابن النفيس[٢] (١٢١٠ - ١٢٨٨) الذي فسر أعمال ابن سينا بكتابه الذي سماه (شرح تشريح القانون) قد اكتشف الدورة الدموية الصغرى قبل هارفي باربعمائة سنة ، وقبل ميشيل سير فيه بثلاثمائة سنة ، وأحد تلامذته ابن القف المسيحي (١٢٣٣ - ١٢٨٦)

اكتشف الأوعية الشعرية التي لم يكتشفها مالبيجي بواسطة المجهر الا في عام ١٦٦٠ أي بعده بثلاثة قرون . وكان العرب يمارسون التلقيح ضد الجدري بواسطة شق يسمح بإدخال قليل من صديد بثرة خفيفة التقيح قبل . جينير بعشرة قرون .

ولقد درس الجراح الاندلسي أبو القاسم (توفي ١٠١٣) سل الفقرات (مرض بوت) قبل برسيفال بوت[١] (١٧١٣ - ١٧٨٨) بسبعة قرون وأجرى ربط الشرايين في حالة البتر قبل امبرواز باريه[٢] (١٥١٧ - ١٥٩٠) بستمئة سنة وبالاضافة لذلك زود أبو القاسم اطباء العيون والاسنان والجراحين بأدوات لإجراء العمليات .

أخيراً ، بما أن الجراحين العرب ما كانوا يفصلون بين ما هو جسماني وما هو نفسي فقد استخدموا التخدير بواسطة عصير الحشيش أو البيقة أو البنج في حين أن هذا التخدير الكامل ، بعد أن دخل الغربَ لفترة وجيزة تُرك ولم يُرجع اليه الا في عام ١٨٤٤ بإستنشاق الغاز . وعولجت عدة أمراض عقلية ووساوس بالتنويم بواسطة الأفيون . واستخدم العرب القهوة كمنشط للقلب .

---

(١) ابن النفيس على ابن الحزم القرشي أحد أطباء دمشق المشهورين كان اماماً في علم الطب . صنف كتاب الشامل في الطب . ولكتابه شرح تشريح« القانون » أهمية قصوى ، في وصفه للرئة وكان أعظم اكتشاف له اكتشاف الدورة الدموية الرئوية .

(٢) جراح انكليزي وُلد في لندن (١٧١٤ - ١٧٨٨) وقد اشتهر بدراسته الشهيرة حول سل الفقرات والذي حمل هذا المرض اسمه .

(٣) جراح فرنسي ١٥٠٩ - ١٥٩٠) وهو مشهور باكتشافه كيف تتم عملية ربط الشرايين .

ولقد كان تأثير العوامل النفسية على الجسم موضع اهتمام ابن سينا الذي كتب :

« علينا أن نعتبر أن أفضل العلاجات واكثرها فعالية يقوم على زيادة القوى العقلية والنفسية عند المريض وتشجيعه على المقاومة وخلق جو مريح حوله وإسماعه موسيقا عذبة وأن نفسح له المجال للقاء اشخاص يفضلهم ويحبهم »

كان علماء الطبيعة في العصر الوسيط يرتكزون على اعمال العرب ، أكان ذلك ريمون لول[٣] (١٢٣٥ - ١٣١٥) الأشبيلي الذي ذهب الى الشرق آملاً في تنصير المسلمين أو الألماني البير[٤] الكبير (١١٩٣ - ١٢٨٠) أو الانكليزي روجيه باكون[٥] (١٢١٤ - ١٢٩٤) . لقد شرح هؤلاء مؤلفات العلماء العرب في جامعة باريس التي بدأت بهذه الطريقة بالتحرر من التأملات التقليدية الجامدة .

لم نعدد هذه المظاهر التي أدتها المساهمة العربية الاسلامية في تطور العلوم والثقافة بشكل عام إلا لكي نبين ضرورة التغيير الجذري في النظرة التاريخية التي شوهتها بعمق المركزية العرقية الغربية التي أقامت حاجزاً بين الثقافات الاغريقية - الرومانية والثقافة التي كانت تسود في عصر النهضة .

- أوروبا والتراث العربي الاسلامي -

وهكذا إذا تخلينا عن اعتبار اوروبا على انها مركز للتاريخ كله ، واذا اعتبرنا أن التطور البشري ككل ، فيجب أن نعترف أنَه ليس هناك من القرن السابع وحتى القرن الرابع عشر أية فجوة سوداء بل ازدهار إحدى ألمع

---

(١) كاتب وكيماوي « تعامل بالكيماء القديمة ١٣١٥ ولد في كاتا لانك .

(٢) قديس دومنيكي لاهوتي وفيلسوف (١٢٠٠ - ١٢٨٠) وكان معلم الفيلسوف سان توماس داكان .

(٣) راهب فرانسكاني انكليزي (١٢١٤ - ١٢٩٤) أحد اكبر العلماء في العصور الوسطى وقد انشأ الغلم التجريبي .

الحضارات في التاريخ : الحضارة الاسلامية . « لم يرث عصر النهضة تعاليم الحضارة الاغريقية مباشرة بعد عصر مظلم يسمى أحياناً « عصر النهضة » : المسيحية ليست امتداداً للفكر الهيلليني وليس القديس توما خلفاً لأرسطو . ولم يدفع غاليليه في القرن السابع عشر تطور العلوم المتروك معلقاً بعد موت أرخميدس في القرن الثالث قبل الميلاد ؛ انعزال الغرب الساطع ليس الا خدعة »[١] هذه هي الأسطورة الأولى المعتمدة على مركزية أوروبا والتي يجب تبديدها كما يُطرد حلم كاذب . لقد أخصبت الحضارة العربية الماضي وهيأت المستقبل خلال الف عام ، وتحملت طوال هذه المدة مسؤولية هذه الثقافة التي نقلتها الى اوروبا عبر اسبانيا وصقلية .

لقد مارست الثقافة العربية الاسلامية تأثيرها على الغرب بواسطة ترجمة المؤلفات الاسلامية في طليطلة إلى اللاتينية على يد الأسقف ريمون (١١٢٦ - ١١٥١) بإيحاء من الفونس الرابع ملك قشتالة زوج ابنة خليفة قرطبة.ومن فريديريك الثاني دي هوهنشتان ملك صقلية الذي طلب من ميشيل سكوتوس ترجمة كتاب الحيوان لإبن سينا وكتاب « شروح ارسطو لإبن رشد » للعمل على ايصالها إلى جامعات الغرب ... فطَبَعَتْ هذه المؤلفات القادمة من اسبانيا ومن صقلية انعطاف نظرة الغرب الى العالم بطابعها الخاص .

وُلِدَ الغرب الحديث في اسبانيا تحت حكم الفونس السادس وفي صقلية تحت حكم فريدريك الثاني وكلاهما معجبان شغوفان بالثقافة الاسلامية ، فكانت الحضارة العربية الاسلامية قَابلَتَهُ أو أمه المُرضع .

- العلم والحكمة -

« لا يرى الفكر الفلسفي في الاسلام ... العالم متطوراً بإتجاه افقي مستقيم وانما بإتجاه تصاعدي : فالماضي ليس خلفنا وانما هو تحت اقدامنا »[٢]

(١) ايفاسيواولا غوي : « لم يغز العرب اسبانيا » منشورات فلاماريون باريس ١٩٦٩ .

(٢) هنري كوربن : « تاريخ الفلسفة الاسلامية » منشورات غاليمار باريس ١٩٦٤ .

وهكذا فإن العلم والتقنية الموجهين نحو غايات أسمى لا يستطيعان أن يصبحا غاية في حد ذاتهما كما في التقليد الغربي منذ عصر النهضة .

سُمي هذا المرض في الحضارة الغربية « الحداثة » . هذا المرض هو عكسٌ للعلاقة بين الوسائل والغايات . لقد اصبحت الوسائل في المنظور الغربي غاية . ولم يعد العلم والتقنية متلائمين مع البيئة ولا كانا في خدمة الانسان . بل على العكس اصبح الانسان ومحيطه خاضعين لتطور العلوم والتقنيات المستقلة والفتاكة. ونتيجة لعكس هذه العلاقة بين الوسائل والغايات ما زال نصف سكان العالم يناضلون فقط من أجل العيش . بعد الثورة الصناعية بقرنين ، تلك الثورة التي تنبأ لنا انبياؤ ها الكذبة بإزدهار غير محدود للإنسان . كما مات خمسون مليوناً من الكائنات البشرية في العالم الثالث من الجوع في عام ١٩٨٠ . وهل هناك ادانة اكثر وضوحاً لبرنامج التنمية في الغرب الذي لم يستطع بعلومه وتقنياته أن يحل أي مشكلة حيوية على وجه الكرة . فقد كتب البيولوجي الكبير جوزيف فيدهايم في عام ١٩٦٩ « لدينا اسباب كافية تدفعنا للاعتقاد بأن مشاكل العالم لن تحل طالما اننا ننظر اليها من وجهة نظر اوروبية محضة » .

الكمية ، السعي وراء القوة والنمو ، الفردية ، أشهرت إفلاسها . فلا يمكن لأي حضارة أن تبنى على هذه الأسس . فقد انتهى العلم والتقنية اللذان ولدا في هذه التربة الى نتائج متعارضة بشكل كامل مع مشاريع ووعود النهضة الغربية .

فما العلم والتقنية الا وسائل رائعة في خدمة الغايات الانسانية . فإذا فصلنا العلم ، الذي هو تنظيم للوسائل ، عن الحكمة التي هي تبصر في الغايات أصبح هداماً للإنسان .

لهذا السبب لم نؤكد على المظاهر التي لعب الاسلام فيها باكتشافاته دور السابق للعلم الغربي الحالي ولكن على مزاياه الخاصة في إخضاع الوسائل البشرية للغايات الالهية . وفي هذا المنظور فإن على القرن العشرين

وبعد حين القرن الحادي والعشرين أن يتعلما الكثير من الإسلام . ولا بد لنا هنا أن نكرر أن المسلمين بإيمانهم قدموا أكبر مساهمة في العلم العالمي ، وفي المقام الأول بتأكيدهم المطلق على التسامي . من ناحية العلوم ، هذا يعني أن العلم والتقنيات منظمة بحسب غايات اسمى من غايات النمو والقدرة ، غايات أسمى من غايات إنسان فردٍ أو مجتمع . وهذا يعني أن هناك استخداماً للعقل يختلف عن استخدامه الذي ينزل به من سبب الى سبب ومن سبب الى نتيجة . فإن هناك عقلاً يصعد به من غاية الى غاية ، من غايات دنيا الى غايات أسمى ، ودون أن يصل الى النهاية ، يصبو الى الوحدة الكاملة التي تضفي معنى على كافة الغايات .

يتساءل سيد حسين نصر في كتابه « العلوم الاسلامية » عن العلاقات بين العلم المسمى « علماً حديثاً » والعلم الاسلامي وعن عكس العلاقات بين العلم والحكمة :

« لو قُدر لعلماء المسلمين في القرون الوسطى أن يُبعثوا إلى الحياة فإن دهشتهم لن تكون من التقدم في الأفكار التي ولدت أصلاً في أحضانهم !! بل إن دهشتهم ستكون من أن نظام القيم قد قلب رأساً على عقب !! وسيرون أن مركز الرؤية أو بؤرتها التي انطلقوا منها قد صار هامشياً ، وأن محيط تلك الرؤية قد صار هو المركز وأن تلك العلوم الحديثة التي كانت في الدرجة الثانية من اهتمامات المسلمين قد تصدرت ساحة اهتمامهم الآن في الغرب . اما علم الحكمة الثابت ذلك العلم الأول فسوف يرون أنه تضاءل حتى كاد أن ينعدم !!!

الفصل الخامس

من الفلسفة إلى التصوف

﴿ والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقونَ ﴾
سورة النحل ـ آية ٢٠ ـ

لقد أصبحت المسألة الاساسية في الفلسفة الغربية : كيف تكون المعرفة ممكنة ؟ وأصبحت المسألة الاساسية في الفلسفة الاسلامية : كيف يكون التنبؤ ممكناً ؟ اذن : فلسفة نقدية أم فلسفة تنبؤية ؟

ان الشوط الذي قطعته الفلسفة الاسلامية بانطلاقاتها أو حتى في سقطاتها ونكساتها يمكن أن يساعدنا على أن نعي شروط التجديد . لقد بحثت الفلسفة الغربية منذ سقراط وحتى ديكارت ومنذ لوك وحتى كانط في كيفية حدوث المعرفة ، وبنت لنفسها بذلك عالماً غريباً يتمثل بشكل خاص في عالم « الوجود » ويلاحظ منصف تشيلّي : « ان استخدام فعل الكون يلخص الحيلة الغربية كلها » فكيف عزل الغرب نفسه بهذه الطريقة في البحث عن المعرفة ففصل بذلك جزءاً من البشرية عن الآخرين ؟ .

هل الفلسفة نقدية أم تنبؤية

نستطيع القول أن الغرب اتجه نحو مشكلة المعرفة ومن خلالها حكم

على نفسه بالفرقة والعزلة فمن اين له أن يسلب الانسان الذي هو متمم للبشرية في هذا الوجود . سيتم ذلك بالنظرة الى المسلمات أو إلى مفهوم سقراط الذي كان يرجع الحقيقة اليها . بينما عند افلاطون يسميه عالم المثل وهذه المثل التي لا تجسد العالم الخارجي المادي منها إلا خيال ينعكس على جدران ساكن كهف ساذج بسيط . بينما عند الغرب فهم يحيلون هذا الى الحواس بدءاً من لوكريس إلى هيوم حيث يلمح الى عالم خارجي ليس علمنا به ثم ادراكنا له إلا دليل انطباع واستجابة لما يتركه في اعماقنا من أثر .

قال شيلي : حتى نيلسون : حينما لا يرى في ظواهر الحواس الا لغة يكلمنا بها الله فإنه يدافع بذلك عما هو موجود .

اما الأختراع العجيب الذي اوجدته الفلسفات الغربية انما هو عالم النفس الذي يشاكله الوجود وهما لا يقلان عن بعضهما فقراً وهزالاً . (انا افكر إذن انا موجود) وهذا قول ديكارت لا يعبر الا عن انا ليست الا شيئاً يفكر . .) وبماذا يفكر ديكارت وكيف الوصول الى هذا التفكير . يقول بهذه الكمية التي يمكن تجزئتها أجزاء ثم أضف أي جزء منها بما شئت وبأي المقادير من الاشكال والمواقف والتحركات . (التأمل الخامس) . ومن هنا : أصدر حكمه بالابعاد والطرد على كل حياة حقيقية قوامها الجمال والمحبة والابداع الشعري والخيال الخلاق لمستقبل جديد نفى كل ذلك ووضعه في هيكل الرياضيات وشبح الثقافة العقلية الذي ليس له هدف إلا في الهيمنة على العالم والاستيلاء عليها .

لقد ولدّت الفلسفة الاسلامية الأمل من جديد ، إذ تخلصت من قوقعة الفلسفة الاغريقية لكنها أوشكت على الزوال بسبب شروح ابن رشد (١١٢٦ - ١١٩٨) لأريسطو . ولن تعرف الفلسفة الغربية والفلسفة العربية التي اصابتها عدواها البعث إلا بهذه الطريق . فلن تكون هناك فلسفة اذا لم تعد إلى ابعادها التنبؤية .

ثلاثة تحديات يوجهها الاسلام للفلسفة الغربية .

لقد أعادت ولادة الفلسفة الاسلامية طرح مشكلة مماثلة المشكلة التي تعرض لها الفكر المسيحي . فكما ان لغة الاغريق ، التي تعبر عن منظور ثقافة غربية تماماً عن تجربة الحب المعاش ، كانت عاجزة تمماً عن التعبير عن هذا الحب الذي يسكن قلب المسيحي بشخص يسوع الناصري ، كذلك لم يكن ممكناً التعبير بواسطة تراث الفلسفات السابقة عن وحي نبي الاسلام ورؤيته الجديدة للعالم بشكل جذري والشريعة التي انزلت عليه .

لقد قدم القرآن طريقة جديدة في رؤية الله والعالم ، كما قدم شريعة عمل لا تتفق مطلقاً مع الفلسفة الاغريقية . وطرح وحيه ثلاث مشكلات جديدة كلياً وفي المقام الأول رؤية للواقع بحد ذاته .

ما هو الواقعي بشكل مطلق ؟

لقد قدمت الفلسفة السابقة وبشكل خاص الفلسفة الاغريقية حلّين : المُدرك : كافكار افلاطون ؛ والمحسوس : كذرات ديموقريطين . وكان اريسطو قد وضع الخطوط الأولى لاجابة اصطفائية كانت تطعيماً أكثر مما كانت نتيجة (للفلسفتين السابقتين) ولقد اختار الفكر المسيحي الأفلاطونية لأنها كانت تحاصر الثنائية الاغريقية .

وأحدث القرآن وضعاً جديداً بشكل جذري فيما يتعلق بالعلاقات بين الواقعي وغير الواقعي ، بين الواحد والمتعدد ، بين الله والعالم . ويذكر ابن عربي الفكرة الاساسية في الوحي عبر ثلاثة من الخلفاء الراشدين : أبي بكر وعمر وعثمان وهم من صحابة النبي المقربين :

لم أر شيئاً قط إلا ورأيت الله قبله . أبو بكر
لم أر شيئاً قط إلا ورأيت الله في الوقت نفسه . عمر
لم أر شيئاً قط إلا ورأيت الله بعده . عثمان

أن ما ينتج من التجارب الثلاثة هو أننا لا نستطيع أن نرى أي شيء

في حقيقته إلا مرتبطاً بالله ولا نستطيع أن نرى الله إلا في كل شيء . هذه الوحدة الأساسية « التوحيد » التي ليست ضمن نطاق العمل وإنما طريقة العمل ليست ضمن نطاق الوجود أو الفكرة وإنما هي ضمن نطاق الفعل . وتشكل المرحلة الأولى من فعل الايمان الاسلامي « الشهادة » . فلا شيء إلّهي إلا الله وتطرح المشكلة الأساسية في الإسلام . أما المشكلة الثانية فلا يمكن فصلها عن الأولى .

ما هي قوانين ونظم العمل التي تنتج عن هذه الرؤية الاسلامية ؟

إن العمل ونظمه بالنسبة للمسلم هما التعبير الخارجي عن الايمان . فالايمان محله الداخل والنظم هي في الخارج ولا يمكن أن يكون هناك أي تعارض بين الواحد والآخر . بالايمان يستطيع الانسان أن يعود إلى الله . هذا الإيمان الذي يتمثل في التدرج الطبيعي من الحجر إلى النبات ومن النبات إلى الحيوان ، أو يتمثل في نوع من الصلاة التي تبرهن على وجود الله كصلاة ورقة عبّاد الشمس التي يقول عنها بروكلوس : « ذلك الدليل على الحب الذي يجعله في كل لحظة يتجه نحو الشمس ، يبين أن كل شيء يصلي حسب مرتبته في الطبيعة . لو أننا نستطيع أن نسمع صوت اللحن الذي توقّعه النباتات بحركتها لعرفنا أنه ترنيمة موجهة لمليكها »!! فكل كائن يعرف طريقة الصلاة والتسبيح الخاص به !!!.

﴿ الم تر ان الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون ﴾

سورة النور ـ الآية ـ ٤١ ـ

وكذلك تعبر زهرة اللوتس عن ألفتها مع الشمس وحبها لها . فانها قبل الفجر تكون مغلقة وتتفتح برفق مع بزوغ الشمس ، ويزداد تفتحها كلما صعدت الشمس نحو قبة السماء ثم تعود فتنثني وتنغلق بينما تغيب الشمس . فأي فرق بين طريقة البشر في تمجيد الخالق بتحريك الفم والشفتين وبين طريقة اللوتس التي تفتح وتطوي بتلاتها ؟ هذه هي شفاهها ، وهذه هي ترنيمتها الطبيعية .

يذكرنا القرآن بمكانة الانسان الفريدة في سلم الخليقة والعبادة : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين ان يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولاً ﴾

سورة الأحزاب ـ إية ٧٢ ـ

الانسان الذي قبل هذا الرباط الرهيب هل هو قادر بفلسفته أن يعبر عن اتفاق الحرية هذا ؟ .

ـ الله وظهوره التنبؤي في التاريخ .

كان ابن حزم القرطبي (٩٩٤ ـ ١٠٦٣) يقول ويرد بصدد الادعاءات الخاصة بالبراهين على وجود الخالق « لا نستطيع ان نبرهن على وجود الله بالكلام ولكننا نؤمن بالله لان هناك كلاماً لم يستطع الانسان أن يخلقه » . وهنا يكمن مفتاح كل تأمل في الله حتى ان الانسان عاجز عن خلق الأشياء التي يراها امامه في الطبيعة وحتى الأشياء التي بداخله . عندما يبرز في القصيدة ما لا يمكن أن يكون دمجاً جديداً للعناصر الموجودة سابقاً لا بالاستنتاج ولا بالتماثل عندما يظهر في العلوم أو التقنيات ما ليس إمتداداً أو تنسيقاً للماضي ، عندما تظهر في الحب تضحية متناقضة مع كافة غرائز ورغبات وامتلاكات وأنانيات الطبيعة والجنس البشري ، عندما يتفتح في التاريخ مشروع ليس نتيجة ولا محصلة الصراعات القديمة ولا حتميتها ولا استلابها ، حينئذٍ يستطيع الانسان أن يرى أن ظهور الله التنبؤي في التاريخ لا يعكس فقط ميله لأن يقصر الأعلى على الأدنى ولكن أيضاً يجذب نحوه ، كما لو كان المنبع الاساسي ، ظهور ما هو جديد كلياً في حياته الخاصة وفي التاريخ العام . وعلى هذا يصحح الامير عبد القادر في استاراته الصوفية في كتاب المراحل وبحسب روح القرآن صرخة منصور الحلاج :

« أنا الحقيقة ، خلصني الله من ذاتي الوهمية وقربني من ذاتي الحقيقية . . . ثم قيلت لي عبارة الحلاج، الفرق بيننا ان الحلاج لفظها بنفسه أما أنا فقد كان هناك من لفظها لي » .

ففي القرآن لا يكشف الله ذاته وانما فقط كلامه وشريعته . وإحدى أدق المشكلات المطروحة على الفلسفة الاسلامية هي بالضبط مشكلة علاقات المطلق والأبدي مع النسبي والتاريخ بشكل خاص ، هل القرآن هو كلام الله غير مخلوق ، المهيمن فوق العصور أم هو لقاء في تاريخ الانسان مع رفيقه الأبدي في بداية أعظم مغامرة في الملحمة الانسانية ؟ هذه هي التساؤلات الاساسية الثلاثة ، تحديات الاسلام الثلاثة للفلسفة في القرن السابع من حقبتنا .

الفلسفة الاغريقية ووحي القرآن :

الكندي :

كانت الاسكندرية هي المركز الفلسفي في العالم القديم . وقد طُرحت مشكلة المواجهة الاساسية بين وحي القرآن والفلسفة عندما مثّل عمرو ابن العاص ، لدى دخول الاسكندرية ، السيطرة الاسلامية على بؤرة الثقافة القديمة حيث تجابهت وتخاصبت حكمة مصر والرافدين وايران والهند واليونان . هناك ولدت تركيبات « فيلون » اليهودي واوريجين (١٨٥ - ٢٥٤م) وكليمان الاسكندراني (حوالي ٢٢٠م) بالنسبة للمسيحيين ، ومن شارحي أريسطو ثم بلوتين (٢٠٥ - ٢٧٠) وبروكلوس (٤١٢ - ٤٨٥)

كان القرن الذي تلا انتشار الاسلام في الاسكندرية قرن الترجمات العظيمة التي أنجزت في بغداد بتشجيع من المنصور (٧٥٤ - ٧٧٥) وهارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩) والمأمون (٨١٤ - ٨٣٣) . وهي فترة من الترجمة والتمثل كان يشرف عليها كما رأينا حنين ابن اسحق . في هذه الفترة كان الكندي[1] أول فيلسوف عربي واجه مهمة تحديد علاقات الانسان مع الله

(١) الكندي ابو يوسف يعقوب بن اسحاق نسبة الى كندة باليمن . فيلسوف العرب واول من فلسف منهم تأثر بفلسفة اريسطو درس علوم الدين واللغة والأدب شارك المعتزلة في بحوثهم المتعلقة بالعدل والتوحيد وله ذكر في اخبار الحكماء فقد ذكره ابن ابي اصيبعة في طبقات الأطباء الم بعلوم الرياضيات والحكمة والطبيعيات والجغرافيا والموسيقى اول من حاول التوفيق بين =

والتقريب بين الفلسفة الاغريقية ورؤية الاسلام للعالم (٧٩٦ - ٨٧٣) . وبما أنه كان معاصراً لفترة الترجمة العظيمة فقد عرف وباللغة العربية ميتافيزيقية (ما وراء الطبيعة) أرسطو وكذلك ما يسمى بلاهوت أرسطو الذي لم يكن له أية علاقة حقيقية بإرسطو وانما هو عمل يعود الى الصوفية الافلاطونية الجديدة وقد أُلّف بالاعتماد على كتاب « التاسوعات » لافلوطين

لم يكن في أي من الاسهامات الخارجية شيء يسمح له بالاجابة على القضايا الاسلامية الاساسية . الخاصة التي طرحتها الفلسفة التنبوئية والتي تشكل أصالة الفلسفة الاسلامية . لا شيء عن العلاقة بين ما هو واقعي وما هو غير واقعي التي تحولت عند الاغريق الى علاقة بين المحسوس والمدرك عندما انتقلوا من ثنائية افلاطون الى تركيب أرسطو ؛ لا شيء عن العلاقة بين الكلام البشري والكلام الإلهي ؛ لا شيء عن العمل الذي تتطلبه الشريعة الإلهية . وهذه القضايا لم يطرحها الاغريق بسبب تصورهم الصبياني للآلهة التي هي انعكاس مضخم للانسان وكذلك لم يكن هناك شيء عن النبوة وعن وجودها في الانسان .

لقد اصطدم الكندي في بادىء الأمر بقضية الأصول والخلق الالهي التي لا يمكن أن يفكر بها فيلسوف اغريقي غارق في التأمل في الجوهر والوجود الضروري ؛ انه يعرف من تعاليم القرآن ان الله ليس الوجود وانما هو الذي يقوم بالتكوين لذا فانه يطرح جانباً النظريات الافلاطونية الجديدة القائلة بـ « الفيض الواجب الوجود » كما يطرح جانباً ميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) أريسطو التي تفسر الخلق على انه اعطاء شكل لمادة سابقة الوجود .

لم يكن الكندي يستطيع دون أن يتخلى عن فكرة التعالي الاسلامي المتشدد أن يتبع مفهوم تأنيس العلاقات بين الانسان والله ، هذا المفهوم الذي

= الفلسفة والدين وعنده ان النفس جوهر بسيط من جوهر الله ، ولد الكندي (٨٠١ - توفي ٨٦٥)]

« الموسوعة العربية الميسرة »

بدأ من سقراط ثم افلاطون وأريسطو وافلوطين[١] واذ لم يستطع تبرير إقحام الفلسفة الاغريقية في الثقافة الاسلامية فانه وضعهما جنباً الى جنب واتبع في منطقه أريسطو بشكل أعمى ولكنه ظل متمسكاً بمفهومه الاسلامي عن الخلق .

الفارابي بين جدلية الإغريق وتنبؤية الاسلام .

حاول الفارابي أن يحقق تركيباً يتجاوز الاصطفائية مخصصاً نصيباً كبيراً للإغريق وبخاصة لأريسطو ، ذلك الفيلسوف الذي نسب اليه زوراً كتاب « اللاهوت » بينما هو في الحقيقة من تأليف أفلوطين ، فجاء متفقاً مع افكار أفلاطون . فالاثنان ، باعتقاد الفارابي ، قد استقيا فلسفتهما الأولى من بلاد الكلدان ومصر وبهذا يكون قد عاد الى المنابع الاساسية . وهذا الاهتمام الكبير يوجّه مؤلفاته الرئيسية التي تعبر عناوينها عن هذه النية : التوفيق بين فلسفتي الحكيمين افلاطون وأريسطو . ثم كتاب تحليل ميتافيزيقا أريسطو وآخر حول محاورات أفلاطون .

هذه النبؤة وهذا الاحترام تجاه الفلسفة الاغريقية قادتاه الى التفكير الميتافيزيقي بالجوهر والوجود اللذين لم يعد يرى فيهما مجرد تمايزات منطقية وانما تدرجاً في الوجود . ومنذ ذلك الحين ترك فلسفة العمل الغنية النابعة من وحي القرآن ، حيث ﴿ يخلق الله ما يشاء ويختار ﴾ وسقط في فلسفة الوجود التي جمدت حكمة الاغريق كلها من بارمينيد حتى أريسطو .

وهكذا اصبح من العسير على الفارابي أن يفسر النبؤة حتى بتأكيده على أن هناك عقلاً فعالاً يعطي لكل شيء شكله كما تمنح الشمس الرؤية للعين البشرية التي تتلقى ضياءها أو كما تشع فكرة الخير عند افلاطون على عالم الأفكار كله . رغم محاولات الفارابي الصغيرة لتصحيح العقلانية

(١) أفلوطين : (٢٠٥ - ٢٧٠م) مؤسس الأفلوطونية الجديدة ولد بأسيوط تأثرت فلسفته بالأفلاطونية لكنها تميزت عنها بنظرية الفيض، وقد شرح فلسفته ونشر كتابه (التاسوعات) تلميذه فورفوريوس .

الاغريقية فانه يبقى بعيداً جداً عن التنبؤية التي لا يمكن أن يعبر عنها في لغة ومقولات الاغريق كما لا يمكن التعبير بها عن تجربة الحب المسيحية لأن الفلسفة الاغريقية هي فلسفة تخفيضية من حيث الأصل اذ انها تخفض الفعل الى مكانة الوجود وتخفض الاثنين الى مرتبة المفهوم ، من هذه الناحية تشكل اعمال الفارابي تراجعاً إذا ما قيست باعمال الكندي فانها تضحي أكثر بالتنبؤية لصالح العقلانية الهلنستية . فلم تعد كما كانت عند الكندي مجرد تماش بين الفلسفتين بل أصبحت محاولة للتوفيق حيث تتغلغل الفلسفة الاغريقية في الاسلام أكثر فأكثر وتشوهه .

وأشد ما يكون هذا الأمر وضوحاً في سياسة الفارابي أكان ذلك في شروحه لقوانين أفلاطون أم في مقالاته العديدة عن المدينة الفاضلة. هذه السياسة مستقاة من جمهورية أفلاطون إلا انها تخالفها في نقطتين جوهريتين وذلك من أجل التوفيق بينها وبين رؤية العالم الاسلامي . اولاً انها لا تقتصر على مفهوم الاغريق المغلق للمدينة وانما تمتد - كما هي الحال في مفهوم الأمة في الاسلام - الى البشرية جمعاء . ثم انها لا تخضع لفيلسوف أصبح ملكاً أو ملكٍ أصبح فيلسوفاً وانما لنبي مشرع . ولكن هذا الانتقال من الحكيم الافلاطوني الى الامام المسلم لا يتم دون أضرار ويترك كافة المشاكل دون حل . فعلى أي شكل من اشكال المعرفة ترتكز سلطة الإمام ؟ هل ترتكز على جدلية افلاطون أم على منطق أريسطو أم على وحي القرآن وعلى الشريعة واستبطانها من خلال اشراقات الصوفيين . وبعبارة واحدة ان ما ينقص تركيب الفارابي هي نظرية المعرفة التنبؤية بينما هو لا يفتأ يتأرجح بين جدلية الأغريق وتنبؤية الاسلام .

ابن سينا :

متطلبات الفلسفة التنبؤية والتنازلات للفلسفة الاغريقية .

مع ابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧) ، المفكر الجامع لكل العلوم تقريباً بالاضافة للشعر والموسيقى نكتشف في آن واحد ، وبشكل متناقض من حيث

الظاهر ، وعياً كبيراً للمتطلبات التي تتميز بها الفلسفة التنبؤية الاسلامية وتنازلات للفلسفة الاغريقية تفوق تنازلات الفارابي .

واننا لنجد تعبيراً ملفتاً للنظر عن هذا التناقض في « كتاب العلوم » لابن سينا . فإنه في هذين المجلدين المخصصين لدراسة المنطق والطبيعة والميتافيزيقا والرياضيات والفلك والموسيقى يكرس بضعة أسطر فقط ، أولاً لنظرية الفيض النابعة من الافلاطونية الجديدة ثم لنظرية اللاهوت التي نسبت زوراً لأريسطو والتي تتناقض بشكل واضح مع مفهوم القرآن للخلق . ويقول في فصل غريب العنوان : « كرم الوجود الضروري » :

« يقوم الكرم على كون الطيبة تنتج من شيء بفعل ارادة (هذا الشيء) دون أن تكون له أية نية . وهذا اذن هو فعل الوجود الضروري . اذن فعله هو الكرم المطلق » .

وفي فصل آخر من الكتاب ذاته عنوانه « حالة الروح الطاهرة عند الانبياء » يقدم لنا ابن سينا هذا التعريف :

« ان الروح الطاهرة هي روح الانبياء العظام العاقلة التي تعرف المدركات دون استاذ أو كتاب بالحدس العقلاني وباتحادها مع عالم الملائكة والتي ترتفع في الرؤية وفي اليقظة الى عالم الغيب الخفي فتتلقى الهامها ... من الوحي هذا الوحي يقوم بالصلة بين الملائك ، والنفس البشرية ... انه يؤثر على مادة الكون بغية اجتراح المعجزات ... انه اسمى درجات الانسانية ... وهكذا يمكن لكائن ما أن يكون نائب الله على الأرض ويكون وجوده متفقاً مع العقل وضرورياً لاستمرار الجنس البشري ، وهذا أمر مبرهن عليه . وهكذا نكون قد تكلمنا كفاية عن الطبيعة » .

ويتابع ابن سينا كلامه في فصل مخصص للهندسة .

من المدهش أن امرءاً كالفارابي كتب بحثاً في الصلاة وتفسيراً للقرآن يستطيع أن يُدرج في مقال تغلب عليه روح أريسطو بضعة أسطر عن نظرية الفيض وكرم الوجود الضروري وبضعة أسطر أخرى عن النبؤة في حين أن كل

كتاباته ترفض فكرة حدوث الممكن وبالتالي الخلق الدائم لممكنات غير موجودة سابقاً والذي هو في صلب الوحي القرآني وتجل من تجليات غناه وخصبه .

ليست الفلسفة التنبؤية عند ابن سينا اذن الا في شكلها الجنيني فانه لم يستطع أن يتخلص من قبضة الفلسفة الاغريقية الخانقة إلا في هذه الملاحظات القليلة حول لاهوت أريسطو المزعوم حيث يتأمل اطروحة ما بعد الموت وفي حكاياته الصوفية حيث يذكرها بشكل شاعري وبرموز تعود الى عالم الغيب .

الغزالي : الهللنستية والصوفية

وهكذا شرع ابن سينا في فلسفة تنبؤية حقيقية. ولكن فيلسوفين هاجماه من زاويتين مختلفتين وقد منح الغرب هذين الفيلسوفين مكانة مبالغاً فيها لأنه رأى في اولهما : الغزالي (١٠٥٨ - ١١١١) سابقاً للشك الديكارتي ولفلسفة كانط النقدية ؛ ولأن الثاني ، ابن رشد ١١٢٦ - ١١٩٨) لعب دوراً هاماً في نقاشات القرن الثالث عشر اللاهوتية وسبب ردود فعل عند القديس توما الأكويني . ولكن هوس الغربيين بالحكم على الناس والأحداث من زاوية الأهمية وليس من حيث ما يفيد مسيرة الثقافة العالمية العامة لا ينبغي أن يقودنا الى تقدير مفرط لمثل هذه الأعمال التي يتحلى بها هؤلاء النفعية .

الغزالي :(١)

عاصر الحملة الصليبية الأولى (كان يناهز الأربعين عند الاستيلاء على

(١) الغزالي : (١٠٥٩ - ١١١١) أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي فقيه ومتكلم وفيلسوف وصوفي ومصلح ديني اجتماعي وصاحب رسالة روحية كان لها أثرها في الحياة الاسلامية . ولد بطوس . ودرس علوم الفقهاء وعلم الكلام على امام الحرمين ، وعلوم الفلاسفة وخاصة الفارابي وابن سينا واشتغل بالتدريس وارتحل الى بلاد كثيرة . آثر علوم الصوفية وانقطع الى العبادة والذكر واخيراً انتهى إلى أنَّ طريق الصوفية بما فيها من علم وعمل هو الموصل الى المعرفة اليقينية والسعادة الحقيقية بعد ما تبين له أن العلوم الدينوية التي درسها لم تكن =

انطاكية واحدى وأربعين عند الاستيلاء على القدس) وكان اقرب ما يكون بالفيلسوف الرسمي في بغداد بدأ حياته العملية كمن سبقه ، يحاول ان يعبر عن ايمانه الاسلامي في لغة وتعابير الفلسفة الاغريقية . واعترضته فترة شك حتى انه قرر أن يتخلى عن تعاليمه وأن يبحث ، عن طريق التدرب الصوفي عن معرفة مباشرة . معرفة القلب ، فقد كتب : « لقد كانت المدرسية غير كافية بالنسبة لي » . ويهاجم الاغريق بعنف وبخاصة سقراط وافلاطون : « يجب اعتبارهم جميعاً زنادقة بما فيهم أتباعهم المسلمون كابن سينا والفارابي فهذان الاثنان ساهما أكثر من أي كان في نشر آراء أرسطو » . ويهاجم بعد ذلك كافة فروع العلم من المنطق وحتى علم الحياة ومن الرياضيات وحتى اللاهوت ، ويرفض ثنائيتها التي تفصل الروح عن الجسد كما يرفض نظرية المعرفة التي لا تعطي الخاص والمحسوس حق قيمتهما ويرفض كذلك فكرة الكون الأزلي التي تنفي الخلق ولذا فقد اختار طريق الصوفيين ناشداً الحدس العقلي أي العلم التجميعي والمباشر ، النابع من القلب .

بعد ذلك قرر أن يعود الى التعليم لينقل ايمانه بالنبوة الذي جددته التجربة العملية الحية المبنية على فكرة أن لا حول ولا قوة إلا بالله ، ويلخص في نهاية حياته لأحد تلامذته ما هي أعمق درجات الايمان على النحو التالي :

« رأيت كافة الناس من حولي يعتمدون على أشياء مخلوقة فمنهم من يعتمد على الدراهم ومنهم من يعتمد على المقتنيات والأملاك والبعض الآخر

= كافية ، احيا علوم الدين احياءً يقوم على الكتاب والسنة ودافع عن تعاليم الاسلام بحرارة وايمان فلقب بحجة الاسلام وزين الدين وعالم العلماء ووارث الانبياء . له مصنفات كثيرة منها احياء علوم الدين. تهافت الفلاسفة ، إلجام العوام عن علم الكلام . وله المنقذ من الضلال ويرى الغزالي الفيلسوف ان الله سبب لوجود العالم وانه يخلقه بإرادته وقدرته . واخيراً فان الغزالي على الرغم من نزعته الدينية والصوفية قد اعترف بأنه لا نظام للدين إلا بانتظام الدنيا وإن أشرف الصفات بعد النبوة افادة العلم وتهذيب النفوس وارشاد الناس الى الاخلاق الحميدة كما قال ان العلم فضيلة في ذاته وعلى الاطلاق من غير إضافة .

على المهنة والصناعة وأخيراً منهم من يعتمد على انسان آخر فتأملت حينئذٍ كلام الله : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً ﴾ . سورة الطلاق آية ٢ ـ ٣ .

ويضيف « علينا أن نحاول ارضاء الارادة الالهية اكثر مما نرضي ارادتنا الخاصة وهذا تذكير اساسي بمقتضيات التوحيد في مجالي المعرفة والعمل .

ابن رشد : الاختناق المدرسي .

بعد هذا الحديث عن نضال اللاهوتيين والصوفيين ضد تأثير الفلاسفة الهللنستيين ، يمثل ابن رشد (١١٢٦ ـ ١١٩٦) رد الفعل الاغريقي المتطرف . ويظل معتبراً في الغرب كاكبر مفسر لأريسطو . انه يلاحق بنقده ، كل ما يتصل بنظرية الخلق عند ابن سينا لأنه بالنسبة للاغريق ليس هناك سبب مبدع ، كما يقول اريسطو ، ويعمل كل ما في وسعه لتفنيد أفكار الغزالي .

ويحب رينان في كتابه « ابن رشد وفلسفته » أن يستشهد بعبارته : « ايها الناس ، انني لا أقول بأن هذا العلم الذي تسمونه علماً الهياً هو علم خاطىء ولكنني أقول انني عالم بعلم انساني » . وكان يبغي بهذا أن يجعل منه سلفاً وأباً للمفكرين الاحرار . في مفهوم الغرب المفكك كانت هناك رغبة في جعل أعمال ابن رشد قمة الفلسفة الاسلامية واضمحلالها في أن واحد .

ولكن عند موت ابن رشد لم تكن الفلسفة الاسلامية قد تحررت بعد من الفلسفة الاغريقية بل على العكس كان قد اعادها اليها ، وان ما مات ، مع ابن رشد ، هو البحث عن البعد الاستعلائي التنبؤي في الفلسفة . بعدها تم الفصل بين الفلسفة والحياة الشاملة ، حياة الفكر ، التي كان يصبو اليها الصوفيون . وقد نقل أيضاً هذا البتر المزدوج الى الفلسفة الغربية التي استغرقت ستة قرون لتموت من جراء تركها لبُعد الحياة التنبؤي . هذا النزع الأخير بدأ في ما سمي ، دون مبرر ، عصر النهضة . مع انه من الاولى ان يسمى عصر الانحطاط .

المعرفة المغيرّة :
الفلسفة التنبؤية عند السهروردي[1]

في حين عرفت الفلسفة انطلاقتها مع ابن عربي (١١٦٥ - ١٢٤١) فان حضور هذا الرجل الذي كان يناهز الثالثة والأربعين جنازة ابن رشد في عام ١١٩٨ لهو أمر ذو مغزى كبير فمع ابن عربي فقط بدأت الفلسفة التنبؤية في الاندلس كما حدث في الطرف الآخر من العالم الاسلامي ، في بلاد فارس ، مع السهروردي (١١٥٥ - ١١٩١) وأهم ما يتصف به السهروردي أنه قبل كل شيء مخالف لأريسطو وقد كتب في كتابه فلسفة الإشراق .

« ان من لا يصبو إلا الى المعرفة الفلسفية لا غير. فما عليه إلا أن ينضم الى مدرسة تلامذة أريسطو . . . اما من جهتنا فليس لدينا أي شيء نقوله له ولا نجادله به فيما يتعلق بالأفكار الاساسية للفلسفة الالهية الإشراقية » .

الهدف الذي كان السهروردي يسعى اليه في كل مؤلفاته مناقضاً أريسطو واتباعه هو عدم الفصل بين الحكمة وتجربة الصوفيين : تجربة وجود وولادة الكائن المعاشة وليس فقط المدركة بالفكر . فالفلسفة التنبؤية الإشراقية كما يقول السهروردي لا تفصل المعرفة النظرية على أنها حركة مستقلة عن مجمل الحياة . كل معرفة حقيقية هي هداية دائمة وتحول داخلي في الانسان المجهود الذي بذله السهروردي لتخليص الفلسفة التنبؤية أي الفلسفة الاسلامية الحقيقية من فلسفة أريسطو واليونانيين التي كانت مدفونة تحتها ، ليس بعثاً للافلاطونية لأن طريق المعرفة التي هي طريق الاشراق ليست أبداً معرفة المدرك بالعقل كما كانت تتصورها العقلانية الاغريقية حتى عند افلاطون وانما هي معرفة تصورية . وللسبب ذاته ليست كذلك بعثاً ولا حتى

(١) السهروردي المقتول ابو الفتوح يحيى بن حبش ولد بسهرورد جمع بين الفلسفة العقلية واذواق التصوف القلبية وقد عاش في زمن صلاح الدين الأيوبي وقتل في زمانه وانتهى إلى تأسيس الحكمة الاشراقية التي يسميها (علم الانوار) وحصل عليها من الفكر والذوق ، له مصنفات كثيرة منها التلويحات اللوحية والعرشية والمقاومات ، والمشارع والمطارحات وهياكل النور وأول مصنفاته التي تبين مذهبه كتابه حكمة الاشراق . ولد (١١٥٣) وقتل (١١٩١) .

محاولة لجمع حكمة الفرس القديمة بشكل تركيبي ، اذ أن ابن عربي (الذي لم تكن لديه النية مطلقاً لبعث هذه الحكمة فهي لم تكن تشكل جزءاً من تراثه الروحاني) قد طور فلسفة التخيل المبدع نفسها ضمن مفهوم فلسفة التنبؤ ذاتها .

ان ما يدعوه السهروروي « الفلسفة الإشراقية » ، مستخدماً تعبير ابن سينا نفسه وبخاصة مشروع الفلسفة الشرقية الذي لم يستطع ابن سينا تحقيقه بشكل كامل ليس له معنى جغرافي . فكلمة « شرقية » ذات معنى اشتقاقي ورمزي : حيث تشرق الشمس . انها فلسفة مبنية على الاشراق كالصوفية أي على معرفة مباشرة (وليست تفكّرية ولا جدلية) وتجميعية (وليست نظرية ولا تحليلية) انها اذن « فلسفة النور » وهي كذلك « معرفة الصباح » معرفة النور لحظة ولادته . هذه المعرفة ليست انعكاساً جامداً لوجود خارجي وانما اشتراك في عملية الخلق المستمر وفي الانبثاق الحر للتجدد الدائم . فلسفة عمل لا فلسفة وجود .

بالنسبة للسهروردي ، كما بالنسبة لابن عربي ، هذا الشكل من اشكال المعرفة التصورية التنبؤية له قوة التجلي ، كما ان العمل بحسب التعليم القرآني هو التعبير الخارجي عن الايمان . بالنسبة لفيلسوف النور اعلى درجة من درجات المعرفة أي الاشراق تتطلب تكريساً للحياة كلها لجعل هذه « الزيارة » ممكنة ، وتفرض كنتيجة لها تجديداً للذات في كل فكرة من افكارها وكل عمل من اعمالها .

لا ينسى فيلسوف النور أبداً أن غاية حكمته هي أن تقوده الى مكان آخر وأن ليس هناك دافع أقوى من الحب لفعل ذلك ، الحب الذي يعتبره السهروردي ، كما يعتبره روزبيهان الشيرازي ، بشرياً والهياً في آن معاً .

« ليس هناك إلا حب وحيد ، وعلينا ان نتعلم قواعد الحب الالهي في كتاب الحب البشري »

روز بيهان الشيرازي

توجد اذن طريقة لقراءة رموز الجمال والحب بشكل تنبؤي بالنسبة لمن يعرف ان يقرأ في ذاته وخارجها رموز الله بحسب تعاليم القرآن . وبالنسبة لمن عرف بحياته وبافكاره - التي هي عبارة عن مكافأة على الحياة - ان العلاقة بين الله والانسان ليست علاقة سيدٍ بعبد وانما علاقة حب يكون فيها الله ، كما كتب روز بيهان ، هو « المحبوب والمحب والحب » في آن واحد : الله الذي يحب ذاته فيّ ، ويفكر ويعمل ويخلق فيّ ، الله نفسه يقول : « ها قد أصبحت وفياً في الحب ، محبوباً ، صديقاً ، كائناً مرغوباً ، انساناً حراً . . . كائناً جميلاً ، موحِّداً ، حقيقياً ، اذن كن مبدعاً باستماعك لي ، تكلم بصوتي ومر بأمري ، واحبب بحبي »

خلال الانتقال من الحب البشري الى الحب الالهي ليس هناك تغيير في الموضوع الذي نوجه اليه حبنا وانما الذات نفسها هي التي تتغير . لاننا دائماً نصبح مشابهين نوعاً ما لما يتطلبه منا الحبيب . واذا كان هناك انثى خالقة ، حسب تعبير ابن عربي ، فان هذا التدرج يصل إلى غايته عن طريق الحب الالهي (لأن الجمال هو التبشير التنبؤي) هذه النظرة الى الحب يشير اليها السهروردي برموزه الشعرية في الدعوة للهروب مع الحبيب من خلال قصة يوسف وزليخة في التوراة .

رسالة ابن عربي التنبؤية :

تصل هذه الفلسفة الى أوجها مع ابن عربي (١١٦٥ - ١٢٤٠) الصوفي الاندلسي الذي ولد في مارسيه Murcie في بلاد الأندلس وتوفي في دمشق . قدّم الشيخ الاكبر ابن عربي أفضل تعبير عن المبدأ الاساسي في الاسلام : التوحيد تلك الرؤية الشاملة عند النبي الذي يلمح في كل شيء رمزاً لله ، في الطبيعة ، في القرآن في التاريخ أو في أعمق اعماق الانسان ، والذي يتصرف بحسب هذه الرؤية . الفكر والعمل الموحد والمجمعٌ ، هذا ما قدمه الاسلام للتراث الابراهيمي ويؤكد ابن عربي ذلك في شهادته :

« العمل هو المظهر الخارجي للايمان ، انه يكشفه ويظهره ، الإيمان هو

المظهر الداخلي للعلم ، والعمل يُزكيه ويؤججه »

« انني أفهم العمل التنبؤي على أنه سَنٌ ومنهج لشريعة مقدسة »

هذه النظرة المجمعة وهذا الحدس الحي ليسا نوعاً من الاحتكاك مع واقع محسوس مدرك ولا انعكاساً لعالم مفهوم متصور انهما فعل التخيل التنبؤي لا نزوة خيال ذاتي ؛ انهما معرفة القلب التي تكشف لنا هذا العالم بشكل يخالف ما يكشفه لنا المحسوس أو المدرك .

هذا الخيال التنبؤي في الانسان له ما يوازيه في العالم ، انه ليس إلا مهمة استقبال لواقع هو الأعمق ، حقيقة أعمال الله الخلاقة في الرموز التي يظهرها عبر أحداث التاريخ وتقلبات والهامات القلب والروح ، تفتح بذور الطبيعة أو الفنون . لا شك ان الله قد خلق الكون بتخيله له - انني استخدم هذه العبارة بالقياس مع الابداع الشعري - وليس التخيل فينا إلا صورته البعيدة كما ان الحب البشري ليس إلا الصورة البعيدة لمحبة الخالق ؛ بعيدة وانما مبشرة ، تنبؤية لأن الحب هو بهذا المجال أيضاً القياس الأقرب .

« ليس بمقدورنا مطلقاً أن نتأمل الله مباشرة دون سند (حسيّ أو روحي) لأن الله في ذاته مستقل عن العوالم . . . وتأمل الله في النساء هو الأعمق والأكمل : والاتحاد الأقوى (في مجال المحسوس الذي يلعب دور السند في هذا التأمل) هو الزواج » .[1]

ابن عربي

(١) يرمز ابن عربي إلى صورة الحب بين العبد وربه مقرباً إلى الاذهان صورة الحب بين الله وبين العبد بأقرب صورة محسوسة واقعية ، الحب بين الرجل والمرأة ، وهذا الحب الذي يبلغ شدته في الزواج بتعلق كل منهما بالآخر .

فلا يقصد ابن عربي بهذا الرمز الذي اطلقه الا توضيح المفهوم ، مفهوم الحب بين العبد والله ، ولا تبقى هذه العلاقة إلا رمزاً . وكما يبين الغزالي أيضاً في الشعور الذي يحصل في قرب العبد من ربه بحبه وطاعته هذا الشعور وهذه الحالة وهذه اللذة التي يصل إليها العبد مع ربه لا يمكن وصفها وتعريفها بأشياء محسوسة ، كما لا يمكن وصف الشعور لعلاقة الرجل مع زوجته والوصال بينهما لانسان لم يبلغ مبلغ الرجال .

ولكن الرمز التنبؤي للجمال والحب يبقى غير كافٍ كرمز للوجود الالهي ويوجد في كل فرد وبشكل يتجاوزه ما يسميه ابن عربي « نبي كيانك » يدعوه لأن يكون كما هو ، أي ما يكون المرء عليه دون أن يتجرأ أو يستطيع أن يكونه وهذا ما يسميه ابن عربي ، على غرار ابن سينا والسهروردي ، ملاكاً ، كياننا كله يُشد في الصلاة نحو الخالق ؛ صلاة ليست طلباً ، مثلها في ذلك كمثل صلاة زهرة اللوتس أو عباد الشمس ، وانما هي طريقة وجود ، طريقة لربط الانسان بالله بحيث لا تكون صلاة الانسان لله إلا صلاة الله في قلب الانسان : « لا يستطيع أي كائن أن يحب بشكل حقيقي إلا خالقه » هذا ما كتبه ابن عربي في إلهاماته . هذا الحب خلاق لأنه يبعث في الكائن الأرضي المحبوب كل الامكانات المحتملة ، كل ما لم يكن موجوداً فيه قبل الحب كل ما يجعل منه ظهوراً لله ، ويولّد فيه الملاك . ملاكنا هي فرديتنا الأبدية كما تولد من وحي ما هو الهي حين يكشف نفسه لنفسه . لا يكتشف العاشق في الحبيب كيانه الخفي وحسب ولكن هذا الوحي يجعله يتجلى ، وهذا هو وجود الله في الذات . وكما قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى ﴾ سورة الأنفال ـ ١٧ ـ كذلك الله هو الذي يحب فيَّ ، الله هو الذي يتخيل فيّ . ولذا هذا التخيل هو مصدر لكل عمل ولاحتمال أو عدم احتمال أي خلق . ويقول ابن عربي بأن « يصبح المرء قرآناً أي مكاناً للظهور الإلّهي ورمزاً لله ، ليس هناك برهان آخر ، ولا أكثر اقناعاً ، على الله ، على الخالق وعلى عمله من تجربة وجوده هذا وعمله وخلقه فينا ومما ليس لنا . ومما ليس نحن .

انجيلوس سيليزيوس (١٦٢٤ ـ ١٦٧٧) وهو أحد الصوفيين المسيحيين مر بالتجربة التي مرَّ بها ابن عربي نفسها فيجب أن يولد الله في نفس المرء ويقول ان الله بحاجة لقلبي لكي يولد :

لا يستطيع المرء أن يعرف الله . . .

انه ما لا نستطيع لا أنا ولا أنت ولا أي مخلوق كان ان نعرفه إلا اذا أصبحنا مثله .

فالله ليس الله بحد ذاته ولكن المخلوق هو الذي اعتبره الله وهذا الكلام هو تعبير مسيحي عن مبدأ التوحيد الاسلامي . ان الله يظهر في كل عمل مبدع ولا يستطيع المرء أن يعترض على وجود الله . البرهان الوحيد على الله هو أن نتمم وجوده ، أن نجعل ما يخلقه فينا ظاهراً . وكما قال ابن عربي « عندما نعرف الله نخضع لوجوده »

لاهوت سلبي ولاهوت رمزي

هكذا نصل إلى السؤال النهائي في كل فلسفة تنبؤية . ماذا تعني عبارة : **كلَّم اللهُ محمداً** : **ولماذا تُغيرّنا** هذه العبارة ؟ وانني اذكر هنا محمداً لأنه لم يعتبر الاسلام كدين خاص وانما كايمان أولي ، ايمان ابراهيم[١] الذي لم يكن يهودياً ولا مسيحياً ولا مسلماً وانما كان النموذج الأول لرجل الايمان .

الله يتغذى من كياني ، ولكن كياني ولد من فعله . كما يجعل المحب حبيبه موجوداً . لأنه ليس من الممكن أن نثبت وجود إله ليست له علاقة مع شخص لا يعتبره إلهاً .

ويذّكر ابن عربي بالآية الكريمة (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ﴾ وبالحديث القدسي « ما وسعني سماواتي ولا ارضي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن »[٢] .

ويضيف أننا نقر بوجوده بدءاً من انفسنا واللاهوت السلبي لا يستبعد هذا الحوار الذي هو حوار حب .

---

(١) عندما ارسل الله ابراهيم لم تكن الأديان الثلاثة المذكورة سابقاً قد انزلت من الله . قال تعالى « ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن حنيفاً مسلماً » أي يدين بالعبودية والتوحيد لله مستسلماً له وهذه هي رسالة الأديان جميعاً التي دعا اليها الأنبياء ولكن اختلف التشريع فيما بينها باختلاف الزمان والمكان .

(٢) قال العراقي لم أر له أصلاً ووافقه الزركشي وقال ابن تيمية هو من الاسرائيليات وقال السيوطي ليس له اسناد معروف .

في علاقتنا مع الله يوجد موقفان ممكنان :

أول هذين الموقفين نفي كل تشبيه للذات الإلهية بالحقيقة الانسانية مهما كان نوعها . والموقف الآخر فهو القائل بالتماثل ، وهو يستخدم الرمز ليساعد في التعريف على الله كما يعرف المفهوم ولكن ليساعدنا في الدلالة عليه .وإننا عندما نقول تنزيه الله فحسب نجعله مجرداً في وحدانيته . . . وحينما نقول بتجلي الله أو حلوله في طبيعة اخرى فاننا نشرك به . ولكننا نبعد عن انفسنا الضلال عندما نأخذ بالصفتين معاً في آن واحد .

إن النفي والرمز هما الطريق الوحيدة التي تقربنا من الله في تنزيهه وتساميه ووحدانيته وتجلي آياته .

عبد الكريم الجيلي : الانسان الكامل

هذا الاقتراب المتناقض من الله هو فقط الذي يسمح للمرء أن يحقق في حياته الانسان الكامل ، كما يحدده عبد الكريم الجيلي (١٣٦٦) تلميذ ابن عربي . فبالنسبة له « كل الحقائق المتناقضة تتحد في الحقيقة الواحدة . الله هو في آن واحد الكل وفوق الكل ، في آن واحد ماثل ومتعالي . والانسان الكامل ليس الا. الانسانية في مجمل تاريخها واجناسها وثقافاتها ، مثل قصيدة واحدة ، ملحمة واحدة ، رجل واحد يُعتبر النبي محمد اسمى تعبير عنه انه عالم أصغر يحتوي ضمنه كل درجات الوجود ، وهذه ايضاً صورة لوحدانية الله . اعلم ان الانسان الكامل يحتوي توافقات مع كافة حقائق الوجود . أنه يتوافق مع الحقائق العليا بطبيعته المرهفة الخاصة ، ويتوافق مع الحقائق الدنيا بطبيعته الفظة . . لا يوجد في الكون كله اي مكان لظهور الوحدانية أكمل منك أنت ذاتك عندما تغوص في جوهرك ناسياً كل علاقة » . .

هل يمكن للمرء أن يصبح هذا الانسان الكامل دون التقاليد ودون فقهاء الشريعة ؟ هذه القضية كانت مشكلة المسيحية رغم انها صيغت بعبارات مختلفة جداً ، إذ كان هناك تخوف من الصوفيين في الكنائس كتخوف فقهاء الشريعة تجاه المتصوفين المسلمين .

قصة ابن طفيل الرمزية .

لقد طرح ابن طفيل (المولود في قادش في بداية القرن الثاني عشر والمتوفى عام ١١٨٥ ، هذه القضية ، في اكثر صورها حدة في قصة رمزية : حي بن يقظان ، بطل هذه الملحمة التعليمية . حي ، المولود في جزيرة مقفرة منعزلة سيصبح الانسان الكامل موفقاً في ذاته بين الصوفية والفلسفة ، واصلاً الى اعلى درجات الحقيقة دون عون التعليم ولا التراث . انه يندمج تماماً في الطبيعة ساهراً حتى على المحافظة عليها وعلى تناسقها ، واعياً لمسؤوليته عنها . انه يحقق شريعة الله بشكل تام ، دون أن يقوده اليها التراث ولا قوانين المجتمع ويصل الى كشف رموز وآيات التجلي الالهي .

وفي يوم من الايام يلحق به رجل آخر : أسمه **أسال** ، الذي ترك مدينة الناس وتقاليدهم وقانونهم ليتأمل في العزلة بمعنى الحياة والعالم . عندما التقى الرجلان كان أسال يكنُّ الاحترام نفسه للطبيعة وكذلك لله الواحد ، وادركا ما هو مشترك بينهما واكتشف أسال أن حياً يساويه من حيث المعرفة وعندما عرض على رفيقه حقيقة الاسلام كان حي مستعداً لاحترام هذا الايمان وهذه الممارسة اذ كانا يشكلان ، وبشكل مسبق ، شريعة حياته العميقة . حينئذ قرر الرجلان العودة الى المدينة . وأراد حي أن يشرح طريقته في التقرب الى الله للناس الذين التقى بهم وهكذا اصطدم بالتقاليد : مع انهم كانا صديقين في الخير وراغبين في الحق ولكنهم . . . ما كانوا يسعون خلف الحق بطريقة التعليم المكتسب وانما كانوا يريدون معرفته عن طريق الفطرة والرجوع الى الذات »

وانتهى الأمر بحي الى الاعتذار وأن يقرّ لهم أن التحفظ من أي تجديد أمر صحيح وأن لا تسمع الله إلا عبر التراث وعاد مع أسال الى جزيرته حيث تابع الاثنان عبادتهما له حتى موتهما .

ليس لحكاية الجزيرة المقفرة أية علاقة بقصة روبنسون . لقد حمل روبنسون روز معه الى الجزيرة فرديته وبندقيته ورغبته في السيطرة على

الطبيعة باستصلاحها وعلى خادمه (جمعة) الذي يأتمر بأمره .

وليس حي ذلك المتوحش ـ الطيب ولا حتى « اميل » جان جاك روسو الذي يتعلم كل شيء دون قسر ولكن دون التخل عن التعاليم الموروثة لهذه القصة ، المستوحاة من ابن سينا إنها تكشف فترة تمزق في تاريخ الاسلام . هل سيكون كما قال عنه النبي ؟ ليس كدين جديد بسلطاته وعقائده ومتطلباته ورغبته في السيطرة وانما كايمان جوهري في وحدانية وتعالي الله وفي الشريعة التي تنتج عن ذلك وتنطبق على كل مجتمع بشري لا يقتصر فقط على الرغبة في السيطرة والنمو وحدها .

الأمة الجامعة

بعد وفاة النبي بقرن بدا هذا الهدف وشيك التحقق : تحقيق أمة جامعة توحدها شريعة واحدة ترحب بايمان وثقافة الجميع أكانوا من اتباع ابراهيم والانبياء العظماء موسى وعيسى ومحمد أو كانوا من اتباع الفلسفات الهندوسية والبوذية والمزدكية .

لقد عبر ابن عربي عن هذا الامل الانساني في مجمله اذ رأى في آدم أول نبي .أي حين جعل من النبوة البعد الجوهري للانسان وأدرج في كتابه «فصوص الحكم » كل اولئك الذين قدموا شيئاً جديداً لقدر الانسان وعظموا الانسانية .

يقول ابن عربي : « لا أتجلى لعبدي الا في صورة معتقده الخاص »

واذ يتذكر ابن عربي ان القرآن يعلم ان المهم ليس ما يقوله المرء عن إيمانه وإنما ما يجعله هذا الايمان يقوم به ، يجيب ربه بهذا القول[1] .

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان

(١) هذه الأبيات وردت في كتابه ترجمان الأشواق ص ٣٩ ـ ٤٠ وهنا أيضاً يرمز ابن عربي للحب الذي يربط كافة الخلق بعضها مع بعض ويربط الخلق بخالقها وقد سبق هذه الأبيات الثلاثة قوله .

لقد كنت قبل اليوم انكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه داني =

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

هذا الانفتاح على الكون وهذا الرجوع الى كافة الأديان التي اعتبر كلاً منهما كرحلة في الملحمة البشرية ، في خلق الله للانسان الذي يسكن فيه ، جعل من الاسلام أكبر قوة للاستيعاب الروحي . فقصة ابن طفيل توفق بين الفلسفة والصوفية ، الفكر والحياة بكليتها ، العلم والايمان ، وتعيد للفلسفة كل ابعادها التي فقدتها في الغرب منذ ستة عشر قرناً ، منذ هيراقليط وأمبيدوكل .

الفلسفة التي أصبحت اسلامية بحق ، فلسفة تنبؤية لزمها أربعة قرون ، من الكندي الى الفارابي ومن ابن سينا الى السهروردي وابن عربي ، تتخلص من خناق اريسطو والإغريق الجامد ، هذه النفحة النبؤية ستكون اساساً في يقظة الغرب ، ولن يكون صوفيو الغرب إلا صدى لها .

الانحسار الهائل

وبدأ الرفض والانحسار الكبيرين . كان هذا الانحسار مرتبطاً بعوامل خارجية : لقد أطفأ الغزاة منارتي الاشعاع الاسلامي ، بغداد في الشرق وقرطبة في الغرب ، في عام ١٢٥٨ استولى المغول من سلالة جنكيز خان

= فأصبح اليوم قلب الشيخ الأكبر العامر بالحب والرحمة والخير لكافة الخلق لا ينظر الى اصحاب المعتقدات المغايرة لدينه نظرة عداء ، بل نظرة حب وإخاء لأن الحب لديه ليس في مفهومه الشائع لدى الناس بل هو محاولة الرقي الى المحبوب الاسمى وعلى هذا فقلبه يتسع لهم جميعاً للرقي إلى المحبوب الأسمى على الحقيقة وهو الله فهو يكن لهم الحب والخير والرحمة وإن كانوا هم لا يحبونه كما قال تعالى « ها أنتم اولاء تحبونهم ولا يحبونكم » ناظراً الى كافة الخلق والامم والشعوب على اختلاف عقائدها وكأنهم عائلة واحدة وهو مسؤول عن الأخذ بيدهم لطريق السلام والخير سالكاً في ذلك طريق الحب . منطلقاً من قوله ﷺ الخلق كلهم عيال الله وأحب الخلق الى الله انفعهم لعياله .

وهكذا يحقق الصوفيون المسلمون والى اعلى درجة وبما وصلوا إليه من الرقي والسمو بالروح والنفس ذلك المجتمع العالمي المفتوح الذي تحدث عنه « برجسون » في كتابه ـ ينبوعا الاخلاق والدين ـ لأنهم منفتحون على كل التجارب الانسانية متعاطفون مع سائر التيارات الروحية مستشعرون للاخوة الانسانية الجامعة بين الناس جميعاً على اختلاف الأزمنة والأمكنة .

على بغداد وفي عام ١٢٣٦ استولى ملوك قشتالة على قرطبة وقضي على اشعاعها .

ولكن السبب الداخلي لانحسار الفلسفة وفي باقي مجالات الثقافة الاسلامية هو الرفض المعاكس للازدهار المبدع . ولكي لا نخرج عن مجال الفلسفة نذكر ان ابن طفيل نفي الى مراكش . وأُعدم السهروردي بتهمة الهرطقة وبلّغ أحد الفقهاء المتزمتين عن ابن عربي فسجن في القاهرة عام ١٢٠٦ ، ونجى من موت محقق . ثم اعتبرت مؤلفاته محظورة باسم المحافظة على الايمان القويم . لقد شُلت الفلسفة في أوج انطلاقتها وأصبحت عقيمة .

ولم يحافظ على فلسفة العقل ، فلسفة السهروردي وابن عربي ، ضد فلسفة الوجود إلا بلاد فارس في عصر النهضة الصفوية في القرنين السادس عشر والسابع عشر . فبالنسبة للفيلسوف صدر الدين الشيرازي (١٥٧٢ - ١٦٤٠) الوجود هو فعل وليس جوهراً .

بالرغم من اولئك الذين حاولوا تحنيط الله وكتابه في تابوت من خشب الأرز علمنا ابن عربي ، الذي كان قمة في الفكر الاسلامي ، ان يُحيي فعل الله .

ان حفاري القبور لله وللانسان لم يكن عددهم قليلاً منذ ذلك الحين لا في الشرق ولا في الغرب . فقبل اللاهوتيين الوصفيين بقرْن ونصف أعلن فويرباخ عن موت الاله ، وقبل مؤلفات فويرباخ البنيوية بقرنين كان لامتري قد حقق موت الانسان .

ضد كل اشكال التعصب وكل اشكال التكنوقراطية (المرتبطة بسهولة من شبه الجزيرة العربية الى شبه الجزيرة الاوروبية) ، ستعيد فلسفاتنا ـ التي أصبحت مقتصرة على قتل الانسان والاله ـ صياغة تاريخها بالاعتماد على ابن عربي . ان بعثها مرتبط بهذا الشرط . وسيكون هذا أعظم وأثمن شيء في تراث الاسلام . فاما ان تكون فلسفاتنا تنبؤية أو لن تكون .

الفصل السادس

من الفن إلى الصلاة

﴿ الله نور السموات والأرض ﴾

سورة النور ـ آية ٣٥

ان نظرة ، ولو سطحية ، على الفن الاسلامي في العالم تبيّن وحدته العميقة . فحينما نمعن النظر في أي بناء نتطلع إليه فاننا نشعر بالتجربة الروحية نفسها تعيش فيه . بالنسبة لي ، من مسجد قرطبة الكبير الى جوامع تلمسان الصغيرة والى مسجد القرويين في فاس أو مسجد ابن طولون في القاهرة ، ومن جوامع اسطنبول العملاقة الى قباب مسجد اصفهان الفردوسية أو المئذنة الحلزونية المتقشفة في سامراء ومن ضريح تيمورلنك في سمرقند الى الضريح المتلألىء في تاج محل بالهند ومن قصور الحمراء في غرناطة إلى قصور علي كابو وشيهيل سوتون في اصفهان ، فانني كنت دائماً أشعر ، وبشكل حي ، أن كل هذه المباني قد بناها شخص واحد واستوحاها من الايمان ذاته وتلبية لدعوة اله واحد .

في الاسلام كافة الفنون تقود الى المسجد والمسجد الى الصلاة .

المسجد بأحجاره المنقوشة والمزخرفة والتي تبدو وكأنها خاشعة لله تصلي له ، هو مركز اشعاع كافة نشاطات الأمة الاسلامية هو نقطة الالتقاء التي

تتجه اليها كافة الفنون . ان البنية الأساسية لكل جامع تذكر ببيت النبي : باحة يمكن فيها للمرء أن يتطهر بالوضوء ، ثم فناء أو ممر تحفُّه الأعمدة للاحتماء من الشمس وأهم ما في المسجد حجيرة فارغة هي المحراب الذي يدل المؤمنين على اتجاه مكة . وهكذا فان محور كل جامع هو قطعة من شعاع يتجه نحو الكعبة في مكة . الكعبة وهي مكعب من الحجر فارغ من أي صنم هو المكان الذي اتم فيه ابراهيم ، رجل التسليم لمشيئة الله ، مهمته الفريدة في نوعها. وهكذا ينشأ في كل مسجد شعور بالاتحاد مع مركز العالم. وكذلك كل جامع بجداره الرئيسي (القبلة) الذي يجتمع في مواجهته المؤمنون للصلاة هو قطعة من إحدى الدوائر التي تنتظم حول مركز واحد تحيط بالكعبة إلى آخر حدود العالم . ان توجه الجامع يدل على مركز الكون ويجسد في الوقت نفسه وحدة الأمة الاسلامية في العالم: هناك توافق بين بنية المسجد ووظيفته . فانه لا يشبه الكنيسة المسيحية ولا المعبد الاغريقي لانه ليس اطاراً يحتفظ فيه برفات قديس ولا مكاناً لاحتفالات طقسية . على عكس المعبد الاغريقي والهيكل المسيحي الممتدين بشكل طولاني ، يمتد المسجد بشكل عرضاني ليسمح لاكبر عدد ممكن من المؤمنين بالوقوف في مواجهة القبلة مباشرة .

نظام رياضي وعقلاني : متناسق وموسيقي .

أقدس مكان في المسجد هو المحراب . وهذه الحجيرة ليست فقط خالية من أي تمثال أو أي صورة وانما هي بحد ذاتها رمز بهذا الفراغ ذاته ، الى الله الذي يمجد اسمه فيها ، الموجود في كل مكان والذي لا يمكن أن يُرى في أي مكان . هذا الفراغ سمة مميزة لفن الاسلام . فالحقيقة ، الحقيقة الوحيدة ، ما هي غير هذا الفراغ في كل شيء ، في الجامع قبل كل شيء ثم في قلب المؤمن ولكنه فراغ يعبر عن وجود غير مرئي . وأن نعطي لهذه الحقيقة شكلاً مرئياً هو عين الكفر . وهذا هو السبب الرئيسي لإقصاء الصورة من الفن الديني . فقد اوجدت الأديان الأخرى ، على العكس ، نوى للحقيقة اكثر كثافة تحاول ان تمثل غير المرئي بشكل مرئي. أكان ذلك قناعاً افريقياً

تتركز فيه القوى الخارقة أم أيقونة أو صليباً يجسد وجود الله حسب قانون حياته وتجسده .

ليس هناك أي نص في القرآن يحرم الصور ولكن القانون الاساسي في الاسلام يحتم أن لا يكون انتباه المؤمن مشتتاً خلال تأمله في الوحدة الالهية . وهذه رغبة في الانعتاق من ظواهر العالم واغراءاتها الوثنية بقصد اعادة النفس الى الواحد المتعالي على كل حقيقة جزئية . فلا يمكن التعبير عن التوحيد الا عبر نظام رياضي ، عقلاني ، متناسق وموسيقي في آن واحد يتجاوز كل تصوير مادي .

فالاشكال الوحيدة التي يمكن ان نجدها في المسجد هي اذن أشكال هندسية ، يعادل تكرارها الفتان بالنسبة للمسلم الصلاة المسماة عند مسيحيي الشرق بصلاة يسوع والقائمة على تكرار اسم الله دون نهاية . فالمنحنيات التي لا تعرف الحدود والتوريقات والمسدسات المرسومة ضمن دوائر، والمثلثات متقابلة الرؤوس ترمز الى وجود عظمة الله اللامتناهية ، وكما قيل في القرآن :

﴿ ولله ما في السموات وما في الأرض والى الله تُرجع الأمور ﴾
سورة آل عمران -١٠٩-

يذكرنا تعدد الاشكال وتكرارها بمبدأ التوحيد . كما في النوازل مثلاً تلك البلورات ذات الاشكال المتعددة في قبة المحراب في مساجد تلمسان أو في القبة كلها في قاعة ابن سيراج، أو في قاعة الشقيقتين في الحمراء بغرناطة .

الصلاة المحفورة في الحجر وضياء المساجد

في هذه المساجد يلعب النور ، يسطع ويتنوع الى ما لا نهاية له أو يشع كألف شمس مثلما هو على قباب مساجد اصفهان السيراميكية الأثيرية التي تتغير ألوانها مع الشمس والسماء في كل ساعة من ساعات النهار ، كما لو انها تنغم ترنيمة الضياء لأن : « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من

شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تَمْسَسْهُ نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء . . »(١) .

تتلألأ في الجوامع ثريات بلورية كبيرة أو مصابيح نحاسية صغيرة ذات زجاج متعدد الألوان كما تتلألأ النجوم . وينضم نور الشمس عبر كوى القباب الفسيفسائية أو السيراميكية المذهبة أو المزينة بالنوازل ، الى لمعانها منيراً المساجد بلون رمادي مخملي غني بكل التموجات اللونية الرائعة التي تزين ريش عنق الحمام .

في هذا النور الذي يوحي بعالم خفي يشع في عالمنا ، تسري على الجدران توريقات متشابكة ومنحنيات وأوراق نخل هندسية مشبوكة مع وريقات منمنمة حتى درجة التجريد ، وآيات من القرآن وأبيات من الشعر . فالخط ، والاشكال الهندسية والتوريق ، هو الوسيلة الثالثة للتذكير بالوجود الالهي . هذا الوجود الذي يكلمنا عنه الحجر الذي نقش كدعوة مباشرة للايمان ، تحت شكل الكتابة النسخية ، ان الاشكال المستقيمة في الخط الكوفي أو تشابك المنحنيات في النسخي ، المحفورة أو النافرة لا تظهر على انها أشكال بارزة على خلفية وانما تبدو كانسياب حركة متعرجة منطلقة في الفضاء حتى تكاد أنظارنا وأجسامنا تتبع انحناءاتها والتشبه بها ، كما لو اننا نؤدي رقصة مقدسة . ويصبح كلام الله المنقوش على الحجر كنابض يدفعنا الى اللانهاية .

لكل عنصر من عناصر الهندسة الاسلامية اذن مهمة رمزية تتحكم ببنيتها ، فتصبح القباب المتماوجة في الشمس من الداخل قباباً تحصر قبة السماء لكي يستطيع المؤمن أن يركز انتباهه في تأمله . فالإيوانات ، وبخاصة في العراق وايران ، هي نوع من القباب المبتورة يستقبل فضاؤها النور الناشيء من آلاف الاشعاعات الواردة من كسائها المطلي بالميناء الذي يسطع تحت أشعة الشمس فيختلط هذا النور مع الظل الذي يحضن المصلين الخاشعين كما تحضن الأم أولادها ؛ وقد بقي القوس الكبير في القصر

(١) سورة النور الآية ٣٥

الساساني في المدائن خلال عدة قرون نموذجاً يستوحي منه البناؤ ون أعمالهم . ويظهر تنوع الأقواس ، من الأقواس الوتدية ذات الاناقة المتقشفة في فارس وحتى الاقواس المتجاوزة أو المتعددة القويسات في المغرب أو الاندلس ، وكأنه مجموعة من المقامات الموسيقية في غاية التوافق . فقد تمثل هذه الأقواس خيام تيمورلنك ، كما في المقبرة التي يضيئها اللون الذهبي الكامد المنبعث من رخام سقف مسجد الشيخ لطف الله في أصفهان ، أو يمثل انحناء سعف النخيل في الواحة كما في كثير من مساجد المغرب او تدفق نوافير المياه في برك الاندلس . وكذلك يمكن للأقواس المتراكبة والمتقاطعة أن تشكل سيمفونية ، ترتيلية تعزف نغماتها غابة الاعمدة في مسجد قرطبة .

المدينة حول المسجد : مجتمع ينبت في بيئة التسامي .

فن الصلاة هذا ، المنقوش في صخر المسجد ونوره ، لا يعرف الحدود بين ما هو دنيوي وما هو مقدس . لذا ولدت المدينة بشكل عضوي متكامل حول المسجد كما ولد المجتمع الاسلامي الجديد من التسامي عند كل فرد . فكلام الإمام أمام المحراب وهو يرأس المصلين هو الكلام الالهي ذاته الذي يدعو به المؤذن المصلين الى الصلاة من أعلى مئذنته ، ويمر الكلام الالهي هكذا من داخل المسجد الى خارجه أو بالأحرى يوحد بين الداخل والخارج فانهما لا يشكلان بالنسبة للمسلم الا رؤ يتين للوحدة ذاتها ، كما يرتبط الواحد والمتعدد ، المقدس والدنيوي ، التسامي والأمة .

من الخارج ، الجامع هو قبل كل شيء ، المدرسة حيث يدرس كلام الله ، والعلوم والفنون المستوحاة منه والموجودة ضمنه والتي تشع منه . وينداح هذا الايمان شيئاً فشيئاً ليعم المدينة كلها ، ويطبعها بطابعه . فلا تكون الحمامات مجرد امكنة للنظافة الجسدية وحسب وانما هي امكنة تتجاوز التطهر الجسدي بذاته الى معنى تعبدي ، وكذلك ينشأ السوق كميدان لكافة الانشطة المادية ، منها العمل الحرفي والتجارة وتبادل الافكار التي تشكل الروابط المادية في المجتمع .

الأرض كلها مسجد[1]

من هضاب ايران الى هضاب الاندلس تشكل الحدائق حلم البدوي اذ يصبح سراب الواحة ماءً وسرواً وأحواض زهور حقيقية . انها صورة الفردوس : في اللغة الفارسية كلمة بارديس (Pardés) تعني حديقة ، (الفردوس) . ففي الحدائق الفارسية في شيراز والى جنات العريف في غرناطة تترقرق السواقي نفسها ونوافير المياه نفسها وكذلك الأزاهير : أزاهير « حديقة الأزهار » (غوليستان) أزهار سعدي الشيرازي والياسمينيات نفسها (كياسمين العشاق) لروز بيهان الشيرازي ، عرائش النباتات المتسلقة وأشجار السرو نفسها التي تحمل الوعود بالجمال والحب . وأن أهم الموضوعات المتداولة في الشعر الفارسي هو تشبيه المرأة بشجرة سرو باسقة . ترسم الجداول في الصوف وهذا الشغف بالحدائق دفع الصنّاع المسلمين في بلاد فارس إلى تصويرها على السجاد الفارسي .

ثم تلتقي في حوض أو بركة ذات نوافير وحولها أحواض الزهور المنمنمة المتعددة الألوان. بهذه السجادة السحرية يحمل البدوي الى جحيم عواصف الرمال ومضة من فردوسه البعيد .

وفي هذا المجال أيضاً لا توجد حدود بين المقدس والدنيوي . فطرف السجادة يكون عادة توريقاً أو حافة هندسية تُشكل انتقالاً بين العالم الالهي والعالم اليومي مع تعرجات كثبان الرمل ، وتماوج الجبال أو تكتل الغيوم . وسجادة الصلاة المصنوعة من الصوف أو الحرير بقوسها الذي يذكر بالمسجد والذي يحدد المسافة للمصلي يمكن ان تستخدم لأغراض أخرى . في الحقيقة يقول القرآن[2] : ﴿ولله ، المشرق والمغرب فأينما تولوا فَثَمَّ وجه الله ان الله واسع عليم﴾ والأرض بكاملها مسجد ولذا فإن كل شيء ، حتى أكثر

---

(١) قال رسول الله ﷺ جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً . رواه ابن ماجة عن ابي هريرة وابو ذر ولكن الكاتب هنا ربط التشبيه بين جمال الطبيعة وجمال المسجد فكما ان المسجد خصص للصلاة كذلك الأرض بجمالها وتناسقها وتزييناتها كأنها مسجد للمؤمن بحالتها المصغرة .

(٢) البقرة آية ١١٥

الأشياء تداولاً ، كالسيف ، أو المسن ، الطبق النحاسي ، السجادة أو سرج الجواد مثل المنبر أو المحراب في المسجد ، يُنحت ويُطرق ويقص ليكون شاهداً على الوجود الالهي ورمزاً له .

ومن روعة الفن الاسلامي اننا نرى الزخرفات الهندسية والتوريقات والخطوط نفسها تتكرر على مختلف المواد من حجر وفسيفساء ونحاس وفولاذ وقماش وجلد . فعلى كل مادة من مواد هذا الكون مهما كانت متواضعة يمكن لمن ينظر اليها بتقوى أن يرى رمز الله .

العالم في النور الالهي :

وكذلك هو الحال بالنسبة للزركشات العربية أو الفارسية أو التركية التي تزين المخطوطات . انها تصور الحياة اليومية كما في مقامات الحريري أو الحكايا مثل قصص بيد باي أو في كتاب فلكي مثل « بحث في النجوم الثابتة » للصوفي أو وصف للعالم مثل عجائب المخلوقات أو الملحمة مثل « كتاب الملوك » للفردوسي أو الرسوم التوضيحية لقصائد سعدي ونظامي وعطار أو الرسوم التوضيحية في الكتب العلمية . هذه النظرة الجمالية التي يلعب فيها التصوير والحوادث دوراً كبيراً يمكن أن تبدو بعيدة عن المركز الالهي ؛ ولكن الأمر ليس كذلك : فمهما كانت متعددة ومختلفة فان المبادىء الجمالية المرتكزة على رؤية العالم الاسلامية ذاتها تتحكم برسم وتلوين وتشكيل العمل . ولا تتحكم السلبيات مثلاً التحايل على ما نهى القرآن عنه أو الحديث بهذه الجمالية ، وانما يحددها التعبير عن رؤية العالم النابع من الايمان الاساسي في الاسلام .

واذا كانت الرسوم تصور لنا الصخور وكأنها أمواج متلاطمة فهذا لان القرآن علمنا أن نضع الخلود نصب أعيننا وأن نقيس بمقياسه التغيرات والتحركات المدركة على مستوى الحياة البشرية ولأنه يدعونا : في قوله تعالى ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي اتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون﴾[1].

---

(١) سورة النمل الآية ٨٨

ألا تعلمنا الجيولوجيا أننا اذا ضغطنا في بضع ثوان ملايين السنين التي انثنت خلالها ونتأت القشرة الأرضية فان سلاسل الجبال تقفز وتنهار مثل موجات المحيط ، فاذا لم يكن للأشخاص أو الاشجار أو البيوت أي عمق أو ظل في تصاوير الاسلام فان هذا ناتج عن كون العمق والمدى والاشياء ليس لها أي معنى الا في مدى ارتباطها بنظرتنا المحدودة والجزئية ، لأننا مجزؤ ون ولكن ليس لها أي معنى على الاطلاق من وجهة نظر الله الذي لا يظهر بشكل مرئي الا على شكل تجليات . واذا كانت الألوان تبدو لنا كيفية فتجعل الجمل وردياً . وأوراق الشجر زرقاء فهذا لأن تكوّن الأشياء اليومية مرتبط بتعاقب الأيام والليالي وبارتفاع الشمس وبانظارنا الجسدية . ولكن في نظر الله يأتي نور الأشياء ولونها الأبديين من داخلها (كما في زجاج كنائسنا) . وعالم التلوين . الذي يحاول أن يستلهم الحقيقة بذاتها لا كما هي بالنسبة لنا ، يعرض لنا العالم لا في نور الشمس وعلى هوى أنظارنا وانما في النور الالهي .

هذا العالم الذي يحاول الرسام بواسطته أن يمثل الأشياء ضمن نظرة إلهية اكثر مما هي بشرية ليس فيه أي شيء مشترك مع مبدأ التجريد في الرسم الغربي . فعندما يبتعد التجريد عندنا عن تقليد الطبيعة ، حتى ولو كان يبغي اعادة ادخال الروحانية في الفن كما هو الحال عند / كاندينسكي /[1] أو عند / موندريان /[2] أو كان يستوحي من الفن غير الغربي (كالرسم الياباني أو جدرانيات مصر الفرعونية عند / مانية /[3] أو / غوغان /[4] أو الفن الاسلامي عند / ماتيس / أو / كليه /[5] فانه لا يعتمد المنهج الاسلامي ذاته . ففي الغرب ، ينطلق الفن أحياناً من فكرة الهرب أي (الابتعاد عن عالم الواقع الذي لا روح فيه بحيث لا يعود المرء يرى إلا أشكالاً وألواناً منتظمة حسب ترتيب معين) كما كان يقول / غوغان / وأحياناً أخرى من

---

(١) رسام فرنسي من أصل روسي ولد في موسكو (١٨٦٦ - ١٩٤٤) وهو معلم الفن المجرد .
(٢) رسام (١٨٧٢ - ١٩٤٤) وهو من مدرسة الفن التجريدي .
(٣) فرنسي ١٨٣٢ - ١٨٨٣ وهو من مدرسة الفن الكلاسيكي .
(٤) بول غوغادن رسام فرنسي ١٨٤٨ - ١٩٠٣) رسام انطباعي .
(٥) رسام فرنسي (١٨٦٩ - ١٩٥٤) ينتمي الى مذهب التوحشية في رسوماته .

اسقاط عالم داخلي تلعب الفردية فيه دوراً عميقاً أو من ادراك الواقع على مستوى معين من العمق . ان أياً من هذه الدوافع لا يمس الرسام المسلم . فانه لا يهرب من الواقع بل على العكس يحاول أن يوحي بالواقع المتسامي الوحيد . وليس هناك اسقاط فردي لأن حقيقة (الواحد) لا تعاش الا ضمن المجتمع ، وليس هناك محاولة للوصول الى مستوى واقعي وانما اظهار للواقع الوحيد الذي لا يمكن الوصول اليه بالاعتماد على الادراك اليومي .

ففي الفن الاسلامي تنقلب الأمور بشكل جذري وتصبح شهادة لله . ان هذه الوحدة في الاستلهام الديني والجمالي ، في الاسلوب والوسائل هي التي تحيي هذا الفن وتشكل سحره .

الحمراء

يبطل سحر الطلسم عندما يشوبه عنوةً عنصر غريب . واننا نورد مثالين مثيرين على ذلك _ أولهما مسجد قرطبة الكبير الذي ، شوّهه شارل الخامس عندما حول جزءاً منه الى كاتدارئية : والثاني هو قصر الحمراء في غرناطة حيث بنى هذا الانسان الفظ لنفسه قصراً قائماً ثقيلاً الى حد كبير توحي باحته الوسطى باعمدتها الرمادية بقفصٍ دائري مخصص لمعارك المحاربين العمالقة ، وسط حدائق وقصور الحمراء المهفهفة .

ليست الحمراء إلا آخر انطلاقة في الفن الاسلامي الاندلسي إلا أن النغمة كانت ما تزال حية فيه بمعناها المزدوج : الحضور الالهي والأناقة القصوى . ان الوجود الإلهي لا يتمثل فقط بهذه الجملة : « لا غالب ولا قوة إلا بالله » المكررة والمعادة بألف لون ولون وانما في التذكير الدائم بالجنة وفي مجموعة الأشكال اللانهائية الرمزية التي تعبّر عن ايقاعات الكون الاساسية . فكل قبة في القاعات الفسيحة هي الرمز الكوني لمدينة سماوية . وفي قاعة الشقيقتين[1] تجعل النوازل النور يسطع من القبة الرمادية بشرارات

---

(١) الشقيقتين : قاعة من قاعات الحمراء في غرناطة في الاندلس

لا نهائية فيعيش المرء فيها تحت سماء تعج بالنجوم . وفي باحة الريحان ، ترتعش الاعمدة النحيفة في الحوض الأوسط ، فيعكس الماء تموجاته على النباتات المعرشة على الجدران كما لو أن الواقع يزدوج في جمال الصخر الأبدي وروعة النور الرقراق . أما في باحة الاسود ، التي تشكل نقيضاً للبارثينون . فقد أصبح كل ما هو مليء فارغاً وأحاط الصخر بالصحن المفتوح : فراغ أثيري تدعمه صديقة أشبه ما تكون بسجادة فارسية يحيط بها أنهر الجنة الأربعة التي جاء ذكرها في التوراة وفي القرآن . ومجموعة الأعمدة التي تحمل سقوف أروقة صحن الدار بزركشاتها الأخاذة تؤمن الانتقال من الشمس الى الظل بتوليف النور تدريجيا وبشكل خافت . ولا يبدو أي شيء كما هو على حقيقته بتأثير تبادل النور والظل بشكل توافقي لا متناه . انه ينقلنا الى مكان وزمان مختلفين ويجعلنا بايقاعه وبنيته منسجمين مع عالم آخر وحياة أخرى متميزة وأكثر سمواً . وقد كتب أوليغ غرابار: « ان هندسة كهذه هي نقل مرئي لرؤية شاملة في الإيمان الاسلامي » .

عن هذه القصيدة المنحوتة في الصخر تبرز قصيدة أخرى كتبها ابن زمرق (١٣٣٣ - ١٣٩٢) ، وهو من شعراء البلاط ولكن قصائده الحكمية ومراثيه للأمير الحاكم لم تستطع أن تنسينا جمال قصائده الأخرى التي تتماشى مع القصائد الحجرية كلحن مصاحب . فإنه يصف الحمراء ، بشيء من التصنع ، على أنها زوجة رجل عجوز ، ابيضّ شعره كثلوج جبال سييرانيفادا التي تلوح عند الأفق .

« إن السبيكة هي تاج على جبين غرناطة والنجوم تزين هذا التاج والحمراء أجمل ياقوتة في قمته »

من الأعمدة المزدانة بالضياء ومساكب الزهور ذات البقع الفاتحة التي تبدو تحت أشعة القمر كمرآة للنجوم ومن التأرجح المبهم بين الواقع وظاهره وتجليّه يشعر كل من يزور الحمراء - حتى ولو كان غير قادر على فك رموز هذه القصائد ولا على المشاركة في الايمان الذي يمنحها معناها - بأنه أسير سحر الحب الذي وضع الحمراء بين عالمين ، سابحة في الفضاء بين الأرض

والسماء لتنقل لنا رسالة الفن الاسلامي السامية : رسالة الايمان بوحدة عالم لا يمكن للمرء فيه أن يفك رموز ما هو غير مرئي إلا بالاستعانة برموز ما هو مرئي ، دون غض من قيمة ما هو غيبي (ما هو غير مرئي) .

الفصل السابع

الشعر و التنبؤية

﴿ فانما عليك البلاغ ﴾

سورة آل عمران ـ ٢٠ ـ

الأدب الاسلامي ، الذي كان يشكل الشعر الجزء الأساسي فيه هو شعر تنبؤي قرآني في جوهره . ولسنا نهتم في هذا المجال بتاريخه وإنما بما لم يتوان في تقديمه خلال أكثر من عشرة قرون وحتى يومنا هذا ، في انطلاقته الجديدة في القرن العشرين بطبيعته التنبؤية من أجل صنع المستقبل .

لا شك أن جذور هذا الشعر تمتد إلى الشعر الجاهلي ، شعر عرب الصحراء قبل القرن السابع الذي كان شفوياً قبل أن يكون مكتوباً ، شعر المعلقات والذي نجد فيه غالباً موضوع واسلوب الشعر الاسلامي الذي تلاه ، وأناشيد الحب وحياة القبيلة الجماعية والمديح الملحمي ، شعر البداوة وبشكل خاص المركبتين الاساسيتين لقدر البدوي : ثبات الصحراء والسماء ، وترحال البدوي وتنقله الدائمين . وحين نقل هذا التناقض الى المجال الديني أصبح ينطبق على الوحدانية الالهية الأزلية والآيات التي لا حصر لها التي تظهر في الطبيعة والتاريخ في داخل الانسان وفي كلامه .

لقد اعطى الاسلام ، « الذي يحمل بذور تحول جذري على مستوى

الانسانية » الشاملة للتيار الذي ساد في هذا الشعر الايمان التنبؤي الذي ما زال يلهمه . وفي يومنا هذا ينتقل مغزى الشعر التنبؤي نفسه ، على مستوى عصرنا ومخاوفه وآماله إلى الازدهار الواسع الذي يشهده الشعر العربي الاسلامي .

الشعر الدنيوي

كان هناك دون شك مصادر أخرى للوحي فمنذ العصر الذهبي في الامبراطورية العباسية تغنى أحد أكبر الشعراء العرب ، أبو نواس ، (٧٥٧ - ٨١٥) بمباهج الحياة في قصور بغداد التي كان يمثل زينتها وفضيحتها : الخمر ونشوته ، الحب وبخاصة الغلمان وان كان لم يهمل النساء والصيد والهواء الطلق . انه نظير شاعرنا فرانسوا فيّون ، ويعتبر خارج تيار الشعر الاسلامي العام .

وكذلك هي الحال بالنسبة لعمر الخيام (المتوفى عام ١١٣٢) ، الذي ذاع صيته في بلده ايران كرياضي أكثر مما هو شاعر والذي كان اقرب للصوفيين الذي تأمل في اعمالهم ولكنه ابتعد عنهم بمدحه للخمر . (النشوة هي في الواقع رمز للانخطاف الروحي عند الصوفيين) وزاد ابتعاده عنهم بسبب تشككه وتشاؤمه اللذين أكسباه شهرة واسعة في الغرب في القرن التاسع عشر بعد أن ترجم أعماله ادوارد فيتز جيرالد .

انا سيد الشاربين الخمور
انا رب حاناتها المزهرة
طوال ليالي السهاد الثقيل
سأنهل من خمرتي الصافية
واشكو الى الله جراح الفؤاد

ولم يختلف الأمر بالنسبة للفردوسي ، ذي القريحة الملحمية (٩٣٤ - ١٠٢٠) الذي كتب ، بعد أن استرجع محاولات الاسبقين ، في « كتاب الملوك » تاريخ ايران الاسطوري منذ بدء العالم وحتى الفتح العربي معبراً عن روح شعبه باكمله بالاضافة للمحات غنائية أو تعليمية . ولقد سحرت أعماله

الرومانسيين الغربيين فالشاعر / لامارتين /[١] في كتابه « سقوط ملاك » يرى في رستم ، وهو الشخصية الرئيسية في هذه الملحمة نموذجاً خالداً للبطل : « انهم اكثر من ملوك ، لأن الملوك لا يحكمون إلا في زمن معين وهؤلاء الابطال يحكمون على المستقبل » أما / فيكتور هيغو / في « اسطورة العصور » فانه يذكر وبشكل رمزي هو أيضاً ، عظمة وبؤس الفردوسي اذ يتصور لقاء يجمعهما في جو اسطوري حالم .

الشعر المتولد من القرآن : الصوفية [٢]

أما في عصر الشعر الاسلامي الكلاسيكي من القرن التاسع وحتى القرن الخامس عشر فان الصوفية تشكل أكبر جزء في شعر الاسلام . ومصدر هذا الشعر هو القرآن ، الذي هو بحد ذاته قصيدة معجزة البيان ، ويشكل الخلفية الأساسية لكل الشعر اللاحق في معناه العميق من حيث الرجوع إلى (الواحد) وفي خطوته التنبؤية لاضاءة مستقبل الأمة اعتماداً على الشعور الداخلي بالتسامي ومن حيث موضوعه الأساسي : جمال الرموز التي تدعونا إلى (الواحد) بايحاءاتها المرئية لما هو غير مرئي .

(الصوفي هو ذلك الذي لا يرى في العالمين إلا الله كما عبر الشبلي « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم »[٣]

ويرد الصوفي على دعوة القرآن هذه ، مع محمود شابستاري (المتوفى عام ١٣٢٠) : « اقرأ كتب الله ، كتاب نفسك وكتاب السموات » (مزهرة الاسرار)

---

(١) الفونس لامارتيه شاعر فرنسي (١٧٩٠ - ١٨٦٩) وهو من اتباع المدرسة الرومانتيكية .
(٢) للشعر الصوفي الاسلامي وادبائه لغة روحية عميقة ، بل هي في القمة في غنى مفرداتها وعمق دلالاتها ودقة اصطلاحاتها ، وجمال تعبيرها ، فالمعاني ذات الدلالات الحسية والايحاءات الروحية ذات المعاني العميقة هي سمة هذا الشعر . واذا كان الحب عند سائر الناس يتجه الى علاقة ما بشخص معين فالحب لديهم ازلي ومطلق يتجه إلى كل أحد ، والهجر والوصال كلها معان روحية وايحاءات تتحول في قلوبهم إلى شيء آخر له معان روحية . فهي تتفق في اللفظ وتختلف في المعنى .
(٣) سورة فصلت الآية ٥٣ .

﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثمّ وجه الله ان الله واسع عليم ﴾[1]

﴿ ويسبح الرعد بحمده ﴾[2]

﴿ ولله يسجد من في السموات والارض طوعًا وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال ﴾[3].

سورة الرعد - ١٥ -

﴿ الم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون ﴾[4].

وجعلت لي الارض مسجداً وطهوراً كما قال النبي . والشاعر يكتشف الطقس الكوني .

لقد كتب أعظم شاعر صوفي ، جلال الدين الرومي[5] (١٢٠٧ - ١٢٧٣) مؤسس جماعة « الميلوية » التي توحي رقصاتها الدورانية بدوران الكواكب :

أرى المياه المنبثقة من ينابيعها

---

(١) البقرة الآية ١١٥

(٢) سورة الرعد ١٥

(٣) سورة الرعد ١٥

(٤) سورة النور ٤١

(٥) مولانا جلال الدين الرومي : بينما كان العالم بوجه عام ، والعالم الاسلامي بوجه خاص يخطو إلى عتبة عصر من أظلم عصور البشرية ، ولد للانسانية شاعر من أعظم شعرائها فأغناها بما زخرت به نفسه من تجارب ، وأطل عليها من خلال ظلمة عصره نوراً يهدي الحيارى ، ويضيء السبيل للسالكين. كان مولد الشاعر في بلخ ٦ ربيع اول عام ٦٠٤ هـ - ١٢٠٧ م ، كان ابوه عالماً دينياً فقيها ، ينتسب الى ابي بكر الصديق إن شاعرنا صاحب تصوف بناء ، يستمد عناصره من الإنسان ، ويتعمق في بحث مشكلاته المادية والروحية . لقد تجلى في شعره نضج حضارتنا وروعتها واكتمالها . كان يتقن اللغة العربية اتقاناً عظيماً رغم ان اكثر انتاجه بالفارسية وكانت له صلات بالعالم العربي وخاصة سوريا . وقد لقي هذا الشاعر اهتماماً كبيراً في أوروبا حيث تفرغ لدراسته عدد كبير من المستشرقين وترجموا أعماله إلى اللغات الأوربية . وآخر عمل في الوطن العربي كان ترجمة كتابه المثنوي .
له عدة كتب منها المجالس السبعة وهو خطب ومواعظ . وله الرسائل : وهي مجموعة من الرسائل كتبها الى اصدقائه وأهله. الديوان : يعرف ايضاً بديوان شمس تبريز يشمل هذا الديوان على قصائد صوفية يبلغ عددها ٣٥٠٠ قطعة . وفي النهاية ان جلال الدين شاعر صوفي ، لكن تصوفه مزيج من الفلسفة الخلقية ، والحكمة العملية ، وهو بعيد كل البعد عن ذاك التصوف السلبي الذي يدع الحياة وما فيها ، ويدعو الى هجرها .

وأغصان الأشجار التي تتمايل مثل الندامى
والأوراق المصفقة كالشعراء الجوالين .

« نحن كالناي وموسيقانا هي منك »

المعنى هو الحقيقة غير المرئية للظواهر المرئية . فحين يرى الشاعر الصوفي فيها تجليات تفوق الظواهر والرموز فانه يبدأ قصيدته بترديد الشهادة : « لا إله إلا الله » . ويقول جامي (١٤١٤ - ١٤٩٢) وهو آخر الشعراء التقليديين المتصوفة العظام : « الكون هو التعبير الخارجي والمرئي عن الحقيقة ، والحقيقة هي حقيقة الكون الداخلية وغير المرئية » مهمة الشاعر الأولى اذن هي هذه البشرى التنبؤية :

« نحن مثل الناي وموسيقانا تأتي منك
نحن مثل أسود منقوشة على رايات خفاقة
روحك غير المنظورة تجعلنا نهيمن على العالم »

جلال الدين رومي

إن الذي يتكلم عن الله لا يمكن إلا أن يكون شعرياً . لأن ما يعجز الوصف عنه لا يمكن التعبير عنه بمفاهيم لغوية ولا بالأسباب ولا بالحقائق المرتبة . أي المنظورة .

الله أخفى البحر وأظهر الزبد
أخفى الرياح وأظهر الغبار
فكيف للغبار أن يرتفع من تلقاء ذاته
ومع ذلك فانكُ ترى الغبار ولا ترى الريح
وكيف للزبد أن يتحرك من دون البحر
ولكنك ترى الزبد لا البحر
السحرة يكيلون أمام التجار أشعة القمر ويقبضون ثمنها ذهباً هذا العالم هو الساحر ونحن التجار ، نشتري منه أشعة القمر .

جلال الدين رومي

وبعد الرومي بعدة قرون ، يقدم جامي حجته :

« منذ الأزل كشف الحبيب جماله في وحدانية غير المرئي .
ما من عين تر الكون عينه
فكل شيء كان واحداً . . .
فلك السماء الشاسع وحركات كواكبه اللانهائية
كانت محصورة في نقطة واحدة
وكانت الخليقة سادرة في غفلة العدم كطفل
قبل زفرته الأولى .
ثم رغب الحبيب بمرآة أخرى . . .
وأن تظهر كل صفة من صفاته الأزلية في شكل آخر حينئذٍ خلق الأرض
المخضوضرة ، زماناً ومكاناً كما خلق بستان العالم الذي يهب الحياة
وما ظهر الجمال مرة إلا وكان الحب الى جانبه ؛
وكلما استعر الجمال في ورد خد أشعل الحب شعلته من هذا اللهب
وكلما سكن الجمال في الغدائر السوداء أتى الحب وأسر القلب بسلاسلها .
جامي[1]

غوته[2] : « الديوان الغربي - الشرقي »

يعبر غوته في كتابه (الديوان الغربي - الشرقي) في قصيدة « العَوْدُ الى

---

(١) عبد الرحمن الجامي (١٤١٤ - ١٤٩٢) آخر شعراء الفرس من المتصوفة ، ولد في خرجر دجام ، واشتهر بلقب نور الدين وجامي ، نسبة إلى البلد الذي ولد به ، وهو من اتباع الطريقة النقشبندية وله اشعار رائعة منها « اللوامع في شرح الخمرية » - خمرية ابن الفارض واشهر كتبه نفحات الانس من حضرات القدس الذي يشتمل على شرح احوال ٥٨٢ من كبار الصوفية و ٣٤ من العارفات .

(٢) غوته . يوهان فولفجانج فون (١٧٤٩ - ١٨٣٢) شاعر وكاتب مسرحي وروائي الماني ظهرت عبقريته في ميادين شتى في العلم والأدب على السواء . وتظهر احاسيسه الصوفية الشاعرية ازاء الطبيعة بصورها المتغيرة دائماً . درس النبات والحيوان واخرج بحوثه في علم الاحياء . قضى غوته بعض الوقت متنقلاً في المانيا وسويسرا . وكتب مسرحية (انيفجيين توريس) دراسة في عالم الجمال والنقد . نشر ملحمة رينار الثّعلب ١٧٩٤ - نشر مسرحية فاوست ١٨٠٨ وتعتبر من اعظم المؤلفات الشعرية والفلسفية في العالم اهتم بكتاباته العلمية والادبية ونشر ديوان الغرب والشرق) ١٨١٩ . وفيه تجديد في شعر الغرب نتيجة تعرفه على الشعر الفارسي ولا سيما شعر حافظ . ويعتبر بحق اعظم ادباء المانيا .

الوحدة » عن الحركة المزدوجة في خلق العالم المتعدد من الواحد ثم العودة إلى الوحدة بواسطة الحب - اعتماداً على تجربة الصوفيين :

« كان العالم في وحدته الاولى
سادراً في أبدية الله
وخلق الله الزمن حين قرر أن يكون العالم
وانطلقت صرخة ألم عندما
انقسم العالم إلى حقائق متعددة .
سطع النور ، ومباشرة
استولت عليه الظلمات بهلع
فتفككت العناصر كلها وهربت
كلٌ منها يندفع نحو الاضطرابات البعيدة
وهو يتبع حلمه المتوحش
وقد انزوى فجأة في صمته الخالي من الرغبة .
هذا الكون كان دون حياة ودون محبة .
وللمرة الأولى وجد الله نفسه وحيداً
وأشفق على هذا العذاب المميت
حينئذٍ خلق الفجر
الذي يتولد منه تلاعب الألوان المغرّد والمتماوج
حينئذٍ تمكنت العناصر المتفككة
أن يرغب أحدها بالآخر وأن تتحابَّ .
رعشة حب طويلة أعادت الحياة للكون
فالتفتت الذرة نحو الذرة ،
والروح نحو الروح التي تحب
برغبة جامحة لعناق الآخر
ولضمه كجزء ضروري من الذات .
ولم يعد على الله أن يخلق العالم
فنحن سنخلقه من الآن فصاعداً

وحسب هذا القانون العام يا زليخة
كنت عند الفجر منجذباً نحو شفتيك
والليل الذي تطرزه النجوم
يختم اتحادنا بالآلاف من اختامه الذهبية
كلانا صورة لهذا القانون الكوني .
وحتى لو قيل مرة أخرى إن العالم يجب أن يكون
فلا شيء يستطيع بعد الآن أن يفصلنا

عندما كتب أندريه جيد[1] « الغذاء الأرضي » واعتبره مستوحى من الشاعر الفارسي حافظ (١٣١٩ - ١٣٨٩) بدأ كتابه بشبه تلخيص لرؤية الاسلام للعالم : « لا تحاول يا / ناثا نائيل / أن تجد الله إلا في كل مكان . كل خليقة تشير الى الله ولكن ولا واحدة تكشفه . وكل خليقة تبعدنا عن الله عندما يتوقف نظرنا عندها » .

اندريه جيد

وهذا ما اشار اليه / فريد الدين العطار / (١١٤٠ - ١٢٣٠) في كتابه (منطق الطير) « ليس العالم سوى طلسم . . . الله هو كل شيء ، وما الأشياء التي تراها إلا آيته ولغته . إعلم ان العالم المنظور وغير المنظور / هو / ذاته . ليس هناك إلاّهووهو الوجود كله . ولكن الأعين عمياء رغم أن الشمس الساطعة تضيء العالم . اذا استطعت أن تلمحه تفقد الحكمة واذا رأيته تماماً فانك تفقده »

ان رسالة الشعر الاسلامي هي أن تجعلنا نعي انبثاق ما هو إلهي في حياتنا الخاصة .

« ما الذي يشهد بوجود عالم آخر ؟
التحول وانقضاء الماضي
واليوم الجديد والمساء الجديد

(١) كاتب فرنسي ولد في باريس (١٨٦٩ - ١٩٥١) حاز على جائزة نوبل عام ١٩٤٧ .

والبستان الجديد والفخ الجديد
في كل لحظة فكرة جديدة
فرح جديد ، ثراءٌ جديد . »

جلال الدين رومي

هذه اليقظة ، التي يدعو اليها الشعر الصوفي ، تتطلب التخلي عن الذات الأنانية الضحلة . فقد قال النبي فيما معناه « موتوا قبل أن تموتوا » لأن تمجيد الذات عند أية خليقة هو شرك ووثنية . ليس هناك الا قلب واحد لمحبة الغير ومحبة الله . ويعتمد الشعر الصوفي على فكرتين مرتبطتين ارتباطاً وثيقاً ، اولاهما أنه ليس من الممكن أن نكتشف كياننا الحقيقي دون أن نتخلى عن أنفسنا وفناء الذات هذا هو الشرط الأساسي والثابت في المسيرة الروحية وثانيتهما ان محبة الحبيب ومحبة الله هي التي تجعل الانسلاخ عن الذات ممكناً وتسمح لنا أن نتجاوز حدود وانانيات ومتطلبات هذه الذات . يقول ابليس لأبي سعيد الصوفي[1] : « اذا قلت أنا تصبح شبيهاً بي » .

البحث عن « غرال » جمشيد

هذه الحركة المزدوجة في التجرد عن الذات وفي الحب التي تقربنا من كياننا الحقيقي ومن الله تجد أفضل تعبير عنها في الملحمة الاسطورية ورحلة المشوق في « منطق الطير » للعطار . هذه الملحمة تشبه روايتنا « البحث عن غرال »[2] ذلك الكأس السحري الذي جمع فيه يوسف الرمثاوي دم المسيح . هذه الرواية تمتد جذورها الى اسطورة ايرانية . في الرواية الايرانية « الغرال » هو كأس جمشيد . في كأس هذا الملك الاسطوري كان يتركز نور العالم كله ويمكن أن يرى فيه المرء ماضي وحاضر ومستقبل تاريخ الأرض والناس . ويقوم دور الفرسان ـ كما بالنسبة للغرال ـ على البحث عن هذا الكأس الغريب

(١) أبو سعيد بن أبي الخير شاعر صوفي فارسي درس التصوف على السرخي والقشيري وغيرهما له رباعيات مشهورة تبين طريقته في التصوف .
(٢) غرال : تعني الكأس السحري في ملحمة جمشيد .

والاستيلاء عليه لا بأعدالهم الحربية وحسب انما بايمانهم وطهارتهم . ويقول عنه روز بيهان الشيرازي (١١٢٨ - ١٢٠٩) ما يلي :

(خلال البحث عن كأس جمشيد طفت العالم
لم استرح يوماً ، ولم انم ليلة .
ولكن عندما سمعت من المعلم وصف كأس جمشيد ،
هذا الكأس الذي يلخص العالم : فقال : « انه انا ذاتي
لقد طلبت كأس جمشيد سنوات طوال »
ولكنه كان يحمل في داخله ما كان يبحث عنه في خارجه)

منطق الطير

ويصف لنا الشاعر فريد الدين العطار[1] في قصة رمزية طريق الانسان نحو الله ، هذا الطريق الذي يمر عبر انكار الذات . اجتمعت كافة الطيور ، ما هو معروف منها وما هو غير معروف ، لكي تنطلق بحثاً عن ملكها : السيمورغ ، وهو طائر اسطوري يرمز الى الله . وتصل هذه الطيور الى نهاية مطافها بعد أن تمر بألف تجربة وتتحمل الآلام وتظهر تقشفها وبعد أن تجتاز الوديان السبعة : وادي الرغبة ، البحث عن الحب ، المعرفة ، التجرد ، الوحدة ،الوجد، وفناء الذات .

قبل الانطلاق تنصل عدد كبير منها ، اذ ارتبط كل واحد بجزءٍ يهواه من هذه الفانية . فتعلق الشحرور بحب الوردة والطاووس بمفاتن الأرض والبط بالماء والعقاب بيد الملك التي تطعمه واللقلق بالشاطىء والمحيط الذي وجد فيه كفايته . كلٌ من هذه الطيور كان يبدي عذره الواهي ، عذره الوثني لأن عبادة الاصنام هي أن نعبد ما هو جزئي وكأنه الكل .

---

(١) فريد الدين العطار ت ١٢٣٠) من اعظم شعراء التصوف الايرانيين أخذ التصوف عن الشيخ نجم الدين كان أبوه عطاراً طبيباً وخلفه في الطب وكان يقول « أنا عطار ومانح أدوية » ثم ترك الطب وآثر الاعتكاف للتأمل والكتابة وله منظومات كثيرة منها « منطق الطير » « ولسان الغيب » « وبندنامه » وله كتاب تذكرة الأولياء .

ولكن الهدهد (الذي قيل عنه في القرآن إنه قاد ملكة سبأ الى الملك سليمان) ذكرَّ باقي الطيور بالأسرار القديمة وبأن الحب يلزمه الألم ودم القلب وبأنه يستهوي المسالك الوعرة . وبما أن الحب كان يملأ قلوب تلك الطيور فقد عزمت على القيام بهذه الرحلة . وانتزع التفكير بطائر السيمورغ الراحة من قلوبهم ولكنه ملأها بحبه . واسودت السماء حين نشرت اجنحتها فيها .

كان طريقها شاقاً وطويلاً ويتطلب من كل منهم أن يموت بالنسبة لذاته فحب الذات هو أكبر عقبة في سبيل الحب،والتجرد عن الذات هو سر البعث والحياة الأبدية . (كانت الطيور تقول : « انني أخشى الموت » .

ويجيبها الهدهد : « هل للموت سلطة على من ارتبط قلبه بالله ؟ ان قلبي متحد به وهكذا فان الزمن والموت غير موجودين بالنسبة لي . لأن الموت هو انقطاع الزمن ، والزمن ينشأ من تعلقنا بالأمور الزائلة »)

اجتازت وادي الحب

« في هذا الوادي ، الحب تمثله النار ، ودخانها هو العقل »

من كافة الطيور المنطلقة ، والتي كانت تغطي السماء باجنحتها ، وصل ثلاثون فقط الى الوادي السابع ، دون ريش ، عارية ، محطمة القلب محترقة جسداً وروحاً ، فأصبحت كالفحم المسحوق . حينذاك وبعد أن أعطت كل شيء ، أعيد لها كل شيء : حينذاك التهبت مئات العوالم في لحظة ، فشاهدت آلاف الشموس والأقمار والنجوم .

(قالت للبواب الفظ الذي كان يسد عليها الممر الأخير : « لقد التهمت النار أرواحنا » .

فقال - اذا كنتم لا تستطيعون الاتحاد بالشعلة فلا تضيعوا حياتكم من أجل شيء مستحيل .

فاجابت الطيور : كيف تستطيع الفراشة أن تنجو من النار مع انها تعتبر النار أفضل سكن لها .

بعد هذه التضحية القصوى سمح لها بمشاهدة وجه الملك : السيمورغ . « طلبت منه أن يكشف لها السر الأعظم وأن يعطيها حلاً لسر تعدد ووحدة الكائنات » .

وهـا هي الطيور الثلاثين تشاهد وجه السيمورغ منعكساً في وجه كل منها ، وجه الملك والاله الذي كانت تبحث عنه . لم يكن غير الجميع اذ انها جميعاً لم تكن إلا واحداً . لأن الله موجود في كل مكان ، المتجلين بنكرانهم لذاتهم وللأشياء . قال لهم السيمورغ [١] :

« شمس جلالتي مرآة . كل من يأتي يرى نفسه فيها كاملاً . . . رغم أنكم تغيرتم كلياً ، فإنكم ترون أنفسكم كما كنتم سابقاً . عندما اجتزتم وديان الطريق الرهيب ، عندما تألمتم وكافحتم لتصلوا الى التجرد من الذات وتبلغوا الكمال لم تتصرفوا إلا بتأثير هذه الشمس . افنوا انفسكم اذن فيَّ بعزة ولذة لكي تجدوا أنفسكم فيّ » .

ذلك أنها لم تكن تشكل ، هي والسيمورغ ، إلا واحداً .

ويختم العطار كلامه قائلاً :

« أفنت الطيور نفسها للأبد في السيمورغ ، فاختفى الظل في الشمس وهذا كل ما في الأمر .

ومن فهم منطق الطير فقد وجد الحجر الفلسفي » .

بعد هذا نصل الى رسالة الاسلام الأساسية فيما يتعلق بوجود الواحد في المتعدد والمتعدد في الواحد وفيما يتعلق بإفناء الذات في سبيل البعث الى الحياة الأبدية وهذه هي رسالة حافظ الشيرازي (١٣١٩ - ١٣٨٩) :

ان الروح لتحترق احتراق الشمعة
قدمت جسدي قرباناً ناصعاً للهيب الغرام

(١) يشير إلى قوله تعالى ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ .

وانا طاهر الذيل أبيض القلب
فإن لم تحترق كما تحترق الفراشة
فلن تجد الى الخلاص من عذاب الحب سبيلاً .

شعر الاسلام والغرب

هذا المعنى الالهي في الحب البشري هو أحد الموضوعات التي جعلت من الشعر الاسلامي واحداً من أعلى قمم الأدب العالمي وأعادت للتصوف المسيحي منذ ايكهارت[١] (المدين جداً لابن سينا وللصوفيين) وحتى القديس جان دولاكروا[٢] (الذي استطاع أن يقرأ مؤلفات الصوفيين في ترجمتها اللاتينية في جامعة سلامنكة) ، أعادت النفحة الشعرية العظيمة التي دوت اصداؤها حتى عند الفلامنكيين والرينانيين .

الرواية الشعرية الكبرى : « فيس ورامين[٣] » (Wis et Râmîn) لجورجاني ، المؤلفة عام ١٠٥٠ ، « وخوسروية وشيرين » لنظامي (المتوفى عام ١٢٠٣) « وليلى والمجنون » لجامي (المتوفى عام ١٤٩٢) تركت تأثيراً باهراً في أدب الغرب منذ تريستان وايزو ، القريبة جداً من فيس ورامين التي كتبت قبلها بقرن والتي استطاعت أصداؤها أن تصل الى الكتّاب الذين استوحوا منها .

لقد تغذت الرومانسية من شعر الشرق . بدءاً من غوتة الذي يعترف بما هو مدين به لحافظ في « الديواني الغربي الشرقي » وحتى مارسلين ديبوردفالمور الذي استخدم موضوع الزهور عند سعدي مجرداً إياها من بعدها الصوفي . ومن نوفاليس[٤] إلى هولدرلين[٥] وشومان[٦] الذي استوحى من

(١) دومنيكي الماني (١٢٦٠ - ١٣٢٧) ادان البابا نظرياته الحلولية .
(٢) طبيب الكنيسة (١٥٤٢ - ١٥٩١) كتب مؤلفات صوفية .
(٣) اسطورة من أساطير العصور الوسطى ترجمت إلى العديد من اللغات العالمية .
(٤) كاتب وشاعر الماني رومانسي (١٧٧٢ - ١٨٠١) .
(٥) شاعر الماني (١٧٧٠ - ١٨٤٣) كان له تأثير كبير على القصيدة الحديثة .
(٦) موسيقى الماني شهير (١٨١٠ - ١٨٥٦) قام بتأليف العديد من السمفونيات .

العطار في احدى موشحاته الدينية . Le Paradis et la Péri

ولكن أعمق تأثير للشعر الاسلامي كان تأثير الشعراء السابقين لشعر « الغزل اللبق » (العذري) على شعراء اوكسيتاينا وعلى دانتي . في بلاط غليوم بواتييه (الذي توفى عام ١١٢٧) وهو أكبر هؤلاء الشعراء وجدّ أليينور الأكيتاني . لم تكن روح الصوفية غائبة كما قال إزرا باوند . كان هذا البلاط احدى نقاط الاتصال بين الشعر الاسلامي والشعر الغربي كما كان بلاط فريديريك الثاني دي هوهنشتاوفن في صقلية الثغرة الثانية التي دخلت منها الثقافة والشعر الاسلاميين وربما كانا احدى مصادر مؤلفات دانتي .(١)

« أذكر ، في ليلةٍ جفاني فيها الكرى »
انني سمعت الفراشة تقول للشمعة :
أحبك ! وأدرك انني يجب أن أحترق في هذا الحب
أما أنت فلم الأنين ، ولم الاحتراق ؟ .
أجابت الشمعة ، « ايها العاشق الساخر
ان العسل ، وهو صديقي العذب ، فصل عني . ومنذ أن نأت عني حلاوته
أخذت النار تأكلني كما فعلت بفرهد(٢) العاشق الجريح » .
وبينما كانت تحكي ، سيل من الدموع المؤلمة ،
كان ينتشر على وجهها الشاحب
قالت لي :
أيها المتكبر ، أنت لا تعرف عن الحب شيئاً .
لا تعرف كيف تتألم ولا كيف تصبر
لأنك تهرب عند أول لمسة من اللهيب
أما أنا فأبقى لكي احترق به .
فاذا أحرقت نار الحب طرف جناحك

(١) دانتي البيجري (١٢٦٥ - ١٣٢١) يعتبر دانتي من أعظم شعراء العالم وأشهر شعراء ايطاليا أهم اعماله الادبية الكوميديا الإلٓهية والمأدبة وكان يمتاز بقدرة فائقة على الوصف والتحليل .
(٢) الفرهد هو حبيب شرين المولع بها .

انظر ، واجرؤ على الأقل أن تحترق بها كاملاً . »

ولم يمض من الليل كثير على تلك الحال وفجأة أطفأت الشمعة أمرأةُ ذات وجهٍ مشرق . وبينما كان الدخان يرتفع ، قالت :
هذه هي شريعة الحب القاسية
وهذا هو السر ان كنت تريد أن تعرف :
لاحد ينجو من لهيبه إلا بالموت .

سعدي الشيرازي .

عندما نشر لويجي فاللي في عام ١٩٢٨ كتابه « اللغة السرية عند دانتي والمخلصين للحب » ذكر بان الصوفيين الفارسيين قد عبّروا عن الحب الالهي بلغة الحب البشري وأن دانتي عندما كتب : « الحياة الجديدة » كان قد سبقه ، في فكرة المخلصين للحب ، روز بيهان الشيرازي (المولود عام ١١٢٨) في كتابه « ياسمين العشاق » كما سبقه ابن عربي في كتابيه « الإسراء الليلي » وفي « الفتوحات المكية » .

الحب البشري والحب الالهي .

هذه النظرة للحب ، التي قلبت مفاهيم الغرب عبْر الاسلام وصوفييه وشعرائه ، تعود جذورها الى مؤلفات ابن داود البغدادي (٨٦٨ - ٩٠٧) .

ابن داود (وهو الذي اضهد الحلاج وطلب اعدامه لأنه كان يدين نظريته : « الرغبة الجوهرية » التي تقود من الحب البشري الى الحب الالهي) أعلن في « كتاب الوردة » أن الحب غير ممكن ان لم تمت فيه ، مشيراً بقوله هذا الى قبيلة بني عذرة (التي كانت تنزل في وادي القرى ، شمال غرب المدينة)

(١) الحلاج حسين بن منصور (٨٥٨ - ٩٢٢) متصوف متكلم ولد بفارس ودرس على شيوخ (الصوفية :التستري - المكي والجنيد) وطاف يدعو للزهد والتصوف في بلدان كثيرة حتى استقر ببغداد ، وجمع حوله كثيراً من المريدين شرح مذهبه في كتاب الطواسين اتهم بالكفر والخروج عن الدين وبعد سجن دام ثمان سنوات امر بقتله فضرب بالسياط ثم صلب وقطع رأسه - وأحرق . رغم اجماع القضاة على تكفيره ، اعتبره اكثر الناس من الصالحين .

هناك اذن تيار كامل في الشعر العربي لا يرى في الحب دافعاً جسدياً شهوانياً بل اعلاناً إلهياً . المحبوب هو ايقونة تقودنا الى الحب الالهي شرط أن ننجوا من الافتتان بالصورة الشيطانية ومن سيطرتها علينا بالتقشف الدؤوب والمميت . ويتمثل هذا الشعر بعناصر أربعة : الحب والحفاظ على العفة ثم الموت من أجل هذا الحب وهذا التقشف .

بالنسبة لدانتي كل شيء هو رمز للوجود الالهي ، كما في القرآن والحب هو المقدرة على اكتشاف ما هو خالد في الجمال الزائل ، وما هو « واحد » في تعدد الرغبات والنشاطات الأرضية . فهو يرى أن بياتريس هي كالمسيح : دعوة لاستعادة الذات والعودة الى « الضروري الأوحد » . انها المرشد الأول ـ الذي لا يمكن اللحاق به ـ في الصعود نحو الله .

سمح تأثير الشعر الاسلامي في الحب والتصوف . من خلال مسلمي صقلية واسبانيا ومن خلال الاختلاط الناتج عن الحملات الصليبية ، بتصور شكل جديد من العلاقات بين الرجل والمرأة يتجاوز الوحشية والاقطاعية .

كتب ستندال في مقال : « في الحب » : « علينا أن نبحث عن نموذج وموطن الحب الحقيقي تحت خيمة العربي البدوي السوداء » وأضاف : « نحن من كنا برابرة تجاه الشرق عندما ذهبنا لإقلاقه بحملاتنا الصليبية ، ولذا نحن مدينون له بكل ما هو نبيل في تقاليدنا لهذه الحملات ولعرب اسبانيا » ـ الفصل ٥٣ ـ

وبعكس المجتمع الذي كانت فيه المرأة خاضعة قبل كل شيء لأبيها ثم لزوجها الذي اختاره أبوها لها، فان « الحب اللبق » هو فعل حر يتحقق في الحب بعطاء متبادل وحر . حتى ولو كان يقتصر على طبقة محدودة من المجتمع ، فان هذا التغيير يعلن عن انقلاب جذري في العلاقات بين الرجل والمرأة ، اذ اعتبرت فيه المرأة سيدة الرجل . والشاعر أو الفارس اللبق يهب نفسه لسيدته كما يسلم الرجل أمره لمليكه .

في التقديم الذي كتبه / خوسيه اورتيغا إي غاسيه / لترجمة « طوق

الحمامة » لابن حزم الى الاسبانية ، يقارن الحب البدوي عند قبائل الصحراء العربية بالحب الاندلسي . فماذا كان هذا الحب البغدادي الذي كان ابن حزم القرطبي[١] (٩٩٤ ـ ١٠٦٤) رائداً له في اسبانيا وفي الغرب كله . بالنسبة لابن حزم وهو رائد تاريخ الاديان المقارن ، ليس الحب متعارضاً مع الايمان لا بل ان الجمال الطبيعي هو تجلٍّ يعلن وجود الله ويشهد عليه . ويتفق ابن حزم مع ابن داود في أن محبة الله من وجهة نظر الايمان الاسلامي المتطرف ، تقود الى المعيارية الانسانية والوثنية وهي لا تتفق الا مع نوع الحب الموجود عند بني عذرة الذين يعيشون حباً يدوم بالعفة حتى الموت ، [من عشق فعف فمات مات شهيداً][٢] .

هذا الموقف يشكل تحولاً حقيقياً ان لم يكن في الحياة (وهذا ما لا نستطيع معرفته) على الأقل في الشعر الغزلي . فلم تؤدِ أية طريقة سابقة في الحب الحياتي الى اغناء الشكل الانساني . وبخاصة الحب الافلاطوني ـ كما في الوليمة أوفيدر ـ[٣] (هذا الحب الذي طالما شبهوا به الحب عند العرب) والذي لا يتعدى كونه حباً للحب وليس حباً للغير ولا يمت بأية صلة الى النظرة الى الله ولا إلى التصوف .

وقد يبدو متناقضاً لمن تقتصر نظرته على رؤية الرسم التخطيطي mécaiuste للعلاقة بين القاعدة والبنية الفوقية أن تكون هذه النظرة الى الحب قد انبثقت خلال ثلاث مراحل وفي شروط مختلفة تماماً : أولاً عند أفقر القبائل البدوية العربية ثم في عصر القوة والرفاه الذهبي خلال الامبراطورية

(١) ابن حزم ابو محمد علي بن أحمد ابن حزم القرطبي عالم أندلسي مؤرخ فقيه اديب مؤلف في علم الكلام والفلسفة والعقائد له مصنفات في مختلف العلوم منها (طوق الحمامة) (فضل الاندلس) والأحكام في أصول الأحكام والفصل في الملل والنحل ، والناسخ والمنسوخ . وغيرها كثير . وخلاصة مذهبه أن كل قياس لا يستند إلى القرآن والحديث باطل . وهو يأخذ بظاهر المعنى لألفاظ القرآن والحديث .

(٢) من عشق فعف فمات مات شهيداً « هذا الحديث أخرجه الخطيب وابن عساكر وغيرهما عن ابن عباس وسنده ضعيف .

(٣) مسرحيتان تراجيدتان (مأسويتان) من مسرحيات المسرح الفرنسي .

العباسية في بغداد ثم مع ابن حزم في فترة الأزمة التي تناثرت فيها الخلافة الأموية الرائعة في قرطبة . بعد هذه المراحل الثلاث هيمن هذا الحب على ثقافة الغرب خلال عدة قرون ، فكان ـ وهو أسمى ما أبدعته الانسانية وأشده رهافة ـ أعمق دعوة وجهها الاسلام للمسيحية وللحضارة العالمية !!!.

الازدهار الجديد في الشعر الاسلامي .

خلال قرابة خمسة قرون تحت الاضطهاد والسيطرة التركية ثم تحت نير الاستعمار الاوروبي الذي ضيّق الخناق أكثر من قبل على الحضارة العربية، في ظل هذا الغطاء الرصاصي ، بعد الازدهار الأخير المتمثل بشعر جامي ومؤلفات ابن خلدون الموسوعية الضخمة ... كان الصمت .

كان هناك استثناء واحد : بلاد الفرس الصفوية في القرنين السادس عشر والثامن عشر حيث ازدهرت ايضاً بعض الفلسفات كفلسفة ملاسادرا (توفي عام ١٦٤٠) وهو من تلامذة السهروردي وابن عربي رغم بعد الزمن . وظهر كذلك بعض رسامي المنمنمات ، وربما كانوا أعظم من عمل في هذا المجال على الاطلاق ، مثل / بهزاذ / (١٤٥٠ ـ ١٥٣٦) و / سلطان محمد / في بداية القرن السادس عشر / وآغاميراك / و / مير موسافير / في منتصف القرن السادس عشر . و / محمد زمان / (توفي عام ١٦٩٧) .

ولم تظهر بوادر حركة نهضة أدبية في العالم الاسلامي الا في منتصف القرن التاسع عشر في مصر حيث استطاع بعض الكتاب المتمتعين باستقلال نسبي أن يفلتوا من نير الامبراطورية العثمانية . ثم ، بالنسبة للشعر ، في بداية القرن العشرين ، في الولايات المتحدة الاميركية ، حيث استطاع مبدعو الشعر العربي المعاصر ، وبخاصة جبران خليل جبران ، أن يعيشوا خارج نطاق المستعمرين الانكليز والفرنسيين .

استطاع ازدهار الشعر الاسلامي الكبير ان ينتشر وبخاصة بعد استقلال البلدان وأن يجد أول بؤرة له في لبنان قبل أن يستطيع المستعمرون السابقون

وعملاؤهم في الشرق الأوسط أن يشعلوا النار فيه واستطاع أن يعيش رغم التشتت.اذ أن الحركة الشعرية وتجديد الحياة يتجسدان في الفلسطينيين حاملي المستقبل لأن فيهم تتضافر قوى الحياة عند كافة الفروع الابراهيمية : اليهودية والمسيحية والاسلام الذي تحمّل منذ البدء مسؤولية هذا التراث الانساني واضطلع بها دون أَثَرَة .

وليس من قبيل المصادفة أن تكون اسمى انطلاقة في الشعر العالمي في يومنا هذا متمثلة في الفلسطينيين هذا الشعب المصلوب في النصف الثاني من هذا القرن . الاسلام بأجمعه ، وعالم الايمان ونحن معه مسمرون على صليب القدس الابدي الذي ليس له معنى إلا عندما يفتح ذراعيه للجميع .

لن نحاول هنا أن نرسم خطوط التاريخ الأدبي للنهضة الاسلامية في القرن العشرين بمدارسها وتياراتها وكتابها وإنما أن نستخلص فقط المشكلة الكبرى التي تطرح عليها وتطرحها علينا والمعنى العالمي لهذه المشكلة . إن الشعر يعطي لأي عصر معناه حين يبغي الوصول الى مستقبل في طور الولادة وذلك لأن الشعر أكثر صحة في التاريخ ولكونه تاريخاً داخلياً للانسان ولكونه تطلعاً انسانياً .

رفضت جماعة « الديوان » التي ولدت في مصر والموسومة بالطابع الانكليزي ، أسلوب ونظريات الشعر العربي التقليدي واذ تغلغلت حُمى القومية الغربية بين رواد هذه الحركة فقد ربطوا مفهوم الأمة بالأرض لا بالدين . فكرسوا حلم المحتلين دون أن يدروا وذلك حين اعتبروا أنفسهم مصريين قبل أن يكونوا مسلمين : هذاالحلم القائم على تفتيت الأمة الاسلامية إلى شعوب حسب النموذج الذي أوجدته اوروبا منذ معاهدة / ويستفالي /[1] والذي سمم العالم منذ ذلك الحين وجعل في عصرنا هذا كافة المشاكل السياسية غير قابلة للحل . وأوضحُ مثال في هذه المجموعة ، هو الكاتب العقاد (١٨٨٩ ـ ١٩٦٤) الذي انتهى به الأمر الى التعاطف مع

(١) معاهدة وقعت عام ١٦٤٨ بين الامبراطور الجرماني وبين السويد وفرنسا وذلك من أجل وضع نهاية لحرب الثلاثين عاماً فيما بينهما .

الايديولوجيات القومية الايطالية والالمانية في الثلاثينات ، مدفوعاً بشعور قومي محدود يدعيّ العلمانية والليبرالية .

كان لدى جماعة أبو للو التي اسسها في عام ١٩٣٢ الشاعر أحمد زكي أبو شادي ، والتي انفتحت على كافة التيارات بما فيها تيار العقاد ، تصور للتجديد اكثر غنى . فلا يمكن أن يوجد شعر حديث دون جذور . وكيف يكون له مستقبل ان لم يكن له ماضٍ ، أي ان لم يكن له تاريخ . حاول خليل مطران أن يعيد الاتصال بين التراث الاسلامي الأصيل والعالم الحالي متجاوزاً القرون الأربعة المظلمة . فمشاكل الأدب تقود حتما الى تفكير عميق بالحياة أدى بخليل مطران وبحركته الى الاحتكاك مع كافة التناقضات .

يقول في قصيدة « وردة ماتت »

ما الذي تبغين من جوبك يا   شبهات الطير ؟ قالت وأبانتْ :
نحن آمال الصبى كانت لنا   ههنا محبوبة عاشت وعانت
كانت الوردة في جنتنا   ملكت بالحق ، والجنة دانت
ما لبثنا أن رأيناها وقد   هبطت عن ذلك العرش وبانت
فترانا نتحرى أبداً   إثرها أو تتلاقى حيث كانتْ

وقد أبدت حركة أبو لو انفتاحاً على شعر الغرب وبخاصة الشعر الانكليزي . فكشف لهم توماس[٢] . س . اليوت في « الأرض هذه الصحراء » (١٩٢١ - ١٩٢٢) شعراً عظيماً وعالماً في طريقه الى الإضمحلال .

---

(١) خليل مطران (١٨٧٢ - ١٩٤٩) لقب شاعر القطرين لأنه نشأ في لبنان وقضى معظم حياته في مصر ومات بها ويعد مطران حلقة الصلة بين مدرسة البعث التي بدأها البارودي وبين الاتجاهات الشعرية الحديثة في فترة ما بين الحربين العالميين وكان التعبير عن وجدانه كما صرح في مقدمة ديوانه ١٩١٠ هو أهم ما يعنيه ويبدو أنه تأثر بالثقافة الفرنسية في شعره كما ترجم عدة مسرحيات للأدب العربي .

(٢) توماس الينوت كاتب وشاعر انكليزي من اصل امريكي (١٨٨ - ١٩٦٥) حاز على جائزة نوبل عام ١٩٤٨ .

« كومة من الصور المحطمة تلفحها الشمس . .
سأريك خوفك في قبضة تراب . . . .
وهذه الجماهير التي تدور حول نفسها
ت . س . اليوت

ولكن كيف يمكن لهذا الغرب المدمر أن يجد قبولاً في الأنفس . هل من الممكن أو هل من الحقيقي أننا نستطيع أن نفصل طريقته في التسلط عن الثقافة التي تدعم هذه الطريقة ؟ هل هناك غربان : أحدهما امبريالي ونحن ملزمون بمحاربته وآخر انساني تحدونا الرغبة الى محبته ولكن ثقافته يمكن أن تشكل تبريراً أو عذراً للدمار الاقتصادي والسياسي الذي يخلّفه ؟ .

حتى مع اولئك الذين يفضحون تدني هذه الحضارة أمثال ت . س . اليوت والسرياليين ، ما هو اللقاء الممكن بالنسبة لشعراء شرقيين يفتشون عن حياة جديدة ؟ أين هو الأمل ؟ أهو في اللقاء مع اليأس والثورة ؟ أم في بعث تراث محبوب ولكنه مدفون ؟

آلهة لا تموت إلا لتحيا من جديد

مع قدموس ، مأساة سعيد عقل (ولد في لبنان عام ١٩١٢) تظهر محاولة جديدة . عبر اسطورة البطل الفينيقي قدموس ، مؤسس مدينة صيدون (صيدا الحالية في لبنان) وشقيقته اوروبا التي اختطفها ثور / بعل / فأعطت اسمها لقارة أو بالأحرى لشبه قارة ملحقة بآسيا ، يحاول سعيد عقل أن يوضح جذور حضارتي الشرق والغرب المشتركة .

يقول (سعيد عقل)
وكان القدر سيد الانسان . . .
ثم تحدى الانسان القدر فكان السعي . . .
واكتنه المحسوس . . فكان التجريد علماً وفنا وكان ذلك في صيدون
وعبد الأولون آلهة عدة ، فالحقيقة عندهم غير واحدة . . .
وفي القدس لاحت للأعين صفحة جديدة . . .

ويرتفع صوت الحب سنة في الناس فترتجف من أسسها علاقات البشر بعضها
مع بعض . ويضطرون إلى استنباط قواعد للعيش جديدة غير غزو المرء جاره
وغير اتخاذ أرضه
صاحب هذا الصوت يسوع المسيح .

لقد اطلنا في نقل هذا النص لان الحوار بين الحضارات قد أعيد ، ولأول مرة بعد ابن عربي ، ذلك الحوار الذي يعطي البشر وعياً واضحاً لتاريخهم المشترك ، وهذا يعني ايجاد بناء مشترك لشعب واحد ، شعب الأرض بكاملها ، من خلال المساهمة المخصبة عند كل فرد ضد الادعاءات الاقليمية فيما يتعلق بالقوميات والتعصب الديني وضد الادعاءات الحمقاء في كون أي شعب هو الشعب المختار أو أن يملك الثقافة الأسمى .

حمل سعيد عقل في فترة من الفترات فكرة الانسان الكلي . فلا شيء يستحق العيش إلا ما يزيد في عظمة قلب الانسان ورؤاه . لقد فتح قدموس الطريق أمام الانسان الذي يمكنه أن يتحول من ديونيسوس[١] فيصبح المسيح ، طريق تلك الآلهة التي لا تموت إلا لتحيا من جديد .

فالملحمة الاسلامية هي فترة مجيدة من فترات الملحمة الانسانية كلها وهذا هو الموضوع الرئيسي والمبشر ببعث كل شيء ، بعث الاسلام والبشرية جمعاء . وهذه كانت فكرة جماعة « تموز » الأساسية في عام ١٩٤٥ ، وفكرة بدر شاكر السياب (١٩٢٦ - ١٩٦٣) الذي تشبع من أفكار التوراة والانجيل والقرآن فامتدت جذوره إلى أقدم العصور . مؤلفاته هي انشودة العودة الى أرض فلسطين والتجذر فيها ، تلك الأرض التي هي بالنسبة له الأم والمرأة والينبوع .

يقول السياب

اجراس موتي في عروقي ترعش الرنين
قيد لهم في دمي الحنين

---

(١) ديونيوس هو ابن الاله ذيوس وهو إله الخمر والخضرة لدى الاغريق .

اعماق صدري كالجحيم يشعل العظام
اود لو عدوت أعضد المكافحين
اشد قبضتي . . .
أود لو غرقت في دمي إلى القرار
لأحمل العبء مع البشر
وابعث الحياة إن موتي انتصار   إن موتي انتصار .

في عام ١٩٥٤ اعتمد شاعر آخر ، علي أحمد سعيد ، اسطورة تموز وحتى انه اتخذ اسم الاله القديم فسمى نفسه أدونيس حين قال : « أنا أدونيس . . . أنا نبع ذاتي » ، وأصبحت حينئذٍ مجلة / شعر / في بيروت قلب الشعر العربي المعاصر . كتب ادونيس :

« أرضنا في الوقت الحاضر هي أرض التناقضات . نحن ننادي بالحرية ولا نطبقها . . اننا نتحرر من العبودية الخارجية لنعود الى عبوديتنا الداخلية . . . . أرضنا ليست « الأرض الصحراء » كما قال الشاعر الانكليزي **ت .س اليوت عن** اوروبا ولكنها أكثر من ذلك : سديم وفوضى . ولكن في الوقت نفسه فوقها تبرق ومضة من نار . . . اننا وبمجرد وجودنا جزء من المغامرة الروحية الكبرى التي تبني تاريخ الانسان وعظمته . . . اذا كان سان جون بيرس يصف وصفه بعبارة هيراقليطية : « انني أسكن البرق » يستطيع الشاعر عندنا أن يقول : « انني اسكن الرؤيا »

لقد وجد الشاعر المنابع والجذور . انه يبلغ واقعاً آخر أي امكانات أخرى . انه يفتح في عالم التكنوقراطيين أفقاً جديداً ، أفق التنبؤية .

روح التنبؤية

ولكن في قلب كل شاعر في هذا العصر يوجد عمل يحيي فيه روح النبوة ، تلك النبوة التي لا تشك وانما تبشر ، تعلن ، تنادي وتبدع ، النبوة على النمط الاسلامي السامي . فكانت أعمال جبران (١٨٨٣ - ١٩٣١) ، وجبران العربي المسيحي كان يعتقد دائماً - كما كتب لماري هاسكل عام

١٩٢٩ ـ أن : « أشد ما يطمح إليه الانسان الشرقي هو أن يصبح نبياً »[1] . لقد تابع واكمل تراث شعر ابن عربي الملهم الذي كتب منذ ثمانية قرون : « كم يفتح الحلم من آفاق ، فيه يظهر المستحيل ، ولا يظهر فيه بالضبط غير المستحيل » .

واذا كان كافة الشعراء العرب في وقتنا الحاضر يعتبرونه أباً روحياً فان هذا ناتج عن كونه قد أعاد للشعر بعده التنبؤي كما فعل في اوروبة / سان جون بيرس / أو / نيكوس كازانتزاكيس / وفي الولايات المتحدة / والت ويتمان / وفي الهند / طاغور / وفي التشيلي / بابلو نيرودا / وفي **الباكستان / محمد اقبال / . لقد عاش جبران الوحدة بين الله والانسان في محيط جفونه الواسع .**

« وكما جعل ابن عربي من حياته حلماً ومن الحلم « حلماً داخل الحلم » كذلك فعل جبران في منفاه الاميركي اذ عاش في منفى ، منفى داخل منفى . . . **الانسان ساق وحُب الله زهرة والاثنان ينموان معاً أمام وجه الشمس ».**

سليمان زغيدور

الرؤ يا التي هي نسغ الشعر تحمل في ذاتها بذور الثورة بكل ما في هذه الكلمة من معنى أي أنها تغيير الانسان بشكل شامل . ومع جبران تتابع الصوفية صعودها : انه يكشف ، كما يعلمنا القرآن ، آيات الله في نفسه وفي الآفاق .

« لقد وجدت سر حلمك في المروج وصفاءك في الوديان وعزيمتك في الصخر وصمتك العميق والغامض في الكهوف . . . انت لسان الابدية وشفتيها ، أنت وتر قيتاره العصور وأصابعها . انت فكرة الحياة ورمزها »

جبران خليل جبران « انشودة الأرض »

يقظة الشرق تنطلق من أعماق العصور

من لبنان جبران خليل جبران الى الباكستان محمد اقبال تسرى النسمة

---

(١) كان الأولى أن يقول: (. . . هو أن يعمل عمل الأنبياء).

التنبؤ ية ذاتها وفيها ذات الرغبة الملحة عند الانسان ، في أن يكون خليفة الله على الأرض .

لقد خلقتَ الليلَ يا رب وأنا صنعت المصباح
ولقد خلقت التراب وأنا صنعت الكأس
ولقد خلقت الغابة والجبل والصحراء
وأنا أنشأتُ الخميلة والحديقة والبستان »

محمد اقبال[1]

كتب محمد **إقبال** في « رسالة الشرق » معقباً على الديوان الغربي الشرقي لجوته « يشهد الديوان أن الغرب بعد أن قرف من روحانيته الضعيفة والباردة أخذ يبحث عن حرارة صدر الشرق » بالنسبة لاقبال تقوم مهمة الشاعر على دعوة الشعوب الراقدة إلى يقظة الأحياء .

إن جلال الدين الرومي يعتبر أن الحياة ، من الحيوان إلى الانسان ومن الانسان إلى الله تسير حسب مسار تصاعدي خالد ، وحتى نيتشة الذي يرى أن الانسان الذي يساهم في الخلق مطلوب منه أن يتفوق على نفسه وتكون مهمة الشاعر هي التوعية والإيقاظ .

يقظة الشرق هذه تنطلق من أعماق العصور . وستكون يقظة لكافة العوالم .

إن تأمل اقبال في جامع قرطبة يلخص رؤ ية العالم الاسلامي للزمن كتزاوج بين الزائل والأبدي .

---

(١) محمد اقبال (١٨٧٣ ـ ١٩٣٨) شاعر وفيلسوف باكستاني ولد في مدينة سيالكوت حيث بدأ يتعلم في مكاتب حفظ القرآن ، وانتقل إلى لاهور ونال الليسانس من كليتها ثم درس الفلسفة .

دعا في شعره إلى نبذ التصوف العجمي الذي يؤدي إلى إماتة وإنامة الأمة ، ويبشر بالتصوف العملي الذي يدعو إلى العمل والجهاد . واتخذ لذلك مثلاً **اعلى : محمداً** ﷺ .

وتقوم فلسفته على الذات التي هي عنده حق لا باطل ، والانسان الكامل هو الأقرب إلى الله ولكن ليس القصد من هذا القرب أن يفني وجوده في وجود الله كما تقول فلسفة الاشراق بل هو على العكس من ذلك يمثل الخالق في نفسه . له مؤلفات عديدة وديوان شعر .

« ما هي أيامك ولياليك إن لم تكن
قلب الزمن ، دون نهار ودون ليل . . .
العمل الذي ينجزه الانسان المؤمن . . .
له ألوان الديمومة والخلود
يا جامع قرطبة ، إن الحب منبع وجودك
ولن يقدر للمسلم أن يزول فدعوته تحمل في قلبها اسرار موسى وابراهيم .
إن أرض المسلم لا حدود لها **وأفقه** لا نهاية له
اضحى الاسلام لنا ديناً وجميع الكون لنا وطناً
وما دجلة والدانوب والنيل إلا موجة من بحره الزاخر

وإذ يحلم بنقل كافة قوى الحياة من ضفة الى الضفة الاخرى يكتب محمد اقبال متذكراً جلال الدين الرومي .

« لقد اتجه الشرق بأنظاره نحو الله ولكنه لم ير العالم .
واتجه الغرب نحو المادة ولكنه لم ير الله .
وما الإيمان إلا أن يفتح المرء عينيه على الله .

وهكذا يجد الاسلام والمسيحية استمرارية تاريخهما ووحدة منبعهما وهدفهما ومعناهما . ومن هنا يصبح رمزياً أن يكتشف العالم بعد ما يسمى بحرب الايام الستة ، الشعر الفلسطيني ، وبتعبير أدق الشعر الجليلي ، وأحد أنبل شعرائه وهو محمود درويش (ولد عام **١٩٤١**) ترعرع على الأرض ذاتها التي عاش عليها المسيح كل احلامه . وهناك يكتب الآن الشاعر الفلسطيني شعر طريق الآلام والعذاب . كتب إلى امه من السجن قصيدة تحت عنوان (إلى أمي)

يقول

احن إلى خبز امي
وقهوة أمي ولمسة أمي
وتكبر في الطفولة يوماً على صدر يوم
واعشق عمري لأني

إذا مت أخجل من دم أمي
خذيني إذا عدتِ يوماً
وشاحاً لهدُبك .
وغطي عظامي بعشبٍ
تعمد من طهر كعبكِ
لأني فقدت الوقوف بدون صلاة نهارك
هرمت فردي نجوم الطفولة حتى أشارك
صغار العصافير درب الرجوع لعش إنتظارك

يحاول الشعر الاسلامي الحديث أن يجد القصيدة الخلاصية التي توفق بين الله والتاريخ ، بين اللحظة والأبد ، بين الواقع والحلم وبين التراث والحداثة . ويعي هذا الشعر أنه إذا كان التراث يشكل إجابة - وأحياناً اجابة على تساؤلات لم يعد أحد في يومنا هذا يطرحها على نفسه - فان الايمان والتنبؤ هما بمثابة سؤال . وبما أنه يتقدم على التاريخ والسياسة فان هذا الشعر يساعدنا على أن ندرك أن الشرق والغرب ليسا إلا جزأين لكائن واحد وأن مهمتهما الأساسية هي الاستعداد للعيش في مستقبل واحد . ويقول أيضاً سليمان زغيدور :

« الحضارتان هما موجتان في محيط واحد ؛ كلاهما منفصل عن جذوره وعن **نفسه** وعن المحيط المتدفق . . . لقد نفى الاسلامُ (الغربَ) ويعتقد أنه هو البداية . واوروبة تنفي الاسلام الذي ولدها . . . الشاعر العربي يستوعب تراثه المسيحي . . . ولكن الغرب يجب أن يعرف أن بين أصله المسيحي **وحاضره**. عليه أن يستوعب ألف عام من الاسلام ليردم الهوة التي يقف على حافتها معلناً قلقه »

لقد طرح الشعر العربي الاسلامي قبل التاريخ والسياسة قضايا التاريخ والسياسة الرئيسية . فانه قبل كل شيء شعر تنبؤي .

الفصل الثامن

الإسلام ومستقبلنا

﴿ قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون ﴾[1]

إن العقبة الرئيسية التي تقف في وجه حوار الحضارات هي النظرة التي حملها الغرب منذ آلاف السنين عن الإسلام . يوجد مؤلفان حديثان فيهما وجهات نظر مختلفة جداً تسمح لنا بتحديد هذه النظرة وتبيين كم هي تثقل أيضاً على نظرتنا .

يقول / رود بنسون / بأن الحروب الصليبية ساهمت في اعطاء صورة سيئة عن الاسلام الى جمهور واسع . إن مؤلف الراهب غيبير دي نوجان المتوفى عام ١١٢٤ الذي يحمل العنوان التالي : (الفرنسيون « الصليبيون » يرضون وجه الله)، إنه برنامج التزمت اللاحق كله. إنه يُعرف بسذاجة مبدأ الصورة المشوهة التي اعطاها : بعد أن يعترف بأنه ينقل الأحداث كما تناقلتها الألسن يحدد نظريته : يمكننا أن نذم دون تردد ذلك الذي تفوق طبيعته المشؤومة كل ما يمكن أن يقال عنه من سوء » . ولعل أفضل ما يقال بأن هذا شتم واضح .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٣٦

- في الإستشراق -

بعد إخفاق الصليبين الكامل اصبحت البعثات التبشرية المسماة بالاستشراقية بديلاً عنها وبناء على اقتراح رامون لول ١٢٣٤ - ١٣١٦ ، الراهب الكاثولوكي الذي جاب افريقيا الشمالية والشرق الأوسط حيث أدرك اهمية الثقافة العربية ، قرر مجمع فيينا الديني الذي انعقد في عام ١٣١٢ انشاء مجموعة كليات للغة العربية في كلٍ من باريس واكسفورد وبولونيا[١] وأفينيون[٢] وسالامنك .[٣]

لقد وُلدَ الاستشراق ولكنه لم يكن عملاً يهدف الى البحث العلمي دون غاية أخرى بل كان يهدف الى تذليل العقبات في وجه مشروع تبشيري ، وقد لعب الاستشراق في أحيان كثيرة هذا الدور المشبوه لصالح الكنيسة أو السياسة أو الاستعمار أو لجعل الشرق يتناسب مع رغبات وحاجات السيطرة الغربية . وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر الأمثلة الشهيرة : إن الجد الأكبر « للاستشراق العلمي » ليس بالنسبة لفرنسا فقط بل بالنسبة لكل اوروبا (ومن خلاله بشكل خاص تلقن غوتيه أصول الشعر الفارسي) هو سيلفسر دي ساسي (١٧٥٧ - ١٨٣٨) ، أول استاذ للعربية في مدرسة اللغات الشرقية (فقد اصبح مديرها عام ١٨٢٤) ، واستاذ في الكلية الفرنسية (الكوليج دو فرانس) ، إن هذا المعلم المتمكن في الاستشراق قام بعمل مماثل في وزارة العلاقات الخارجية . فقد أصبح مستشاراً للسياسة الشرقية في فرنسا ، وقام بتأليف نشرات باللغة العربية لجيش نابليون الكبير ثم نداء الجيش الفرنسي لاجتياح الجزائر سنة ١٨٣٠ .

إن ماكس ميلر الذي أتقن تدريس اللغة العربية ، والسنسكريتية ، والديانات الشرقية ، وأبدع فيها قد أشرف في جامعة اكسفورد على تدريب وتخريج دفعات من الحكام المستعمرين لتسيير امور الحكم في الهند .

---

(١) مدينة في ايطاليا .
(٢) مدينة في فرنسا
(٣) مدينة في اسبانيا

أما / روث بيندكت / (١٨٨٧ - ١٩٤٨) الاستاذ في جامعة كولومبيا فقد كتب في عام ١٩٤٦ مؤلفه الشهير :« السيف والأقحوان » بناء على طلب مخابرات الجنرال ماك ارتور وبمساعدتهم لتسهيل ادخال اليابان ضمن مشاريع السياسة الأمريكية .

إن هذا الاستشراق الذي كان غالباً لخدمة المشاريع التبشيرية أو الأمبريالية أو الاستعمارية أو السياسية قد ساهم في خلق تبرير علمي لأحكامهم المسبقة وادعاءاتهم التسلطية . وأخيراً لسيطرتهم على العالم الثالث .

وقد ظهر هذا الموقف من (الشرق) أو باديء ذي بدء في تلك النظرة إلى الآخرين فالغرب لم يحاول أن يستوعب الشرق ويتعلم منه ، ويسبر ما يحركه من الداخل ، من عقيدة وحضارة ، بل نظر إليه نظرة سطحية منطلقاً من معاييرنا (نحن الغربيين) في استيعاب الأمور وكأن الحضارة الغربية هي القدرة العليا التي يجب اتباعها . وفي أفضل الامور كان الغرب يدرك ما لدى الشرق لكن لم يكن يكُنُ له المحبة .

لقد تصور الغربي نفسه وكيلاً لشؤون العالم

عبر هذا ، اعتقد الغرب أنه مباح له تحديد مكانة الآخرين والحكم عليهم لصالح تاريخه وغاياته وقيمه .

وليس من الأهمية بمكان أن يُمثل الشرق على الطريقة الاوربية في القرنين السادس عشر والسابع عشر في مسرحية (القدس المحررة) لتاس أو في / تيمورلنك / لمارلوف أو في / عطيل / لشكسبير ، أو أن يبحث نوليتر عن جمل تركية حقيقية في مسرحية (البرجوازي النبيل)[١] وأن يتجادل راسين مع كورني في مقدمة / باجازيت /[٢] حيث قال لقد التزمتُ بتعبيرٍ جيد في

---

(١) مسرحية لراسين .
(٢) مسرحية لموليير .

مأساتي عما نعرفه من أخلاق ومبادىء الأتراك الأساسية .

إن ما يهم هنا هي الحضارة الغربية التي تعتبر نفسها هي الوحيدة الجديرة بالتعبير عن ما هو شامل . اما في القرن الثامن عشر فقد كان الأمر على عكس ذلك فهؤلاء الذين يعارضون النظام يحاولون ان يجعلوه نسبياً وذلك بمقارنته مع الشرق الذي تخيلوه بشكل يعكس عالمهم .

وهكذا فالشرق لم يكن له أي وجود خاص به لكنه النفي الذي يمكننا أن نحكم وأن ندين من خلاله سلطة لويس الخامس عشر في الرسائل الفارسية لمونتسكيو ،فالشرق اصبح ببساطة الوجه الآخر للحقيقة الفرنسية وصورتها المقلوبة ، ووجهة نظرها الانتقادية فلقد استُخدم الشرق دائماً : لصالح الحقيقة الغربية والفرنسية . فإن رأينا فيه مع بيير بايل في قاموسه النقدي من خلال سيرة حياة شريفة لمحمد نموذجاً من التسامح يعارض القمع الديني في فرنسا . او اننا نرى فيه مع فولتير ، في كتابه « محمد » نموذجاً للخداع الديني في خدمة الاستبداد السياسي فالإسلام (وبشكل أعم الشرق) لم يُدرس أبداً لذاته بل يُسخر خدمة للصراعات الايديولوجية الغربية .

نظرة الغرب الى الشرق : الغزو والإغرابية .

لقد تبدلت صورة الاستشراق مع بداية القرن التاسع عشر . إن غزو نابليون لمصر قد أشار الى نوع جديد من العلاقة بين الشرق والغرب . في بادىء الأمر علاقة سيطرة وضغينة . فبونابرت الذي اصطحب معه / فولني / صاحب كتاب السفر الى مصر والى سوريا الصادر في عام ١٧٩٧ ، لم يتردد أن يؤكد للشعب في الاسكندرية ضمن اعلان صادر في /٢ / تموز ١٨٩٨ : « نحن المسلمون الحقيقيون » ومع احتقاره لكل دين مهما كان ، حاول نابليون التظاهر بأنه يحارب من أجل الاسلام . ونتيجة لهذه الغزوة ، أي الصدام الأول السياسي والعسكري المحسوس بين الشرق والغرب في القرن التاسع عشر ولدت في مصر حركة اصلاحية مسلمة تختلط بين الحداثة وتقليد الغرب ، في نفس الوقت الذي ولد في اوروبا (وخاصة في فرنسا) ميلٌ فاسد

نحو الإغترابية الرومانسية المختلطة بعقدة تَفَوُّق الغرب . ففي مقدمة كتابه « الشرقيات » الصادر عام ١٨٢٩ امتدح فيكتور هوغو[١] كون : « إن الدراسات الشرقية قد وصلت الى حد لم تبلغه من قبل . ففي عصر لويس الرابع عشر كنا هلنستيين اغريقيين والآن نحن شرقيون ، حيث لم يساهم مثل هذا العدد من الأدمغة على نبش التراث الآسيوي العظيم من قبل » .

لكن هذا لم يمنع فيكتور هيجو أن يكون صورة مشوهة عن الشرق مستوحاة من مجموعة تخيلاته التافهة .

أما شاتوبريان[٢] في كتابه « رحلة من باريس الى القدس » الصادر عام ١٨١١ فإنه لا يرى في الشرق غير انعكاس لذاته بنظرة إبداعية .

وقال عنه ستاندال[٣] « معلقاً على كتاب شاتوبريان » « لم أجد قط شيئاً ينضح بالأنانية والتبجح اكثر منه » . لكن ما قاله ستاندال لم يمنع شاتوبريان الذي يحمل آلاف الأحكام المسبقة أن يكتب عن الحروب الصليبية ما يلي : « ليس المهم فقط ، تحرير هذا القبر المقدس وإنما معرفة من الذي سيسيطر على هذه الأرض (القدس) أهي تلك الديانة المعادية لكل اشكال الحضارة والمشجعة من حيث المبدأ على الجهل والاستبداد والاستعباد ، أم تلك الديانة التي عرفت كيف تُحيي عند المعاصرين احترام العصور القديمة الحكيمة والتي ألغت الرق . . . فالحرية يجهلونها والملكية ليست لهم فيها شيء ، والقوة هي ربهم » .

حتى الكاتب الكبير / جيرار دي نيرفال /[٤] لم يجد في الشرق الذي طاف به بين عام ١٨٤٢ - ١٨٤٣ شيئاً غير الفراغ بالإضافة الى تكرار لبعض

---

(١) كاتب فرنسي (١٦٨٩ - ١٧٥٥) من اشهر مؤلفاته « الرسائل الفارسية . البؤساء - احب نوتر دام .

(٢) شاتوبريان كاتب فرنسي (١٧٦٨ - ١٨٤٨) وهو من الكتاب الرومانسيين .

(٣) هنري باني ستاندال كاتب فرنسي (١٧٨٣ - ١٨٤٢) شارك في الثورة الفرنسية من أشهر مؤلفاته الأحمر والاسود

(٤) كاتب فرنسي (١٨٠٨ - ١٨٥٥) كتب قصة (سفر الى الشرق)

المعلومات التي اقتبسها حرفياً من المستشرق الانكليزي (لان) . أما فلوبير[1] بصرف النظر عن ذكرياته مع أحدى العاهرات في القاهرة فقد أخذ على عاتقه في رواية /سالمبو/ ١٨٤٩ - ١٨٥٠ مهمة بعث شرق وهمي تمخضت عنه تصوراته الخيالية .

وهكذا فإننا دائماً أمام فكرة عن الشرق اخترعها الغرب لنفسه معتقداً في بعض الأحيان بأنه يُعيد بعثه على طريقة لورانس العرب السخيف[2] الذي كتب بغرور : « كان هدفي ان أصنع أمة جديدة . . . وان أوهم عشرين مليوناً من الساميين بأني اعطيهم مرتكزات يبنون عليها قصوراً وهمية من أفكارهم الوطنية ، إن كل مقاطعات الامبراطورية لا تساوي عندي موت انكليزي واحد . وإذا كنت قد أعدت للشرق بعض الشعور بالذات وبالهدف والمثل الأعلى فقد كيفت هذه الشعوب مع نموذج حكم جديد تنسى فيه السلالات الأوروبية المسيطرة انجازاتها الفظة » .

الشرق والغرب لن ينفصلا بعد الآن

في المانيا التي لم تستعمر الدول الاسلامية كما استعمرتها انكلترا وفرنسا قامت محاولات لفهم الاسلام . لقد أقرَّ / هيدرر / أن العرب هم اساتذة اوروبا ، وقد أكد / فريدريك شليفل / منذ عام ١٨٠٠ على ضرورة تحالف النمط القوطي مع الشرق ضد المدرسة الكلاسيكية أما / غوتيه / بشكل خاص فقد كتب منذ عام ١٧٧٤ قصيدة في تمجيد محمد ، وفي عام ١٨٤٩ دعا في ديوانه الشرقي الغربي الى هجرة نحو الشرق ليستمد منه شباباً

(١) غوستاف فلوبيير كاتب فرنسي (١٨٢١ - ١٨٨٠) كاتب روماني من أشهر مؤلفاته مدام بوفاري

(٢) لورنس توماس ادوارد (١٨٨٨ - ١٩٣٥) مغامر وجندي وباحث بريطاني انضم إلى بعثة للتنقيب عن الآثار في بلاد ما بين النهرين ١٩١١ . وعند اعلان الحرب العالمية الاولى اُلحق لورنس بقسم المخابرات البريطانية بمصر . انضم للقوات العربية المحاربة بقيادة فيصل ابن الحسين ١٩١٦ وأوقد جذوة الثورة ضد الحكم التركي . ولم يوفق إلى تحقيق امالي العرب في مؤتمر فرساي . اشتهر باسم لورنس العرب، الف كتاب اعمدة الحكمة السبعة ١٩٢٦ وكتاب دار صك النقود ونشر كتابه ثورة في الصحراء وقد جذب هذا الكتاب انتباه الرأي العام عند نشره . مات بحادث سيارة لعنه الله .

جديداً . وغوتيه الذي يتفق مع القرآن في معارضة فكرة استراحة الله في اليوم السابع ، يرى في الاسلام ايماناً ومجتمعاً قائماً ليس على الاستسلام بل على العمل .

فغوتيه الذي كان معجباً من خلال تأثره بكتاب مختارات ادبية عربية لسيلفستردي ساي - بالشعراء الفارسيين الصوفيين ، بالرومي ، وبالسعدي ، وحافظ وجامي ،كتب غوته : « لم يعد ممكناً فصل الشرق عن الغرب وقد استنتج في كتابه هذا : إذا كان الاسلام يعني الخضوع لله ، فإننا نعيش ونموت على الاسلام . وكان يؤيد غوتيه ما ورد في كتاب « العلوم الإلهية » ، بأن النبي لم يبتعد عن الدين الجوهري ، قال : « هل القرآن هو مخلوق ، انني لا أعرف هذا . اما انه كتاب الكتب فإنني اعتقد هذا كما يعتقده المسلم » . أما هيغل رغم اعترافه بأن التوحيد في الاسلام يستبعد كل تمييز عرقي أو طبقي أو ملكي ويفرض الصيام والزكاة، يورد في مقاله وفي الصفحات القليلة التي خصصها للاسلام (في الجزء المخصص للعالم الجرماني ! !) كافة افكار المركزية الأوروبية المتداولة ، حتى وصل به الأمر الى تسمية الاسلام بالمحمدية وهذا يفضح جهله بمزايا الإسلام .

ذروة الاسلام :

في المانيا وفي عام ١٩١٧ كتب / اوسفالد شبنغلر/ في كتاب تدهور الغرب » ، تاريخاً دون نظرة عرقية اوروبية يمكن ان يكون تاريخاً وحيداً لا نظير له في العالم . وهناك آخرون لاحظوا مثلاً أن قوة الساسانيين العسكرية قد هُزمت في معركة واحدة فقط هي معركة / نهاوند / في عام ٦٣٧ أو أن مملكة القوطيين الجنوبيين قد انهزمت في معركة واحدة بالقرب من نهر / ربو باربات / في عام ٧١١ .

إن هذا الكاتب بلغ من السخف في النصح لقومه بما كان يجب القيام به وما يمكن فعله في الوقت الذي بقي غياب المقاومة بالنسبة له امراً ليس له تفسير .

ان / شبنغلر/[1] الذي لم ينغلق على ذاته خارج التاريخ الشامل ، في معزل ايديولوجي غربي ومسيحي قد جمع في حزمة واحدة كل التجمعات اليهودية والمسيحية والأريوسية والنسطورية والقائلين بطبيعة المسيح الواحدة والمجوسيين ، ويوضح أن سر انتشار الاسلام المذهل لا يكمن في عنفه الحربي . لقد استوعب الاسلام بشكل مباشر وتام تقريباً ، اليهودية والمجوسية ، وايضاً كنائس الجنوب والشرق . وها هو ذا بطريرك / سيلوسي / يعقوب الثالث يتذمر بأنه منذ ظهور الاسلام الأول دخل فيه عشرات الألوف من المسيحيين وفي أفريقيا الشمالية أي في وطن القديس اوغسطينوس سجد شعب هذا البلد كله أمام الله .

ويستنتج / شبنغلر / ما يلي : « عرفتْ المسيحية فترتين لحركة الفكر الكبيرة : « منذ بداية الميلاد وحتى عام ٥٠٠ في الشرق ومنذ عام ١٠٠٠ حتى عام ١٥٠٠ في الغرب » . إن هاتين الفترتين هما ربيع الثقافات التي احتضنت ايضاً التيارات الدينية المخالفة للمسيحية التي تنتمي إليها .

ولكي نستوعب التاريخ بنظرة واحدة ، من المفروض أن نتخلى عن غربيتنا التي اصبحت شيئاً فشيئاً محلية وأن نلقي نظرة شاملة على مسيرة الأنبياء الذين تابعوا رسالة ابراهيم فنفهم لماذا أدركت اليهودية التي كانت متحجرة في زمن المسيح بأن استبدال المسيحية لا بد واقع ، ونفهم كذلك لماذا لم تستطع المسيحية مقاومة استبدالها بكل ما هو حي في الاسلام إذ أنها قد اتخذت الطابع الروماني وتحولت في عصر قسطنطين الى درجة الانقلاب الى عكس ما تنادي به أيْ الى تدرج امبريالي روماني سادت فيه الروح الاغريقية وارتبط عقائدياً بتعاليم نيقيا اللاهوتية الى درجة الانفجار على شكل تكتلات طائفية . وحين انكمش الغرب ضمن الحدود الأوروبية غاص في سبات ثقافي واجتماعي خلال عصور السيطرة المسيحية . وعندما سقطت بغداد في عام ١٢٥٨ في يد المغول أحفاد جنكيز خان ، وسقطت قرطبة في عام ١٢٦٢ بيد احفاد الصليبيين المتخلفين ، دخل الاسلام بدوره في سبات عميق بعد أن

(١) فيلسوف ومؤرخ الماني (١٨٨٠ - ١٩٣٦) واهم مؤلفاته (انحطاط الغرب) .

اصيبَ بالتجمد بسبب الشكليات القضائية والعقائدية التي أضرت بروحانيته ، بينما كانت اوروبا منذ القرن الخامس عشر قد وصلت الى قمة الكفر باستسلامها لآلهة السعي خلف القوة والنمو المزيفين . لذلك حتى يومنا هذا إذا لم تدرك المسيحية والاسلام سوية تاريخهما المشترك ، وإذا لم يكونا قادرين على إدراك ، ان كل عضو منهما يشكل جزءاً من الآخر ، وأن كليهما يشكلان جزءاً من الكل ، فإن الحوار بينهما وكذلك بين الشرق والغرب لا يمكن ان يكون الا حواراً بين مريضين .

- بين الحداثة والغربية -

لم تسهم الحروب في أي يوم من الايام بحل مشكلة، بل على العكس ساهمت في خلق البعض منها وعلى الغالب تُطرح هذه المشاكل بشكل خاطىء ولذا تُصبح غير قابلة للحل . بالنسبة للاسلام أوجد غزو بونابرت لمصر عام ١٧٨٩ مشكلة العلاقات بين التراث والحداثة وبأبشع صورها . ومن الغرابة أن تسود فكرة مفادها أن ظهور بونابرت في مصر هو أساس لنهضة العالم العربي الاسلامي !!!.

وربما كان من الممكن فتح ثغرة تسمح برؤية تتضمن التجديد والتحديث في الاسلام الذي تحجر فكره اثر عصور الحكم العثماني . ولكن منذ البداية ترسخ سوء تفاهم لا تزال نتائجه تثقل بشكل رهيب حتى يومنا هذا على الحوار بين الاسلام والغرب : فقد غلب على مفهوم التحديث مفهوم الاقتداء بالغرب . ولم يقتصر مفهوم الحداثة على التمثل بالغرب وانما كان ذلك بأبشع صوره : القوة وحتى القوة العسكرية . ومنذ ذلك الحين توضح تياران فكريان : الحداثة أو المحافظة وبدأ ذلك في مصر اولاً ثم تبعه العالم الاسلامي العربي كله وشيئاً فشيئاً كافة مناطق الحضارة .

الحداثة ونتائجها :

بالنسبة للبعض - أي أنصار التجديد - كان المستقبل يتمثل بتقليد الغرب ،

وأول ما استورد منه هي أمراضه . وبما أن النظرة القومية قد جزأت الأمة في اوروبا ، حسب أهواء الحروب الطويلة بين الأمراء الإقطاعيين القدامى ثم حسب أهواء منافسات السوق بين تجـار صناعيي البرجوازية الجدد ، فقد تشكلت الحدود بين الوحدات القومية في اوروبا في القرن التاسع عشر بالاعتماد على وحدات جمركية أو بحد السيف وخلال الحروب بين العائلات المالكة في اوروبا الاقطاعية . وقد نُقلت الى العالم الُمستعَمر حروب ومنافسات الامم الأوروبية الُمستعِمرة (كما نقُلت علاقة القوة في كلا الحالين السابقين) .

فهذه الحدود القومية في كل من اميركا اللاتينية وافريقيا السوداء وعلى الأرض الاسلامية ما هي الا نتيجة للاقتسام الاستعماري وبشكل خاص بين اسبانيا والبرتغال وفيما بعد بين هولندا وانكلترا وفرنسا .

وفي المجال السياسي كانت الحداثة تعني النظام البرلماني أي تصدير بنية وثقافة الى بلدان تختلف عنها جذرياً وتصدير انظمة وُلدت من شروط تاريخية خاصة بإنكلترا وفرنسا وكذلك إدخال قوانين السوق (الذي يُعتبر حراً من حيث المبدأ) الى الساحة السياسية في مراحل الرأسمالية الأولى .

وفي المجال الاقتصادي كانت الحداثة تعني الانضمام الى السوق الغربية . هذه السوق وطبقاً لعلاقة القوى الموجودة فيها امتنعت عن تسهيل نقل طرق انتاجها (التصنيع) ولكنها شجعت بشدة تقليد طريقتها في الاستهلاك وذلك لأنها تريد أن تُوجد زبائن لها لا منافسين .

ونتيجة لذلك أُجبرت البلدان التي أستعمرت أولاً ثم أُخضعت لتبادلات غير متكافئة على تقديم المواد الأولية واليد العاملة لتسمح لأقلية أُطلق عليها اسم النخبة (أي بعض وسطاء وعملاء الُمحتل أو الُمستعمر) بالمساهمة في طريقة الاستهلاك هذه .

وفي المجال الثقافي ، كانت الحداثة تعني تبني فلسفة النمو على الطريقة الغربية بشكل ضمني . لأن التقنية ليست أبداً محايدة فإنها تحمل في

ضمنها مسوغاتها الذاتية التي تسمح لها لأن تتخذ مكانة « هدف بحد ذاته » و « القيمة » المثلى : أي التطور الذي يعني ازدياد السيطرة على الطبيعة وعلى البشر . ومن هنا ينتج رفض كل أشكال التعالي إذ أن « الهدف بحد ذاته » في السلطة التقنوقراطية يأخذ مكان هذا التعال ووظيفته) . إن تمجيد الفردية (إذ تجعل منافسات السوق وكما أوضح ذلك « هوبس » منذ خطوات الرأسمالية الأولى ، تجعل من الانسان ذئباً لأخيه الانسان) ، وقصر الفكر على البحث عن الوسائل دون الغايات لأن الأهداف قد حدَّدتها مسبقاً طبيعة النمو والقوة المسيطرة .

منذ ذلك الحين لم يعد ينطبق على كافة مفاهيم الحداثة تعريفها على أنها ازدهار الثقافة والايمان الإسلاميين الذي يستجيب للإحتياجات الجديدة عند الشعوب ذاتها وانما كغرس لطريقة حياة اوجدتها شعوب أخرى لتلبي حاجاتها الخاصة .

إن اقحام الاحتياجات الغربية في حياة المسلم **قادته** لأن يصبح غريباً عن نفسه وذريته وتاريخه وثقافته ومستقبله . ان ما أقترح على العالم العربي الاسلامي ليتخذ طابع الحداثة هو أن يمر بالمراحل ذاتها التي اجتازتها اوروبا منذ اربعة قرون . وان يعتبر ماضي الآخرين على انه مستقبل له .

ردّ المحافظين

ويجيب المحافظون بشكل معارض تماماً على السؤال ذاته : كيف يمكن للعالم العربي الاسلامي أن يؤكد حقه في الوجود ؟ بدلاً من أن يقولوا كما قال السابقون : « بتقليد الذين يقتلوننا وبأن نصبح مثلهم » ، يعتبرون انه اذا كان هناك انحطاط في العالم العربي الاسلامي فهذا لأن المسلم قد ابتعد عن دينه وعن تعاليم الأقدمين وانه قد انسلخ عن تراثه لينساق مع اغراءات الشيطان الغربي من هنا قرروا ان يجعلوا الاسلام في حصنٍ لا نوافذ له ولا أبواب ولا حتى فتحات مطلة على السماء ، وان يدافعوا بشكل كلي عن التراث دون ان يميزوا التعليم القرآني من الشوائب والترسبات التي اغرقته

في احيان كثيرة بتأثير ما جلبته اليه المجتمعات المختلفة التي دخل فيها .

وقد ظهرت تيارات تعصبية عرفتها جميع الأديان وهي قامت على خلط العقيدة بالتحجر وعلى عدم التمييز بين الاشكال الثقافية والأشكال التنظيمية التي آمنت بها خلال تاريخها الطويل وصار كل فريق من المتعصبين يختار من الماضي الفترة التي تبرر تصرفاته الحالية على أكمل وجه .

الاسلام لا يعرف التعصب

حتى بالنسبة لمن يعتبر هذا الكتاب على انه مُوحى به وأن الله قد أنزله على النبي ، فإن القرآن يكرر في أماكنَ عديدةٍ أن الله قد أرسل لكل أمةٍ أنبياء بحيث تتمكّن كل أمة فهم الرسالة السماوية على طريقتها . حتى بالنسبة لمن يعتبر محمداً على أنه خاتَم النبيين. فمن تفسيرات الخلفاء الراشدين، أولئك الذين كانوا من صحابة النبي الأول. وكذلك من جاء بعدهم من مختلف المذاهب الشرعية ، كان واضحاً أن الكلامَ المنزل على النبي رغم كونه آخر رسالةٍ إلَهيةٍ مُشرعة **فإنه لا يستبعد مطلقاً الاجتهادَ الضروري لحلِّ القضايا الجديدة التي تُطرح خلال انتشار الاسلامِ في مجتمعاتٍ مختلفة عن أمة المدينة على ضَوْءِ الوحي الأساسي .**

إن حظر الاجتهاد، اي منعَ ممارسةِ الحكم لحل مشاكلَ جديدةٍ ضمن روح الوحْي القرآني[1] قرَّره زعماءسياسيون في فترة محددة من فترات التوسع الامبراطوري . إن روح الانغلاق هذه متعارضةٌ جذرياً مع روح وحرفية التعليم القرآني . فالنبي لم يدَّعِ بأنه مؤسس دينٍ جديد وانما هو مُصلحٌ في ايمان ابراهيم الاساسي : انه يتمثل مساهمات اليهودية والمسيحية التي يجب تعميقها وإلغاء التشوهات والشوائب على اعتبار النبـوات السابقة كمراحلَ للنبوة بشكل عام[2] هذه المحاولة تتغذى من كافة فلسفات العالم متجاوزة

(١) وهنا يبين روجيه غارودي ضرورة الاجتهاد من خلال النصوص القرآنية والتي تصلح لكل زمان ومكان . وهذا ما شرحناه ووضحناه بفصل سابق .

(٢) وهذا ما يبينه قول النبي ﷺ عن أبي هريرة : « إنّ مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنىٰ =

حتى أهل الكتاب ، وقد قال النبي : « اطلبوا العلمَ ولَوْ في الصين »[1] .

وعندما يعلن أحد رجالِ الدين في إيران : « إن الاسلام يكفي في ذاته » ، فإننا نفهم تماماً انه يرفض كلية أدوات وشذوذَ العالم الغربي ، ولكن هذا الاكتفاء هو على نقيض التعليم الاسلامي اذا كان يعني انه ليس عليه ان يتعلم أي شيء من الغير في حين ان عظمة الاسلام منذ منشئه وفي قمته ناشئة من كونه عرف كيف يستوعب الأشكال الايمانية السابقة وكذلك افضل ما في الثقافاتِ العظيمةِ من تراثٍ ليشكِّل منها تركيباً لم يُعرف له مثيل ويسمو بها!! ولم يبدأْ انحداره إلاّ عندما بدأ يرفض ذلك (كما عرفت من ناحية اخرى الكنيسة الكاثوليكية التراجع عندما أبدت عجزها عن تمثل القضايا العلمية والقضايا الاجتماعية في الأزمنة الحديثة منذ عصر النهضة) .

بالاضافة الى ذلك ، لقد خُلِطَ بشكل عام تحت اسم السُنّة:التي هي من الوحي الالهي ، بين عاداتٍ ليس لها أساسٌ في القرآن ولا في أحاديثِ وتصرفاتِ النبي. هذا الخلط يقود الي خرقٍ فاضح لروح الايمان الاسلامي : التوحيد . اذ يتبنى ابشع ما في الغرب . يقول الشاعر الانكليزي ت.س. إليوت : « إن من اكبر أخطاء الغرب هي الثنائية » . . وعلى هذا هل هناك ازدواجية أسوأ من ان ندعي اننا نحافظ في المجتمع ذاته على دين بشكله المتزمت الشديد في العلاقات الخاصة؟ وندخل في الحياة الاجتماعية كل أدوات الغرب بدءاً من طرائق استهلاكه الجنونية وحتى اشكال تقسيم العمل وتوزيع الطبقات والفردية المتوحشة التي تفكك المجتمع المدني والمجتمع السياسي؟ . فالتسامي والأمة لا يمكن الفصل بينهما في الاسلام .

فهل نحن بهذا الشكل على طريق استخلاص تركيب؟أو على العكس على طريق مجاورة كل ما هو سيء في حداثة البعض وتقليد البعض الآخر ؟

= بيتاً فأتمه وأجمله إلا موضعَ لبنةٍ من زاوية،فجعل الناس يطوفون ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم (النبيين)» .

(١) حديث اطلبوا العلم . رواه البيهقي ، والخطيب ، وابن عبدالبر وغيرهم عن انس - ويقول الذهبي : له طرق بعضها صالح .

وكان المؤرخ الإنكليزي / توينبي / يقول : « إن قضيةَ الشرق هي قبل كل شيء قضية الغرب » . فعندما نذكر موجة التعصب الحالية في بعض البلدان العربية الاسلامية يجدر ان لا يغيب عن ناظرنا مسؤوليةَ الغرب . خلال فترة الاستعمار والانتداب كلها. وكذلك في يومنا هذا أيضاً عن طريق مشاريع حواضر البلدان الأصلية القديمة والأمم المتعددة. فقد اصبحت وما تزال مراكز اتخاذ القرار والسلطة بمعظمها في الخارج . ان رد الفعل الدفاعي الأوّلي هو الانفصال عن الخارج والانطواء على النفس . السبب الثاني الاكثر وضوحاً خلال السنوات العشر الأخيرة هو إفلاس التقدم المزيف على الطريقة الغربية العاجز،ليس فقط عن اعطاء معنى وغاية للحياة وانما عن إنقاص الفروق في العالم وضمن كل بلد على حده . ومن هنا يمكننا استيعاب رد الفعل في رفض هذا الأمل باكتشاف طريق إسلامي خاص لا يمت بصلة لا الى فوضى الرأسمالية الفارغة من كل روح. ولا الشيوعية السوفيتية . لقد فشلت حلول **الغرب، الفارغة مما جعل هذا الفشل دليلاً قاطعاً على كل أشكال التعصب ونموها.**

فإذا لم يُرفع الصدأ المتشكل عبر عصور السيطرة والاضطهاد عن ايمان البعض واذا لم تع تكنوقراطية البعض الآخر الفساد الجوهري في نظام لا يطرح ابداً قضية مغزاه الانساني وهدفه فإن الحوار قد حُكِم عليه بالسير في طريق مسدودة .

ـ أمة قائمة على التسامي والإيمان ـ

لقد حان الوقت لنعيش ضمن رؤية موحدة للتاريخ كان ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد يشكلون فترات يقظة فيه ، وأن نلتقي بالاسلام كما فعل الأب / لولوبخ / عندما فكرَّ بتعاون مشترك مؤكِداً : « ربما لم يكن الفصل بين مسيحيين ومسلمين وانما بين مؤمنين تقليديين (في كلا الأمتين) متمسكين بصياغة ثابتة لحقائق الوحي من جهة. ومؤمنين (باحثين) همهم قراءة الكتب المقدسة والتوفيق بينها وبين الحياة » .

بهذا الشكل فقط ، وبغض النظر عن كافة المنازعات التاريخية

والاختلافات العقائدية ، يمكن أن نتطرق سوية الى المشاكل الحقيقية : الايمان والسياسة ملكوت الله وتغيير العالم . لأن هذه هي المشاكل الحقيقية في عصرنا هذا واننا نكتفي بتعدادها في خلاصتنا هذه لأننا بيناَّ في هذا التأمل في الاسلام الحي ما هي المساهمات التي يمكن ان يقدمها لحلها . فهل يمكن تأسيس مجتمع على علاقات القوة بين الافراد أو المجموعات التي تشكله بحيث يؤدي الى اعمال عنف (مأجورة) والى توازن ارهابي وأعمال ردع ليست سوى تسمية أخرى للابتزاز أو بمجرد ابرام عقد ؟ او ان المجتمع لا يكون انسانياً بحق ، أي ان ما هو الهي يكمن فيه ، الا بفعل ايمان مشترك باهداف تتجاوز المصالح الخاصة ، وحتى العامة ، لتحقيق نظام لا يكون انسانياً الا لأنه يتجاوز الإنسان .

ما الذي يجب ان نتعلمه من الاسلام في الوقت الحاضر

في ميدان الثقافة بم نستطيع أن نشارك الاسلام ؟ كما في أي ميدان آخر . قبل كل شيء علينا أن نشاركه في الاسلام نفسه ، في إيمانه الذي يُلهم ويُحيي ويُوحّد هذه الثقافة . وقبل كل شيء علينا أن نعرفَها. وهذا يحتم ان نتخلى عن عصرنا الوسيط الذي كان يعتبر الاسلام نقيضاً للمسيحية وأن نتخلى أيضاً عن وسادتنا العلموية والوضعية المستقاة من عصر الأنوار الذي حرم الواقع والفكر من بعدها المتسامي. اذ رأى في الاسلام وفي كل نوع من انواع الايمان وجهاً من وجوه الظلام . هذه التحفظات من قبل المسيحية أو غير المسيحية تجاه الإسلام لا يمكن ان تكون مبرراً للإسلام للتحفظ تجاه المسيحية . لأن هذا التناظر غير موجود : في الأصل ، أي في القرآن الذي ورد فيه ذكر المسيح ومريم باحترام عظيم :

﴿ وقفَّينا على آثارهم بعيسى ابنِ مريمَ مصدِّقاً لِما بَيْنَ يديهِ مِنَ التوراةِ وآتيناهُ الانجيلَ فيه هدى ونور ﴾[1]

---

(١) سورة المائدة الآية ٤٦ ـ ومما يدل على تعظيم المسيح ورسالته في القرآن.أنه سميت سورةٌ كاملة بسورة. مريم. وآلُ عمران . كما ان الايمان بجميع الرسل الوارد ذكرهم في القران واجبٌ على=

﴿ إنّما المسيحُ عيسىٰ ابنُ مريمَ رسول الله وكلمته القاها الى مريمَ وروحٌ منهُ ﴾(١)

إن التراث اللاحق عند أهم المفكرين في الاسلام وحتى عند الغزالي الذي كتب مع ذلك « نقد لبق للمسيحية » وبخاصة عند ابنِ عربي الذي يَعتبر المسيحَ في كتابه « فصوص الحكم » كخاتم للقداسة ويعلن عن عودة المسيح الثانية ، فإنه يعبِّر عن هذا بكل احترام وحب .

إن المسيحية التي ينتقدها أحياناً النبي.هي المسيحية التي كانت سائدةً في عصره.ويبين الأب ميشيل حايك بقوله : « إن نظرةً تاريخية على وضع المسيحيين السوريين العربِ بدءاً من مجمع / أفسوس / ٤٣١ بشكل خاص يفسر موقف نبي الاسلام ويُبرِّئه من الأقوال التي ينسبها اليه أحفادُ المسيحيين في عصره » . هذا التذكير لا يتضمن أية فكرةٍ اندماجية أو تعصبٍ ديني . لا شيء اكثر ضرراً لحوارٍ متبادلٍ مُخصب في الوقت الحاضر الا حلم بعض دبلوماسيي الغرب والشرق الخاطىء : بدمج كافة الديانات في إيمان واحد .

ليس علينا أن نحجب ونُخفي الفروق التي هي عميقة في الواقع ، فالاسلام يرفض فكرة الصليب . وبالنسبة للمسيحي تشكل هذه الفكرة ثورة في نظرته الى الله . فالاسلام الذي يرى من حيث المبدأ انه لا يجوز ان يعلوَ أي حب على حب الله ، يختلف عن المسيحية التي تربط حب الله مع الانسان لأخيه الانسان بشكل تام .

ويرفض الاسلام فكرة التجسيد لدى المسيحية.ففي تأكيده المطلق على التسامي لا يمكن ان يقبل بفكرة « ابن الله » ولا بفكرة « أم الله » رغم ان القرآن يعترف بعذرية مريم .

ويرفض الإسلام الثالوث . وحتى اذا صح ان الصياغات المتأثرة

= كل المسلمين كإيمانهم بنبيهم محمد ﷺ دون تمييزٍ بالايمان بين محمدٍ ﷺ وبين جميع الرسل .

(١) سورة النساء ١٧١

بالاغريق بهذه العقيدة تفسر هذا الرفض فإنه يظل فوق مستوى الصياغة والشكل. فهناك فرق في المضمون . فالحب ليس له في الاسلام المكانة والمعنى ذاتهما كما في المسيحية . فلم تتضمن الأسماء الحسنى اي اسم يشير الى الحب (كالرحمة مثلاً التي تشير اليها اول الاسماء الحسنى) ولهذا ليس الله في مبادىء الاسلام رمزاً لترابط الانسان مع الغير في وحدة تامة .

- اللهُ اكبر -

هذه الفروق العميقة الجذرية مع كل ما تتضمنه في طريقة وجود الله في حياتنا لا يمكن مع ذلك ان تُخفي ما يمكن ان يكون مفيداً حقاً في روح الاسلام الحية : فالتوحيد الذي أُستبعد باسمه كلُّ شرك ، يعتبره المسلم أول الآثام وآخرها .

لا إله الا الله ، هذا التأكيد الجوهري في الشهادة الاسلامية يُقصي كل ما يمت الى الأصنام التي تكثر في مجتمعاتنا : كصنم النمو،والتطور،وصنم التقنية العلموية ، وصنم الفردية وصنم القومية ، وصنمِ قوة السلاح والجيش ، وكل منها يحمل محرماته ورموزه المقدسة وطقوسه . ويؤكد الاسلام رفضه لهذه الأصنام بقوله : لا إله الا الله . والله واكبر . . . واننا لنعرف قوة قلب الانظمة والتحرير في هذا التأكيد على الايمان التي جعلت الجيوش العديدة تتراجع بينما ايماننا ومنذ زمن طويل لم يعد قادراً على صد أي شيء وبشكل خاص أصنام الأسلحة والقوميات الفتاكة التي تميل كنائسنا الى تأييدها .

ان الحوار مع الاسلام يمكنه أن يُحييَ من جديد خميرة إيماننا الذي يستطيعُ ان ينقل الجبال من أماكنها .

وفي علاقة الانسان بالطبيعة يمكننا أن نتعلم من الاسلام. ان نعكس موقفنا الذي ، منذ عصر النهضة ، يجعلنا نتعامل مع الطبيعة بروح عدائية غازية.هدفها الوصول الى فرض علاقات بيننا وبينها كمالكٍ ومملوك ، سيدٍ وعبد : مالكٍ جشع لا يشبع من رغبته في استثمار ملكيته دون حدود وسيد ظالم وغير مبال في آن واحد.تقوده نظرتُهُ المحدودة الى عدم التردد في قتل

عبده من جراء المهام التي يلقيها على عاتقه . إن التعاليمَ القرآنية مختلفة تماماً : اذ انه يمكننا من أن نكتشف في الانسان بعده الكوني . فالانسان حسب الاسلام يحمل في ذاته كل درجات وجود الكون ، وهذا العالَم الصغير فقط هو الذي قبل المسؤولية القصوى مسؤوليةَ الوعي والايمان : ﴿ إنا عرضنا الأمانةَ على السموات والأرضِ والجبال فأبَيْنَ أن يحملْنها وأشفقْنَ منها وحملها الإنسانُ إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾[1] .

ولهذا حتى حين بدا « ظلوماً جهولاً » فقد تولى منصب « خليفةَ الله على الأرض » مسؤولاً ومكلفاً بالحفاظ على توازن العالم. وَربطِ كل كائنٍ بمنبعه الأصلي وبغاياته ضمن طبيعة كل حقيقة جزئية فيها رمزٌ لوجود الواحد أي الله .

من الناحية العملية هذا التفكير المشترك يسمح لنا مثلاً أن نطرح مشاكل الطاقة بتعابيرَ تنم عن الحضارة والمعنى اللذين نَصْبوا إليهما . فبدلاً من استهلاك احتياطياتِ الطاقة الجوفية بشكل عشوائي. دون ان نحسب حساباً للاجيال اللاحقة ولا للأهداف الانسانية الشاملة ، يعلمنا هذا التفكّير ان نعودَ الى نبع الطاقة الذي لا ينضب ، المتمثل بالمياه والبحار والشمس والأرض والرياح .

إن معنى الوحدة هذا : وحدة الحكمة والعلوم ، وحدة التفكير بالغايات وتنظيم الوسائل يمكن ان يعلمنا من جديد استخداماً كاملاً للعقل من أجل مرحلة جديدة في الحياة ومن أجل الإنسان الذي يفكر بها . أن نستخدمَ العقل استخداماً كاملاً في مرحلة حياة جديدة وانسان جديد يبني هذه الحياة . ولا ينتقل من سببٍ الى سبب ومن شرطٍ الى شرط وانما من غايةٍ الى غاية ، من غاية دنيا الى غاياتٍ اسمى حتى يصلَ الى ذلك الصعود الذي يجعله يعي أنه غير متناهٍ وأن لا شيء يُعفي الانسان من مسؤوليته المرهقة وحريته الدافعة الى السمو في اختيار هدفه الأسمى . لأن الله في الإسلام لا يكشف نفسه وانما

(1) سورة الاحزاب الآية ٧٢

كلامَه فقط. وللإنسان كاملُ الحرية في رَفْضِ هذا الكلام او في جعله مبدأً خلّاقاً لعمله .

وفي مجال الفنون ، الا يتجه الشعر الاسلامي الحالي الى ملاقاة اولئك الذين يعيشون على أمل ابداع فنٍ يحمل الى الصورة الانسانية شيئاً جديداً في فرنسا وفي الغرب ؟

ولكي نتغلب على كافة العقبات التي تتعارض مع الحب والابداع والايمان ، هذه العقبات التي نشأت من طريقتنا الغربية في السعي وراء النمو ومن الثقافة الوصفية والتقنية التي تدعمها.، يستطيع هذا اللقاء مع الروح التنبؤية ان يحيي ايماناً جديداً في الابداع والحب لأن أعظمَ شاعرٍ مسلم في عصرنا هذا / محمد إقبال / قد قال : « ان هدف القرآن الاساسي هو أن يحييَ في الانسان وعياً أسمى لعلاقاته العديدة مع الله والعالم » .

تم بعون الله

في ٣/٣/٨٣

أحداث تاريخية

احداث خارجية

٦١٤ بداية سلالة تانغ في الصين
٦٤٧ تقسيم الهند
٦٦٥ دخول الصين في حرب مع الاتراك
٧٥١ صناعة الورق في سمرقند - عصر /نارا/ في
٧١٠ اليابان (٧١٠ - ٧٨٤)
٨٠٠ تنصيب شارلمان امبراطورا
٩٣٦ ارتقاء اوتون الكبير في عام ٩٦٢ كامبراطور اس الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة.
١٠٦٥ انشودة رولان
١٠٧٠ غليوم الفاتح في انكلترا
١١١٥ تأسيس كليرڤو من قبل القديس برنارد
١١٣٢ بناء كاتدرائية القديس دونيس وكاتدرائية فيزيلي
١١٤١ اول ترجمة لاتينية للقرآن قام بها فينيرابل.
١١٤٥ ترجمة الى اللاتينية ودراسة للمؤلفات العربية في طليطلة وسينوفيا
١١٦٣ بناء كاتدرائية السيدة العذراء في باريس ١١٦٣ - ١٢٠٦
١١٨٠ بداية حكم فيليب اوغست
١١٠٨ جنكيز خان يوحد بلاد المغول
١٢١٥ جنكيز خان يستولي على بكين
١٢٢٦ سيطرة القديس اوليس ١٢٢٦ - ١٢٧٠.
١٢٤٥ تدريس القديس توما الاكونين في باريس
١٢٥٣ بناء جامعة السوربون
١٢٥٤ اول رحلة لماركوبولو الى الصين
١٣١٢ الكوميديا الالهية دانتي
١٣٣٦ سيطرة تيمورلنك (١٣٣٦ - ١٤٠٥)
١٤٩٢ كريستوف كولمبوس يصل الى الشواطىء الاميركية.
١٤٩٨ فاسكو دي غاما يصل الهند وبداية التدخل الاوروبي في آسيا.
١٥٤٢ حياة القديس جان دولاكروا ١٥٤٢ - ١٥٩١.
١٥٤٥ مجمع ترانت (١٥٤٥ - ١٥٦٣)
١٥٦٤ حياة شكسبير (١٥٦٤ - ١٦١٦)

١٦١٠ اكتشاف غاليلي التلسكوب

١٦٣١ بناء تاج محل في الهند (بناه المهندس اوستاد ايذا)

١٦٣٧ تأليف ديكات كتاب مقال في المنهج

١٧٢١ مونتيسكو: كتاب الرسائل الفارسية

١٧٨٩ الثورة الفرنسية

١٨١٦ غوتيه ينشر كتاب الديوان الشرقي - الغربي

١٨٤٨ ظهور الشيوعية - كارل ماركس

١٨٥٥ بسمارك يخترع آلة لتحويل الصلب الى فولاذ

١٨٣٧ افتتاح قناة السويس

١٩١٤ الحرب العالمية الأولى ١٩١٨

١٩١٧ الثورة الروسية

١٩٢٠ غاندي يبدأ التمرد المدني في الهند

١٩٢٣ ت. اس اليوت ينشر كتاب الارض الخراب

١٩٣٣ هتلر يصبح مستشار المانيا

١٩٣٩ سقوط مدريد بيد فرنكو

١٩٤٠ الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥)

١٩٤٣ الحصار الالماني لستالينغراد

١٩٤٥ قصف هيروشيما بالقنبلة النووية

١٩٤٧ انشاء حكومة هوشي منه في فيتنام

١٩٤٨ الغرب ينشىء اسرائيل

١٩٤٩ توقيع معاهدة حلف الاطلسي

١٩٥٣ وفاة ستالين

١٩٥٥ مؤتمر باندونغ

١٩٥٦ المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي (ستالين)

١٩٦٠ السلاح النووي الذي يمكنه ان يدمر الانسانية

١٩٦٢ افتتاح مجمع الفاتيكان الثاني

١٩٦٤ الشاعر الفرنسي آراغون ينشر (مجنون الزا)

١٩٧٩ اتفاقيات كامب ديفيد

فن - ادب - علوم - فلسفة

٦٧٠ بناء القيروان

٧٦٢ بناء مدينة بغداد

٧٦٧ موت الامام ابو حنيفة

٧٨٥ بناء الجامع الكبير في قرطبة

٨٠٠ بناء مدينة فاس

٨١٠ موت الشاعر ابو نواس

٨٢٥ بحث الخوارزمي حول الحساب الهندسي والجبر

٨٣٢ بناء بيت الحكمة في بغداد

٨٣٦ بناء مسجد القيروان في تونس

٨٥٥ وفاة الامام احمد بن حنبل صاحب المذهب الحنبلي

٨٦١ بناء الجامع الكبير في سامراء بالعراق

٨٦٤ بناء الجامع الكبير في الزيتونة بتونس

٨٧٠ موت البخاري الذي جمع الاحاديث النبوية

٨٧٣ موت حنين بن اسحق الذي كان مسؤولا عن الترجمات الى العربية

٦٩١ بناء مسجد قبة الصخرة في القدس

٧٠١ موت الشاعر الدجامي

٧٠٩ بناء جوامع كبيرة في دمشق والقدس والمدينة

٨٧٤ وفاة الكندي

٩٢٢ وفاة الحلاج

٩٦٠ وفاة الفيلسوف الفارابي

٩٧٢ انتهاء بناء جامع الأزهر بالقاهرة

١٠١٥ كتاب الملوك الفردوسي

١٠٣٧ وفاة ابن سينا

١٠٣٩ وفاة ابن الهيثم

١٠٤٨ وفاة البيروني

١٠٥٠ (قيس ورامين) لجرجاني

١٠٦٣ وفاة ابن حزم

١٠٦٧ تأسيس المدرسة النظامية في بغداد

١٠٧٠ انشاء مدينة مراكش

١٠٨٨ بناءالجامع الكبير في اصفهان

١١١٤ وفاة الرياضي والشاعر عمر الخيام

١١٥٣ خريطة الأرض للادريسي

١١٩١ وفاة السهروردي

١١٩٨ وفاة ابن رشد

١٢٠٣ وفاة الشاعر النظامي

١٢٠٧ وفاة الشاعر والكاتب فريد الدين العطار

١٢٤٠ وفاة ابن عربي

١٢٥٢ وفاة السعدي

١١٢٢ وفاة الحريري كاتب المقامات

١٤٩٢ وفاة الشاعر الجامي

١٢٧٣ وفاة جلال الدين الرومي

١٢٩٨ وفاة العالم والجراح ابن النفيس

١٣٧٧ وفاة الرحالة الجغرافي ابن بطوطة

١٣٣٠ وفاة المتصوف التركي يونس ايمري

١٤٠٦ وفاة ابن خلدون

١٥٣٦ وفاة الرسام بهزاد

١٥٨٨ موت سنان ، مهندس معماري تركي ، وهوباني جامع السليمانية في استانبول

١٦٤٠ وفاة الملا سادر الشيرازي (فيلسوف إيراني ولدي) ١٥٧٢

١٥٧٢ وفاة رفاعة الطهطاوي رائد النزعة القومية المرية

١٨٨٤ تأسيس كل من جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده مجلة الحركة الاسلامية

١٩٠٥ وفاة محمد عبده المرافع بقوة عن العودة الى الاسلام السليم .

١٩١٨ محمد اقبال الباكستاني ينشر كتاب رسالة الشرق

١٩٢٣ خليل جبران ينشر كتاب النبي

١٩٣١ انشاء الشيخ ابن باديس رابطة العلماء في الجزائر

١٩٣٢ خليل مطران ينشىء جماعة ابولو الشعرية في لبنان

١٨٦٨ وفاة احمد شوقي المولود في القاهرة سنة ١٨٦٨ امير الشعراء

١٩٤٣ طه حسين ينشأ مجلة الكاتب المصري ليبرالي وطني

١٩٤٦ علال الفاسي حقق استقلال المغرب

١٩٦٤ وفاة الكاتب المصري عباس محمود العقاد

١٩٦٥ محمود درويش ينشر القصائد الفلسطينية

تاريخ الاسلام الشامل

٦١٢ بدء الوحي على الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم .

٦١٤ سقوط القدس بيد الفرس

٦١٩ وفاة السيدة خديجة زوجة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

٦٢٢ عام الهجرة

٦٢٨ البيزنطيون يسلبون المدائن

٦٣٢ وفاة الرسول ﷺ
٦٣٢ خلافة ابي بكر (٦٣٢ - ٦٣٤)
٦٣٤ خلافة عمر بن الخطاب (٦٣٤ - ٦٤٤)
٦٤٢ معركة نهاوند وهزيمة الفرس الساسانيين فتح العرب لمصر
٦٤٤ خلافة عثمان (٦٤٤ - ٦٥٦)
٦٥١ جمع القرآن في مصحف
٦٥٦ خلافة علي بن ابي طالب (٦٥٦ - ٦٦٠)
٦٥٦ خلافة معاوية
٦٦٠ بداية سلالة بني امية في دمشق
٦٨٠ استشهاد الحسين حفيد النبي في كربلاء بالعراق
٧١٠ معركة ريوبا رباط بالقرب من جليبراطرا وسقوط سلالة القوطيين في اسبانيا
٧١١ التوسع الاسلامي في كل اسبانيا (٧١١ - ٧١٦)
٧٢٥ المسلمون في ناربون
٧٣٢ معركة بواتيه
٧٥٠ بداية السلالة العباسية وارتقاء ابو العباس السفاح
٧٥٤ الخليفة المنصور (٧٥٤ - ٧٧٥)
٧٥٥ عبد الرحمن الداخل في اسبانيا
٧٨٦ خلافة هارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩)
٧٨٧ وصول التجار المسلمين الى كانتون في الصين
٨١٣ خلافة المأمون (٨١٣ - ٨٣٣)
٨٢٧ غزو صقلية (٨٢٧ - ٩٠٢)
٨٩٤ بداية دولة القرامطة في نهاية القرن الحادي عشر
٩٢٩ انشاء الخلافة في قرطبة
١٠٠١ فتح المسلمين للبنجاب
١٠١٠ تجزئة الاندلس
١٠٣١ نهاية الخلافة الاموية في قرطبة
١٠٦١ فقدان صقلية وسقوطها بيد النورمانديين
١٠٨٢ فتح يافا
١٠٨٥ سقوط طليطلة بيد الفونس السادس
١٠٩٥ الحرب الصليبية الاولى
١٠٩٩ سقوط القدس بيد الصليبيين
١١٤٧ الحملة الصليبية الثانية
١١٨٧ صلاح الدين الأيوبي يطرد الصليبيين من القدس
١١٩٠ الحملة الصليبية الثالثة
١٢٠٢ الحملة الصليبية الرابعة
١٢٠٤ سلب الصليبيين لمدينة القسطنطينية
١٢٠٦ السلاطنة الدهلويون حتى عام ١٥٥٥
١١٢١ فريدريك الثاني امبراطور وملك صقلية حتى عام ١٢٥٠
١٢٣٦ سقوط قرطبة بيد الاسبانيين
١٢٤٩ استلام المماليك للسلطة في مصر
١٢٥٨ احتلال المغول لكل من العراق وايران وسوريا
١٢٧٣ سقوط بغداد بيد هولاكو حفيد جنكيزخان
١٢٧٦ رومان لوك يؤسس الكلية العربية في ماجورك
١٣٨٩ تقدم الاتراك في اوروبا حتى كاسوكو وسيبيريا
١٣٩٣ سقوط بغداد بيد تيمورلنك
١٤٥١ بداية سلالة محمد الثاني واوج الامبراطورية العثمانية

١٤٥٣ الاتراك ونهاية الامبراطورية البيزنطية
١٤٩٨ سقوط غرناطة آخر مملكة اسلامية في اسبانية
١٥٠٢ تغلب الاتراك على اليونان وتوسعهم حتى هنغاريا (١٥٠٢ - ١٥٠٣)
١٥٢١ بداية عهد السلطان سليمان الذي سيطر على غالبية الدول العربية والجزيرة العربية، العراق، افريقيا الشمالية، وقد وصل في القارة الاوروبية الى فيينا (١٥٢٩)
١٥٣٥ معاهدة تجارية مع الفرنسيين وتحالف فرانسوا الاول مع سليمان
١٥٦٤ نهاية سلطة سليمان وافول شمس الامبراطورية العثمانية
١٥٨٧ استلام السلطان شاه عباس السلطة في بلاد فارس (١٥٨٧ - ١٦٢٩)
١٦٩٩ سلام كارلو تيلي بداية التراجع العثماني عن هنغاريا
١٧٩٨ غزو نابليون بونابرت لمصر
١٧٩٩ اندونيسيا تصبح مستعمرة هولندية
١٨٠٥ تنصيب محمد علي نفسه حاكما على مصر
١٨١٦ التخلص من نظام المماليك
١٨٣٠ استقلال اليونان عن الحكم التركي
١٨٤٨ غزو الفرنسيين للجزائر
١٨٦٧ ثورة السيباسيين في الهند
١٨٧٨ معاهدة سان ستيفانو ومؤتمر برلين من اجل تمزيق السلطة العثمانية التي فقدت كل من رومانيا والبلقان وكل افريقيا وشمال مصر حتى تونس . ,
١٩٢٣ معاهدة لوزان التي اعترفت بمصطفى كمال وباستقلال تركيا - (لجمهورية علمانية
١٩٢٤ الغاء الخلافة
١٩٢٦ ابن سعود يصبح ملك الحجاز مؤسس المملكة العربية السعودية
١٩٤٥ انشاء جامعة الدول العربية
١٩٤٧ استقلال الهند والباكستان
١٩٤٩ استقلال اندونيسيا
١٩٥١ استقلال ليبيا
١٩٥٦ جمال عبد الناصر رئيس مصر
١٩٥٧ بورقيبة رئيس تونس
١٩٦١ نهاية الوصاية على الكويت
١٩٦٢ تحرير الجزائر
١٩٦٢ احمد بن بيلا اول رئيس للجمهورية الجزائرية
١٩٦٤ ياسر عرفات يصبح رئيس منظمة التحرير
١٩٦٧ حرب الايام الستة بين الدول العربية واسرائيل
١٩٧٠ وفاة عبد الناصر
١٩٧٣ الحرب بين الدول العربية واسرائيل

الفهرست

كلمة الناشر ٩

مقدمة الطبعة الإفرنسية ١٥

الفصل الأول :

نحو لقاء مع الإسلام ٢١

الفصل الثاني :

القلب والروح ٥٥

الفصل الثالث :

الأمة الإسلامية ٧٣

الفصل الرابع :

العلم والإيمان ٨٧

الفصل الخامس :

من الفلسفة إلى التصوف ١٠٩

الفصل السادس :

من الفن إلى الصلاة ١٣٣

الفصل السابع :

الشعر والتنبؤية ١٤٥

الفصل الثامن :

الإسلام ومستقبلنا ١٧٣

أحداث تاريخية ١٩٣

بسم الله الرحمن الرحيم

المؤسسة الثقافية الإسلامية
جنيف

FONDATION CULTURELLE ISLAMIQUE
GENÈVE

التاريخ ١١/٩/١٤٠٢هـ
الموافق ٢/٧/١٩٨٢م

شهادة اشهار اسلام

– ان الدين عند الله الاسلام –

تمّ بفضل الله و توفيقه اشهار اسلام صاحب هذه الشهادة – في المؤسسة الثقافيّة الاسلاميّة – في مدينة جنيف يوم الجمعة وتاريخ ١١رمضان ١٤٠٢الموافق ٢ يوليو ١٩٨٢م

اسم العائلة : جارودى

الاسم الاول : روجيه جان شارل

الأسم الاسلامى : رجى

من مواليد مدينة : مارسيليا/فرنسا بتاريخ : ١٩١٣/٧/١٧م

دينه السابق : كاثوليكي

المهنة : كاتب

الحالة الاجتماعيّة : متزوج

العنوان : .... رقم الهاتف : ....

الجنسيّة : فرنسية

رقم جواز السفر : [illegible] صادر في : مارن/فرنسا بتاريخ : ١/٢/٧٨

تاريخ اشهار الاسلام : ١٤٠٢/٩/١١ الموافق : ١٩٨٢/٧/٢م

الشاهد الأول
الدكتور/محمد شوقي الارضى

الشاهد الثاني
السيدة/سلمى نور الدين التاجي

صاحب الشأن
رجى جارودى

ختم المؤسسة

امام المسجد : [illegible]
(الشيخ محمد [illegible])

min Colla on - 120 Petit Saconnex — Té phone 022/9 37 1

دار الأمان